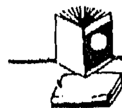
وزارة الثقافة
إحياء التراث العربي
(١٠٠)

الرسائل السياسيّة

في العصر العبّاسي الأوّل

تأليف
الدكتور حسين بيوض



منشورات وزارة الثقافة
في الجمهورية العربية السورية
دمشق ١٩٩٦

الرسائل السياسية في العصر العباسي الأول / تأليف حسني بيوض . —
دمشق : وزارة الثقافة ، ١٩٩٦ . — ٢٦٣ ص ؛ ٢٤ سم . —
(احياء التراث العربي ؛ ١٠٠) .

١ — ٨١٦٫٠٠١٠٠٩ ب ي و ر   ٢ — ٨١٦٫٠٥١ ب ي و ر
٣ — العنوان   ٤ — بيوض   ٥ — السلسلة

مكتبة الأسد

الايداع القانوني : ع — ٧٣٩ /٦/١٩٩٦

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

إذا كان العصر الجاهلي هو العصر الذهبي للشعر العربي ، وإذا كان العصر الأموي هو العصر الذهبي للخطابة العربية ، فان العصر العباسي هو — بحق — العصر الذهبي للكتابة العربية ، بما فيها فن الرسالة . والرسائل فن قديم وأصل من فنون النثر ، لا يقل اهمية وشهرة عن غيره من الفنون الأخرى . وهو ينقسم الى أقسام عديدة بحسب الموضوعات التي يتناولها ويعالجها . فهنالك الرسائل الأدبية، والرسائل العلمية ، والرسائل الدينية ، والرسائل التاريخية ، والرسائل الفلسفية ... والرسائل السياسية . والقسم الأخير هو مجال بحثنا في هذه الدراسة .

ويُراد بالرسائل السياسية الكتب التي تكون بين الملوك والحكام والأمراء والولاة والقواد ، وبمعنى آخر الرسائل ذات الطابع الرسمي ، التي دعيت في العصور المتأخرة بالسلطانيات ، ويندرج ضمنها في بعض الأحيان ما يوجهه بعض العامة أو الخاصة الى تلك الطبقة. وموضوعات تلك الكتب تتصل بسياسة هؤلاء وانظمة حكمهم ، وتصريف شؤون الدولة وحكامها ، وتنظيم العلاقات مع الدول المجاورة(١) . ولأهمية هذه الرسائل السياسية فقد أصبح لها ديوان خاص بها في وقت مبكر، فلذلك نسبت اليه ، فسميت بالرسائل الديوانية .

---

(١) وبهذا يخرج من بحثنا ما يعرف بالفصول والتحميدات ، والتعازي والتهاني ، ورسائل الاستعطاف والاعتذار ، واستنجاز الوعد والوصايا ، لانها جميعها تدخل في باب الرسائل الاخوية والادبية .

ولقد اقبلت على هذه الرسائل ، لانها لم تحظ الى الآن بمـا هي جديرة به من الدراسة والاهتمام ، لانصراف معظم الباحثين الى دراسة الرسائل الادبية او الفلسفية ، مغفلين هذا القسم من الرسائل ، ومن ثم لم نجد دراسة واحدة اختصت بالرسائل السياسية لهذا العصر ، او عنيت بها . وانما كل الذي كتب عنها ، أو قيل فيها ، لا يعدو أن يكون وقفات سريعة ، وملاحظات عابرة ، لا تروي الغلّة ، ولا تفي بالغرض ، على الرغم من كون الرسائل السياسية جزءا لا يتجزأ من فن الرسائل ، هذا الفن الأصيل من فنون الكتابة العربية .

وكان لا بد قبل الشروع بالبحث من تحديد عصره وزمنه ، فقصرته على العصر العباسي الأول ، الذي ينتهي بمقتل الخليفـة المتوكل على الله ، سنة سبع واربعين ومائتين للهجرة ، على حد تقسيم بعضهم . ولقد اخترت هذه الفترة دون غيرها لأنها تعد ــ كما ذكرت آنفا ــ بداية العصر الذهبي للكتابة الفنية ، الذي امتد الى أواخر القرن الرابـع ، وأوائل القرن الخامس الهجريين ، وهو عصر ازدهار الرسائل ورقيها من حيث الكيف والكم ، إذ أصبحت فنا راقيا ، يجاري غيره من الفنون الأخرى ، ولم تكن قبل ذلك قد اكتملت معالمها وبلغت ما بلغته مـن النضج والازدهار . كذلك فانها بدءا من القرن الخامس ، أخذت تفقد روحها ورونقها ، لتغدو أشبه بقوالب ، يصوغ الكتاب رسائلهم عـلى مثالها ، فيغلب عليها التقليد والتكرار ، وتنحدر الى الركاكة والاسفاف .

من الذين كتبوا في الرسائل السياسية « الديوانية » في العصـر العباسي الأول الدكتور شوقي ضيف ، فتحدث عنها في البنـد الرابع تحت عنوان « الرسائل الديوانية والعهود والوصايا والتوقيعات »وذلك في الفصل الثامن ، الذي خصه بتطور النثر وفنونه(٢) .

(٢) شوقي ضيف : العصر العباسي الأول (دار المعارف بمصر) ، ص ٤٦٥ .

كذلك خصص أنيس المقدسي في كتابه (تطور الأساليب النثرية) فصلا للرسائل الديوانية قديما وحديثا(٣) ، بيد أنه لم يطل الوقوف عند هذه الفترة من العصر ، اذ سرعان ما تجاوزها الى الحديث عن من أمراء الانشـاء الديواني المتأخرين ، كابن العميد ، وأبي إسـحق الصابي ، والقاضي الفاضل ، ولسان الدين بن الخطيب ، بعد أن ساق مجموعة من الرسائل الديوانية التي تعود الى العصر العثماني .

وتحدث الدكتور حسين نصـار في كتابه (نشأة الكتابة الفنية في الأدب العربي)(٤) عن الرسائل السياسية في العصر الجاهلي ، وصدر الاسلام ، وعهد الأمويين ، وساق نماذج من تلك الرسائل ، معلقا عليها، ومشيرا الى بعض كتابها الذين اشتهروا في عصرهم ، وكان طبيعيا أن تنتهي دراسته بانتهاء العصر الأموي ، دون أن يتعرض الى ذكر شيء عن الرسائل في العصر العباسي ، لأن بحثه اقتصر على النشأة .

ولابد من الاشارة الى ما كان للأستاذ احمد زكي صفوة ــ أستاذ اللغة العربية بدار العلوم ــ من فضل في هذا المجال ، بجمعه وتحقيقه مشهور الرسائل عامة ، والرسائل السياسية خاصة ، منذ العصـر الجاهلي الى مستهل العصر البويهي ، وذلك في كتابه المسمى « جمهرة رسائل العرب في عصور العربية الزاهرة »(٥) . وقد جعله في أربعـة أجـزاء :

---

٣ انيس المقدسي : تطور الاساليب النثرية في الادب العربي ، الطبعة الثالثة (بيروت ١٩٦٥) . ص ٢١٨ .

(٤) حسين نصار : نشأة الكتابة الفنية في الادب العربي ، الطبعة الأولى (القاهـرة ١٩٥٤) .

(٥) احمد زكي صفوة : جمهرة رسـائل العرب في عصور العربية الزاهرة ، الطبعـة الاولى (القاهرة ١٩٣٧) .

الجزء الأول : ويحوي الرسائل في العصر الجاهلي ، وعصر صدر الاســلام .

الجزء الثاني : ويحوي الرسائل في العصر الاموي .

الجزء الثالث : ويشتمل على الشطر الأول من رسائل العصرالعباسي الأول ، وهو يحوي رسائل العباسيين من أول خلافة السفاح الى آخر خلافة المأمــون .

الجزء الرابع : ويشتمل على الشطر الثاني من رسائل العصــر الأول ، وهو يحوي رسائل العباسيين من أول خلافــة المعتصم الــى استيلاء بني بويه على بغداد سنة أربع وثلاثين وثلاثمائة للهجرة .

وبذلك يكون قد قدّم للدارسين فوائد جمة ، ومهد السبيل لمــن اراد البحث والدراسة لهذا اللون من الأدب ، مضيفا بعمله ذاك لبنات جديدة الى صرح المكتبة العربية .

وآخر دراسة ظهرت في فن الرسائل ما كتبه غانم جواد رضا من العراق ، تحت عنوان (الرسائل الفنية في العصر الاسلامي حتى نهاية العصر الأموي) . وهي دراسة عامة للرسائل الشخصية والديوانية في هذين العصرين ، على اختلاف ألوانهــا ، السياسية ، والحربيــة ، والادارية ، والدينية ، والوصفية ، والأخوية .

وقد توخيت في بحثي هذا أن أعرض لأهم ما بقي لنا من رســائل سياسية من ذلك العصر ، تلك النصوص التي تعد نماذج فريدةللبلاغة والفصاحة في النثر العربي ، وأمثلة رائعة للكلام الرصين ، والســبك المتين ، والأسلوب المشــرق ، حظيت بمكانة عاليــة ، لدى المتقدمين والمتأخرين .

عمدت بادىء ذي بدء الى ذكر نبذة عن الرسائل السياسية قبل العصر العباسي ، فتحدثت من خلال ذلك عن ديوان الرسائل ونشأته، ثم تكلمت على ازدهار الرسائل وتطورها في هـذا العصـر ، وبينت المستوى الرفيع ، والشكل اللائق الذي وصلت اليه . ثم توقفت قليلا عند المصادر التي حفظت لنا هذه الرسائل ، ونقلتها عبر تلك القرون الطويلة ، ثم مضيت لأتحدث عن توثيقها وتحقيقها ، مولياً هذه الناحية أهمية كبيرة ، لما لها من اثر بارز في قيمة الرسائل والدراسة . ثم أشرت الى كتابتها منوها بأشهر كتاب الرسائل الديوانية في هذا العصر، ابتداء بابن المقفع ، وانتهاء بمحمد بن عبد الملك الزيات .

بعد ذلك عرضت للموضوعات التي عالجتها الرسائل ، وذلـك في الباب الأول الذي جعلته في اربعة فصول،تناولت في الأول رسائل في تنازع بني العباس حول الخلافة . وفي الثاني رسائل في الأمان . وفي الثالث رسائل في السياسة الخارجية . وفي الرابع رسائل في السياسة الداخلية.

وحين فرغت من الحديث عن موضوعاتها انتقلت الى الباب الثاني، وجعلته في خصائص الرسائل ، وقسمته الى اربعة فصول ، تحدثت في الفصل الأول عن الخصائص الفكرية ، متناولا ظاهرتين بارزتين هما: ظاهرة الدعاوة والغدر ، وفي الفصل الثاني عن الخصائص الفنية ، وفيه تكلمت على مطالع الرسائل وخواتيمها وتأريخها ، وعلى الايجاز والأطناب، وعلى اقتباسها من القرآن والشعر . وفي الثالث تناولت الأسلوب الذي كانت تكتب به ، مشيرا الى مظاهر الصنعة والبديع التي كانت تبـدو في كثـير من الرسائل . وأمـا الفصل الرابع فكـان محاولة لتقويم الرسائل ، وبيان ما تمتعت به من قيمة أدبية .

ولقد رجعت في هذه الدراسة الى أمهات المصادر العربية ، من كتب الأدب والتاريخ والتراجم واللغة ، ومجموعة غير قليلة من المراجع والكتب الحديثة ، التي يجدها القارىء في فهرست المصادر والمراجع.

ولابد من الاشارة الى أنني قسمت البحث بحسب الموضوعات ، لا بحسب الأزمان ، ولكنني في الوقت نفسه راعيت الترتيب الزمني داخل الفصول حتى يجتمع المنهجان ، فكنت حين اورد الشواهد من الرسائل أقدم السابقة على اللاحقة ، والمتقدمة على المتاخرة .

وقد حاولت جهدي أن أؤثر الحياد المطلق ، والنظرة الموضوعية، فلا أنحاز الى رأي من الآراء ، أو لطرف دون آخر ، كما لا أدعي أنني احطت بجميع جوانب الموضوع وجزئياته . إذ لايزال هنالك متسع ومجال لكل باحث ودارس يريد أن يلقي بدلوه بين الدلاء . ولكنني اعتقد انني لم آل جهدا في المطالعة والبحث والاستنتاج لاكون صورة واضحة المعالم عن فن الرسائل السياسية في هذا العصر . وكل الذي اتمناه أن يكون هذا البحث الجديد من نوعه قد حقق الغاية المرجوة ، فاستطاع أن يملأ فراغاً في المكتبة العربية . وأسال الله أن يلهمني السداد والاخلاص في الفكر والقول والعمل ، وهو حسبي ونعم الوكيل .

حلب في ١٤٠٩/٥/١٥

١٩٨٨/١٢/٢٥

د. حسين بيوض

مدخـــل إلى الرســـائل السياسية

* الرسائل السياسية قبل العصر العباسي
* نشأة ديــوان الرســـائل
* ازدهار الرسائل في العصر العباســي
* مصـــادر الرســـــائل
* تحقيق الرسائل وتوثيقهـــا
* كتـــابة الرســـــائل
* أشهر كتاب الرسائل السياسية في العصر العباسي الأول .

الرسائل السياسية قبل العصر العباسي

(١)

ليست الرسائل السياسية حديثة النشأة والظهور عند العرب وغيرهم ، ولكنها قديمة قدم الأمم والحضارات ، إذ كان الملوك والحكام يتخذونها وسيلة من وسائل الاتصال والتفاهم ، ويستعينون بها في سلمهم وحربهم . وكانت تنقل شفاها قبل أن تعرف الكتابة ، فينقلها الرسل كما يلقنهم إياها أسيادهم بالحرف الواحد ، ودون زيادة أو نقصان ، ويقومون بايصالها الى أصحابها . ومع ظهور الكتابة انتشرت هذه الرسائل ، وكثر استخدامها ، فكانت تكتب على الوسائل البدائية ، كالحجارة ، والجلود ، والعظام . ولعل رسائل تل العمارنة ــ التي يستغيث فيها أقيال بابل وسورية بمصر ، التي كانوا يؤدون إليها خراجاً متواضعاً ، بعد انتصارات تحتمس الثالث ، ويتوسلون إليها أن تمد إليهم يدها ، لتعينهم على الثوار والغزاة ــ هي من أقدم الرسائل السياسية التي عرفت حتى الآن(١) . وفي القرآن الكريم إشارة الى رسالة بعثها النبي سليمان ــ عليه السلام ــ الى ملكة سبأ ، يدعوها الى الدخول في دعوته والمثول بين يديه ، متخلية عما كانت عليه ، هي وقومها . فقد جاء على لسانها : « قالت يا أيها الملأ إني أُلقيَ إليّ كتاب كريم * إنه من سليمان وإنه بسم الله الرحمن الرحيم * ألاّ تعلوا عليّ واتوني مسلمين »(٢) . ويذكر أن دارا الثالث بعد أن

---

(١) ول ديورانت : قصة الحضارة ، الجزء الثاني (الشرق الأدنى) ، ص ١٩٥ . وانظر محمد كرد علي : خطط الشام ، ٣٧/١ و ٥٠ .

(٢) سورة النمل ، الآية ٢٨ .

انهزم امام الاسكندر في موقعة استوس ، كتب إليه يعرض عليه الصلح، معترفا له بالسيادة على جميع بلاد آسيا ، الواقعة في غرب الفرات(٣).

وإذا عرفنا قدم الرسائل فاننا نرجح انها وجدت في العصر الجاهلي، وأن العرب كانت لهم مراسلات فيما بينهم من جهة ، ومع جيرانهم من الفرس والروم من جهة أخرى . ولما لم تكن الكتابة فاشية فيهم كغيرهم من الأمم المعاصرة لهم ، فقد كان اكثر اعتمادهم في مراسلاتهم على المشافهة ، يرسلون كتبهم ورسائلهم على لسان الخلّص منهم ، الذين يأمنون لهم ، ويثقون بهم ، ممن تتوفر فيهم الحكمة والفطنة والنباهة ، ومن ثم كانت تلك الرسائل تحفظ عن ظهر قلب ، وتتناقلها الألسن . ولعل نقلها بهذه الطريقة ، وعدم كتابتها ، هو الذي أدى الى نسيانها وضياعها . وفي بعض الحواضر التي كانت الكتابة تمارس فيها ممارسة ملحوظة عرفت الرسائل المكتوبة . فقد ذكر الجاحظ(٤) انهم كانوا يكتبون عهودهم السياسية ، وكانوا يسمون تلك العهود المكتوبة « مهارق » وهذه المهارق ذكرت في شعرهم . يقول الحارث بن حلّزة في معلقته ، مشيراً الى ما كتب من عهود بين بكر وتغلب :

واذكروا حِلف ذي المجاز وما قدّم فيه ، العهودُ والكفلاءُ
حذَرَ الجور والتعدّي ، وهل ينـ ـقضُ مافي المهارق الأهواءُ

ويذهب بعضهم الى أن الجاهليين استخدموا الكتابة في الأغراض السياسية والتجارية ، يقول الدكتور شوقي ضيف : « وليس بين أيدينا وثائق جاهلية صحيحة ، تدل على أن الجاهليين عرفوا الرسائل الأدبية وتداولوها ، وليس معنى ذلك أنهم لم يعرفوا الكتابة ، فقد عرفوها ، غير أن صعوبة وسائلها جعلتهم لا يستخدمونها في الأغراض

---

(٣) قصة الحضارة ٢/٢٥٨ .
(٤) الحيوان ، ١/٦٩ .

الأدبية الشعرية والنثرية ، ومن ثم استخدموها فقط في الأغـراض السياسية والتجارية »(٥) . على أنه لم يصلنا من ذلك إلا النزر القليل، الذي لا يتجاوز أصابع اليدين .

من ذلك كتاب المنذر الأكبر الى أنو شروان(٦) ، وكتاب النعمان بن المنذر الى كسرى في الرد على اتهاماته للعرب ، وتفنيد أباطيله فيهم(٧)، ورسالة عمرو بن هند الى عامله بالبحرين ، المعروفة بصحيفة المتلمس ، عمه نوفل بن عبد مناف(٨) ، وكتاب عدي بن زيد العبادي الى أخيه أُبي(٩) . ويعتبر كتاب التحالف بين عبد المطلب بن هاشم وبين خزاعة من أهم الرسائل والكتب السياسية التي حفظت عن العصر الجاهلي(١٠). وفي نوادر القالي أن هاشم بن عبد مناف قدم الى قيصر ، وأخذ منه كتاب أمان يؤمن تجارة من يأتيه من العرب ، ثم فعل المطلب بن عبد مناف مع ملوك اليمن مثل ذلك ، ومضى عبد شمس بن عبد مناف الى الحبشة ، ونوفل بن عبد مناف الى كسرى للأمر نفسه(١١) . يضاف الى ذلك رسائل رمزية بعثها بعض الأسرى الى أقوامهم ، يستنجدونهم، أو يحذرونهم خطط الأعداء(١٢) يقول الآلوسي : « وربما الغزوا عنهـا إخفاء لها ، اذا كانت مما يجب إخفاؤها وإسرارها »(١٣) .

---

(٥) العصر الجاهلي ، ص ٣٩٨ .
(٦) الأغـاني ، ٢٨/٢ .
(٧) العقد الفريد ، ١٠٣/١ .
(٨) مجمع الأمثال ، ٢٧١/١ ، والأغاني ١٢٧/٢١ .
(٩) تاريخ الرسل والملوك للطبري ، ١٥/٢ .
(١٠) مفتاح الأفكار ص ٣١ .
(١١) نوادر القالي ص ١٩٩ .
(١٢) أمالي القالي ، ٨/١ .

على أن الشك يحوم حول أكثر ما نسب الى العصر الجاهلي من الرسائل ، بل إن فريقا من الباحثين اعتقد انه لم يكن شيء منها في تلك الفترة . يقول مصطفى صادق الرافعي في كتابه تاريخ آداب العرب : « لم تتناول الرواية من المنثور غير الخطب ، لأن الرسائل لم تكن في الجاهلية ، ولا كان ما يصنعه الاسلاميون منها مما نه متعلق في غرض من أغراض الرواية ، إلا عند الاخباريين (المؤرخين) ولهذا لم يكن الوضع (الانتحال) في المنثور إلا على الخطباء »(١٤) . ولئن صح بعض ما اشرنا إليه من النصوص ، فانه لم يسلم من التحريف والتغيير ، لأنها رويت شفاهاً ، ثم نقلت بالمعنى(١٥) ، الى ان دونت فيما بعد .

- ٢ -

ومع قيام الدولة الاسلامية اصبحت الحاجة الى الرسائل ضرورة ملحة لا يمكن استبدالها أو الاستغناء عنها ، فهي الطريقة الوحيدة للاتصال ، ويمكن تضمينها شتى الموضوعات دون حرج أو صعوبة . ولما كان نشوء أية دولة يستلزم قيام علاقات وروابط داخلية وخارجية ، لا يمكن التعبير عنها ، والاتفاق عليها إلا بالمراسلات ، فقد رافق انشاء الدولة الاسلامية انشاء نظام من المراسلات والمكاتبات ، كان النواة الأولى لديوان الرسائل ، الذي انشىء فيما بعد ، في عهد معاوية بن ابي سفيان .

وأول ما يصادفنا في العصر الاسلامي من رسائل هو رسائل النبي — صلى الله عليه وسلم — وكتبه التي بعث بهـا ، بدءاً من هجرته الى المدينة . ولعل أول كتبه كتابه بالمدينة(١٦) ، الذي نظم به التعاون بين

---

(١٤) تاريخ آداب العرب ، ٣٨٦/١ .

(١٥) يقول محمد كرد علي : « والغالب ان ما عزي لعهد الجاهلية من المنثور كان مما أخذ بالمعنى » . أمراء البيان ، ص ١ .

(١٦) عيون الأثر في فنون المغازي والشمائل والسير ، ١٩٨/١ .

المألوف ، فذلك لأن نزعته الفنية قد تعشق الجمال الفطري المعربد أحياناً ، وصدّقني — أيها القارىء العزيز — إنّ للجمال المعربد فتنة وسحراً لن يبلغها التنميق والتزويق في كثير من الاحوال .... ! ! (١)

(١) أخذ علي بعض الأدباء تشجيعي لصديقي الأستاذ صاحب الديوان في نزعاته التجديدية الجريئة كالشعر المرسل (سواء أكان مطلق القافية اطلاقا تاما أم منوعها) وتنويع البحور وغير ذلك . ويكفيني أن أحيل هؤلاء الافاضل الى كتاب (الخصائص) للعلامة ابن جني ، وإلى أمهات كتب العروض والبيان ليروا بأعينهم وعقولهم كيف أن الشعر واللغة أصلا على سعة عظيمة من الحرية ، وكيف أن بحور الشعر العربي المشهورة كثيرة الزحاف والعلة مما يجعلها متقاربة الوزن لا مماثلة تماماً ، وكيف يسوغ لنا بعد ذلك الاستنتاج بأن العرب قديماً كانت تنشد الشعر في القصيدة الواحدة من أوزان متقاربة ، وكيف أنه توجد بحور كثيرة غير مدونة ، وكيف أن واضع علم العروض الخليل بن أحمد الفراهيدي من علماء القرن الثاني للهجرة يحتّم على الناس اتباع آرائه واستنتاجاته عن أساليب العرب الجاهليين بل اعترف بجواز المخالفة له حتّى ان بعض المقلدين قال لأبي العتاهية (وكان معاصراً للخليل) نقداً لبعض شعره : « خرجت فيه عن العروض » ، فقال : « سبقت أنا العروض » . . . . ! ! وبديهي أنه يستحيل على شاعر مطبوع أن يجيء شعره خالياً من الوزن أي مكسور النظم ، ولكن من الجائز أن ينشد من بحور متقاربة بحكم الفطرة والسليقة ، دون أن يفسد الموسيقى العامة للقصيدة ، بل قد يكون التنويع مستحباً ، وقد يساعد أحسن مساعدة على تمام الاداء للمعنى ، فمن العبث نقد هذا التفنن والاقتدار والالهام الفطري ، ومن التحامل وعبادة التقاليد تسمية هذه المواهب باضدادها . أن الشعر العربي بنشأته متجاور الوزن في البحر الواحد لا متماثله ، فلماذا لا نستعمل بحوراً متجاورة في القصيدة الواحدة ! لقد كان المتنبي في مجهوده الأدبي يعمل لا رضاء صديقه ابن جنى كما قال المتنبي ذاته ، واني لا أجهل اثر صحبتي ومعاشرتي في نفسية ونزعات صديقي الاستاذ أبي شادي ، واني في طليعة من حثوه على الاستمرار في ميوله الحرة ، وحسبي أن أقول لا خواني الادباء المحافظين الناقدين ما قاله الاستاذ الدكتور طه حسين للأستاذ الشيخ علام سلامة « . . . ما رأي الأستاذ اذا قلت له ان النحو لم تكمل مباحثه بعد رغم ما كتبه سيبويه وابن خروف وابن عصفور وابن هشام وابن مالك ومن اليهم من اعلام الشرق والعرب الاسلاميين ! بل ما رأى الأستاذ اذا قلت له ان كل علوم اللغة العربية لم تنته عند غايتها ولم تكمل مباحثها بل هي في حاجة إلى التجريد واستئناف الدرس ، ولا سيما النحو والصرف وعلوم البلاغة وما رأي الأستاذ ان قلت له ان الادب العربي كله محتاج إلى التجديد واستئناف الدرس »

هذه هي تماماً نفسية أبي شادي التي شجعتها من صميم نفسي ، ولي الحظ والشرف باشتراكي في ذنبه ان كان لهذه النزعة الهادمة البانية جريرة وذنب . . . .

ويجب أن لاتفوتني الإشارة إلى خصبه وقوته الانتاجية المدهشة بالرغم من شواغله العلميّة والفنية المتنوعة التي تكاد لا تحدّ ، فهذه القوّة الانتاجية وليدة لذته الفنيّة وحدها ، وليست وليدة الحاجة أو الرهبة أو المجاملة أو الزّهو الكاذب ، وإلاّ فإنه ما كان يعارض التيّار والأهواء التي لاتوافق مشربه ، بينما غيره يجاريها وينقلب معها بلا حساب لينال التصفيق من رجال كلّ حكمٍ وعهدٍ . وهذه صفة طيبة نذكرها بالشكر والفخر ، ونقرن ذكرها بأطيب الدعوات لعافيته وراحته النفسية .

كذلك يسرني تكرار الاشادة بعطفه على اخوانه الادباء (١) وقوله : فكلّ أديبٍ للأديب قريب » ، يمثّل عاطفةً حيّةً في نفسه ومذهباً يدين ، به لايفتش عن عيوب الناس وانما يعني بحسناتهم ليطرب لها ويذيعها . يكفيه أن يعلم أنك من أسرة الأدباء ليقبل على مودتك فيجاذبك الحديث بشغفٍ واخلاص وبساطة بعيداً كل البعد عن التكلف . وهو يشمئز من المفاضلة بين الادباء التي لحمتها وسداها التحاسد والفخر الكاذب ، بتشجيع ويغتبط كلّ أديبٍ شريفٍ عامل وباقالة العاثر من عثاره ، معتبراً غيره من الادباء كنفسه خدّاماً لدولة الأدب ، فمن أوجب الواجبات عليهم جميعاً التضامن والتعاون القلبي والعمل على رفعة هذه الدولة ونشر نفوذها ودوام اصلاحها وتجديدها ، لا أن يحاول كلّ منهم أن يخلق لنفسه إمارةً ، فيسود

(١) نشرت في الديوان أمثلة من هذا الود الأدبي ، ونقلت بالزنكوغراف بعض النماذج من رسائل مشاهير الأدباء (كما سبق لي مثل ذلك في ديوان « أنين ورنين ») تقديراً لمنزلة كاتبيها الأفاضل .

التنازع بدل التعاضد ، وتضييع مجهودات قيمة في سبيل التدمير وخدمة المجد الشخصي الزائل . لايجحد فضل إنسان إذا اطّلع على شيء من أدبه وإن كان غير معروف في حلبة الادباء ، ويكون أسبق من نفس ذلك الاديب لاذاعة فضله ، ولايبخل بفائدة اذا استطاع أن يسديها ، ولايتعالى في مقام الاستفادة . وهذه أصلاً أخلاق العالم الفاضل ، فالأدب هو الرابح باكتساب بثّها ونشرها ، لأنّ في نشر ذلك المبدأ نشر نهضة أدبية جديدة يعتزّ بها الادب الكريم ، وتذكرنا معشر الادباء بحاجتنا لاجتذاب عدد أوفر إلى صفوفنا من بين العلماء المتأدبين ، فانّ روح العلم المقترنة بالاخلاق الفاضلة رأس مال بل ذخر حياة لأية نهضة .

من النقّاد من يوازن بين كابر من شعرائنا وكبير من شعراء العباسيين أو الأمويين مثلاً فيسرع إلى المجازفة في حكمه ، متناسياً عوامل البيئة والوسط عند تقديره . ومن رأيي أنه يحسن بنا أن لا نغفل ذلك ، وأن نعتبر من مقايس تقديرنا وفاء الشاعر لحياة جيله وعصره . ذلك مقياس صالح من مقاييس التقدير كما أنّه مبدأ صالح أرى شاعرنا متعلقاً به ، وأكبره فيه مسروراً . ومن النقاد من ينفق الساعة بل الساعتين في جدل حول لفظة أو كلمات لن تقدّم ولن تؤخر شاعرية أيّ شاعر ، فيرفعونه إلى إلى عنان السماء أو يمرغونه في التراب حسب أهوائهم وأذواقهم ... ! ! ولو عقلوا لرأوا أنّ هذا اللهو هذيان في هذيان ، وسبّة للشعر الصميم . ونصيحتي إلى هؤلاء الافاضل أن يثقوا بأنّ شاعرنا يتعمد استعمال كلّ لفظ منتقى في هذا الديوان وفي سابق دواوينه ، سواء كان هذا اللفظ عربياً صميماً أو مصري النشأة صقله الاستعمال ، فالأولى بهم

التمعّن في مراميه المجازية وخواطره الفلسفية وفي تصويره الدقيق وغاياته البعيدة وفي علة اباحته القليلة قبل المجازفة بنقد مواضع الالفاظ أو معانيهـا واستعمالها . ولـو كان عندي الكافي من وقت وفراغ للشرح لما اكتفيت بما سردت من أمثلة قليلة لطالبة الادب ، ولذكرت ظروف كلّ قصيدة وشرحتها شرحاً وافياً بعد التشاور مع الناظم ، فاللذّة كل اللذّة في ذلك ، ولكن مثل هذا المطمح بعيدٌ عن مقدوري في ظروفي الحاضرة . ومن رأيي أيضاً أنّ الخطأ في تشجيع الشباب من الشعراء (كما لحظت في مقالات نقدية حديثة) على العناية الشاغلة بسهولة اللفظ أو فخامته دون احتياج لتفسير ، فانّ مثل هذه العناية وان كانت مستحبّة إلاّ أنها ليست قصداً مستقلاً بذاته ، ولن يعيب الشعر — طالما لم يكن معقداً — تفسيره من ناحية شعرية وبيان ظروف الشّاعر وقت نظمه . فعقول القراء مهما سمت تتفاوت في الفهم والتفسير . وجميلٌ أن ندرك المعاني الأصلية التي يرمي اليها الشاعر على أتم وجوهها لو استطعنا ذلك ، وأن نتخذ من كلّ قصيدة ببيانها وشروحها مجلس أنس أو ندوة حكمة ، فالأولى بنا إذاً أن نحثّ على نظم الشعر للشعر أولاً وآخراً .

* * *

إلى هنا انتهت مادة مقدمتي الموجزة ، ولا أعد ما يلي — وان راعيت فيه الايجاز أيضاً — جزءاً منها ، وانما هو بعض التطبيق والشرح المستمّد من نظرات مكررة عجولة في صفحات هذا الديوان شوقاً مني إلى اشراك القراء في طريقتي الدراسية ، ومن عادة محبّ الأدب أن يكون كالمبشر الديني شغفاً باجتذاب الناس إلى عقيدته ومذهبه !

وسأراعي الاقتضاب ما أمكن ، مكتفياً بما يشحذ عقول الناشئة من الادباء على الاخص لمتابعة نظراتي في الشرح والنقد وقراءة هذه المجموعة الشعرية البليغة كما يجب في عرفي أن تقرأ . انتأمل أولاً في مبادىء الشاعر نجد أنها مشبعة بالبرّ الانساني واعزاز الديمقراطية والمساواة والحرية ، واعتبار خدمة الجنس البشري ديناً الزامياً على كل انسان . ألم يقل لنا عن « أسمى العبادة » :

أسمى العبادة أن تفكر خاشعاً
في جنسك السّاعي لنصر غداة
وتقارن الماضي بحاضرك الذي
هو خطوةٌ لغدٍ قرين حياة
فكّر به واجعل له قربانه
ما طاب من علم وصدق صفات
أنت المدين لألف جيل سالفٍ
بالرأي والتهذيب والحسنات !
وسواء افترض الخلود أم الفنا
فعليك برٌّ مقدرٍ ومؤثرات
فكر بجنسك ، إنّ ذاك عبادةٌ
أولى بقدرك يا حليف ممات !

ألم يقل أيضاً عن « إلهة الحرية » :

الشّمس أنت بحرها وبنورها
فاذا احتجبت فقد أضلّ بنوك !

والدّيـــن ديناك لايجــزأ جوهـــراً
فاذا تجــزأ ضاع بيـــن شكــوك !

ألم يقل قديماً عن « قوة الحق » :

من داس حــقّ ضعيفٍ داس قوتـــه
ومن يقلـــه شجاعـــاً فهو خير بطـــل

ألم يقل عن « عماد الأمم — الحرية والاخلاق » :

ولم أر كالاخــلاق مظهـــر أمّـــةٍ
وجوهرهـــا المحيـــي عزيـــز رجائهـــا
ولا مبـــدع الأخــلاق كالحريـــة التي
تغــذّي وتنمـــي من طهـــور غذائهـــا
وما العقـــل والعرفـــان في الاسر قـــوةٌ
اذا كانت الاخــلاق صرعـــى بدائهـــا
مقـــدّس — اذا كرمـــت مجـــداً لامـــةٍ
ونهضتهـــا — حرّيـــةٌ لبنائهـــا !

ومن أحسن شعره في التضامن القومي واقرار الحقوق الوطنية قوله من قصيدته « يوم النشور » :

والحـــقّ أضيـــع ما يكون اذا نـــأى
عـــن نصره المتهالـــك المقـــدام
والشعـــب إن جهـــل الحيـــاة وقدرهـــا
هيهـــات ينصف حظّـــه الحكـــام

واذا تفككـت في مقـام تعـاونٍ
فعلـى الكرامـة والحقـوق سـلام !

وعزّز المساواة بقوله مخاطباً الآنسة منيرة ثابت :

وثرت فيا نعمت الثائرة — على الخطط الرثّة الجائرة
فعيشي لجنسك يا آمرة — مخلصةً ، وارفعي قادره

اواء المساواة أبهى منار !

وقال في قصيدته « عيد العمّال » :

اليـوم قـدر الناس قـدر كفايـة
واليـوم ان يطـأ الزّمـان عبيـدا
أنتـم بنـو الشرف العظيـم بنفعكـم
للنـاس تبنـون الوجـود جديـدا

وقال أيضاً :

والحكـم شورى إن رأيـت رسوخـه
فهـي الضمينـة دائمـاً اقـرار
والفـرد والجبـروت ليـس كلاهمـا
الاّ سلالـة مظالـم الأعصـار
كاليـوم يختار الظـلام لعشـه
فاقضوا عـلى إيثـاره المختـار
وطنٌ (**كوادي النيل**) تضحك شمسـه
ونجومـه أولى بكـلّ فخـار

من أدلة العجز في التقدير والجهل بالموازنة الحقّة أن لايسع ميدان الأدب في قطر مـن الاقطـار أكثر من نابغـة ، وهكذا

كان الحال عندنا في أواخر القرن الماضي ، حتى اذا ما سمت الثقافة وانتشر العلم صرنا ندرك انّ الشاعريّات تختلف اختلافاً كبيراً في مكوّناتها واتجاهاتها ، وانّ صفات المشاركة بينها أقلّ من صفات التباين والمخالفة . لهذا كان من حق البحث العلمي والنهضة الأدبية أن لانجاري المتقدمين في الموازنات الضّالة ، بل علينا أن نتأمل في مبلغ اندماج الشاعر في بيئته ، ومبلغ انعكاس صورتها في مرآة شعره . وأحسب أنّ هذا جلي محسوسٌ في شعر أبي شادي . وفي هذا الموضوع يتفق رأيي ورأي الأديب الكبير الاستاذ اسماعيل بك مظهر ، كما يتفق في اعتبار الشعر الوجداني نافذةً إلى نفس الشاعر نفضح دخائلها مهما حاول سترها . قال الاديب الفاضل : « ان نفسية الشّعراء نفسية مفضوحة في شعرهم ، بينةٌ في خطرات نفوسهم جلية واضحة ، بل تكاد تكون ملموسة ، دون غيرها من نفسيات الناس . كنت أسير يوماً مع صديق أديب على شاطيء النيل ذات أصيل ، وقد فاض النهر في آخر شهر آب ، وانعكست على صفحته النحاسية أشعة الشّمس الذهبية ، فوقف صديقي أمام النهر المتدفق المنساب في جوف الطبيعة انسياب الأمل العريض من نفسٍ أمضّها الفراق ، وقد بهت من عظمة ما رأى ، فما لبث أن أخذ كتاباً كان معي وكتب على صفحته الاولى :

اللّــــه أنـــت وأنـــت اللّه يا (**نيل**)
منّـــي لشخصك تعظيـــمٌ وتبجيـــلُ
يبـــدو جمالك مـــلء النفـــس قاطبـــةً
فيأخـــذ النفـــس تكبيرٌ وتهليـــلُ

ولم يك صاحبي من المشتغلين بصناعة النظم ، ولم أعرف عنه

انّه شاعرٌ ، بل هو ناثرٌ من كبار الناثرين ، وإن كان في نفسه نزعة إلى الشعر فانما هي نزعةٌ تلوح ضئيلة بجانب ما فيه من حبّ البحث والاختبار .... وبعد ، فهل رأيت في خطاب ذلك الصديق إلى (**النيل**) كيف كشف عن نفسه وكيف جعل النيل في منزلة واحدة مع اللّه ، وكيف بدا جمال الطبيعة ملء نفسه ممثّلاً في النيل وفي ذلك الظرف الذي فاصت فيه أشعّة الشمس عند الأصيل على صفحة النهر النحاسية الجميلة بحقّ ، فأخذ ذلك الجمال على نفس الصديق أطرافها وملأ جوانبها ، فلم يترك في نفسه منه مكانٌ خالٍ ليسع ايّة فكرةٍ أو معتقدٍ أو مذهبٍ آخر ، سوى انّ النيل إلهه القادر على كل شيء ، وانّ وحدة الوجود الصوفيّة لم تترك في العالم من شيء عند شاعرنا الأديب الاّ اللّه والنيل ، ولاشيء غيرهما ! وما من ريبة في ان هذه الخطرة التي فاصت بها نفس الصديق في تلك الاونة قد فضحت سرائر نفسه وأظهرتها على حقيقتها الكامنة دون مظهرها الخارجي ، فنمت عن ان تلك النفس لوحوطتها عقائد الوثنية لكانت أثبت فيها من كلّ ما خلق اللّه من صور الدين فوق هذه الأرض ! ولو أنك نظرت معي في ملامح صديقي وما ارتسم على وجهه من مظاهر الحبّ الشديد والعطف مشوباً بشيء من الانقباض والحيرة ، لاعتقدت بانّ تلك الحيرة وذلك الانقباض لايدلاّن على شيء ثابت دلالتهما على تنازع بين التقاليد الوراثية في النفس اذ تتناحر جادةً في سبيل أن تملك كلٌّ منها أطراف النّفس تحت تأثير ظرفٍ من الظروف . وكأن اللّه ما خطّ على وجه ذلك الصديق مسحةً من الحزن تراها نامةً عن حقيقة نفسه بلا شعر حتى وبلا

حديث — على الرغم مما يلوح في كلامه وحركاته من مظاهر المزح والهزل — الا لينفضح سرّ نفسه وان أجهد نفسه في إخفائه . وما ان لاح على وجهه في تلك اللحظة التي أخذ يخاطب فيها النيل من شيء ، وما ان زاد على صفاته من صفةٍ الاّ انفعال ممسوسٌ بكآبة شديدةٍ ازدادت معها مسحة ذلك الحزن العميق الذي خطته يد القدرة على محيّاه .... على هذا النسق يدلّ الشعر ، دلالة صحيحةً على حقيقة نفسيّة الشاعر ؛ فانّ الشعر هو الصوت الصارخ الخارج من أعماق النفس ، بل من أعمق أغوارها ليسبك في اللغة عنواناً حياً على النفسية التي بعثته من قرارة الوجدان إلى عالم الخطاب . ومهما يكن من تأثير روح العصر على الشعر والشعراء ، ومهما يكن من أمر حاجات الحياة وتأثيرها في الشاعرية ، إذ تقلبها في بعض الأحيان إلى صناعة للنظم تبدو جلية في المديح وغيره قضاءً لحاجات ما تحرّكت لها الشاعريّة ولا فتنت بها النفس ، فانّ الشاعر لن يفلت من يد القدر مطلقاً ، فلا بدّ من أن تعثر في شعره على خطرةٍ أو مقطوعة قصيرة أو مناجاة يبعثها إلى الله أو إلى الطبيعة أو إلى شيء أو معنى مبهمٍ قد يشعر به ولايستطيع التعبير عنه ، ما تنم في الدنيا عن شيء الاّ عن دخيلة نفسه ، وعن نواتها التي التأمت من حولها كلّ عناصر نفسه . إنّ أدلّ صور الشعر على نفسية الشاعر انما هو شعر الانفعال : الشعر الذي يبعثه انفعال خالص من النفس غير مشوب بشيء من حزم الارادة ولا روادع العقل ، ولامتكلف من ناحية الصناعة . فاذا أردت أن تبحث في مجموعة ما أخرج شاعرٌ من قصد لتستدلّ بشيء منها على نفسيته ، فانما يجب عليك أن لاتتعمّد التغلغل وراء

معانيه الخفية ، ولا أن تغوص وراء تشبيهاته ، بل يتعين عليك أن تبحث في أيّ المواضع من شعره بعث انفعاله وتجرّد عن ارادته في ضبط معانيه ، وعري عن عقال عقله ليسير وراء ما يريد أن يخرج من معنىً معقود على غرضٍ يريد الوصول اليه . واني لاتخيّل انّ هذه القاعدة لاتخطىء اذا أمكن تطبيقها بما يقتضي للملك من الحيطة والحذر وطول الاناة والصبر على البحث وقوة الملاحظة » .

ولا أظن الناقد الأديب الدّارس لشعر أبي شادي في حاجة إلى طول الاناة والصبر على البحث في فهم شاعريته ، فان من أسمى صفات شعره وجدانيته الكاشفة ، وان استدعى خياله الشّرود التأمل العميق أحياناً . فهو لايخاف التقرير الصريح لعقيدته في شتى مظاهرها ، وليس للصناعة أو الرهبة أدنى لحكام في شعره . تقرأ ذلك في شعره التصوّفي ، كما تقرؤه في شعره القوميّ ، وفي ميوله الوصفية ، وفي اجتماعياته ، وفي غزلياته ، وفي افتتانه بالجمال الطبيعي والانساني على السواء ، فتحكم أنّ هذه آثار نفسٍ حرةٍ وفيّةٍ حسّاسةٍ معتدّة بشعورها وصفائها ، تبغض الملق ولاتبالي بمجاراة الناس اذا لم يقرّها على ذلك حكم الضمير . فتسمع صاحبها ينشدك دون تردّد عن « ضمير الخالق » :

قل لي هو الانسان في تفكيره
ولعلمه هذا الوجود وجودا
لم لاأحس بانّ روحي صورةٌ
لضمير من شغفت به معبودا ؟ !
وأنا المقرّ بأنّ كلّي قطعةٌ
مما أراه مجدّداً ومعيدا

أفنى به حيّاً أحسّ بحكمه
ومتى قضيت فلن أموت شريدا !

إنّي ضمير الخالق الموحي بما
أبقى أتابع نوره الممدودا

ويظلّ نوعي (١) حافظاً لوفائه
ومعبّراً عنه هوىً وخلودا !

ومن كان هذا رأيه الفلسفي في حكم الوجود لاتنكر عليه نسبةً قصيدته « المصلح الاثيم » ، وفيها يقول : (٢)

---

(١) أي النوع الانساني .

(٢) من الأدباء من يغالون فينكرون أشد الأنكار حرية التفكير في مسألة كمسألة الخلافة ، أو كمسألة اللباس الاسلامي وما شابه ذلك بينما يفوتهم الالتفات الى المسائل الجوهرية الخطيرة كانشاء عصبة ديمقراطية حية للامم الاسلامية ، تتفق وروح العصر ، ومنهم كذلك من لا يفهم الشعر التصوفي الفلسفي ، فيسيء تفسيره ، ويحسبه من الشعر الالحادي ، ولكن الواقع ان الشاعر المتصوف فيلسوف باحث بينما الشاعر الملحد يجزم عادة بمعتقده ، وليس الجزم غالبا من الفلسفة في شيء ، لان العقل الانساني اصغر من أن يحكم حكماً تقريريا مأمونا في اسرار الكون العالية . ومن أمثلة الشعر الالحادي قول الأستاذ معروف الرصافي في قصيدته « حقيقتي السلبية » (وقد نشرتها صحيفة « الحسام » البيروتية) :

ولست من الذين يرون خيراً — بابقاء الحقيقة في الخفاء
ولا ممن يرى الأديان قامت — بوحي منزل للانبياء
ولكن هن وضع وابتداع — من العقلاء أرباب الدهاء !
ولست من الالى وهموا وقالوا — بأن الروح تعرج للسماء
لأن الأرض تسبح في فضاء — وما تلك السماء سوى الفضاء

والفرق ظاهر بين هذا الشعر وبين الشعر التصوفي المشبع بالفلسفة الروحية ، الذي يعتبر صاحبه نفسه تلميذاً لم يحز من العلم إلا ذرات قليلة ، وان طلق العقائد الباليةوالتقاليد الوهمية .

أنقــذ جمــوع الغارقيــن بوهمهــم
وابعــث من العقــل الحكيــم سليــلا
وادفــن خرافــات تولّــى عصرهــا
وانشــر (**الكوثر**) للصلاح زميــلا
فلقــد سئمنــا طول عهــدٍ عبــادةٍ
(**ايزيس**) خصتهــا (**بمصر**) طويــلا
حتــى مضت دنيا الظنــون ولم نــزل
للجهــل أسرى لانــروم بديــلا

وهذا مثالٌ آخر من شعره التصوّفي في تعريف « اللّه » جلّ شأنه :

هو ما تــراه بكــلّ حكــمٍ مدهــشٍ
للكائنــات وكــلّ ما تلقــاه
هو جملــةٌ من قــوةٍ وعوامــل
بنــت الوجــود ولم تــزل تخشــاه
وتظــلّ تبحــث عن حقيقــة كنهــه
وتظــل تجهــل أصلــه ومنــاه
والمــرء أصغــر من إحاطــة عقلــه
بأجــلِ سرٍّ جــلّ من أخفــاه !

وقد اشتهر شعره الفلسفي في الحياة والموت وكان مستمدّ الالهام ومنبع الوحي لمن نظر نظراته من الشعراء .

للصديق الاديب الشهير الاستاذ محب الدين الخطيب صاحب مجلة (الزهراء) الغراء مبدأٌ جامعٌ عظيم تمثّل في قوله : « إنّ الناطقين

بالضاد لاتثبت لهم نهضة ما لم تكن قائمةً على دعامتين : احداهما المرونة في اقتباس ما في حضارات الامم الاجنبية من وسائل القوة ونظم الادارة ، وانصراف الفرد إلى التخصص بعمل يجدّ لتجويده والثانية الاحتفاظ بتقاليدنا التاريخية ، وأوضاعنا الوطنية ، وسجايانا القومية ، ولساننا الغنيّ الأصيل . فعلى هاتين الدعامتين نستطيع أن نشيد الباب الذي ندخل منه إلى دور آخر من أدوار تاريخنا القومي ، حيث نجد الأفق واسعاً للكيان العربي الجديد ، وحينئذ يتاح لابنائنا القيام بنصيبهم من خدمة الحضارة العامة » . وشاعرنا من معزّزي هذا المبدأ في جملته كما تشهد بذلك آثار أدبه في (الزهراء) وفي غيرها من كبريات مجلاتنا وصحفنا ، ولاعبرة بمخالفته التفصيلية في بعض المسائل كمسألة الخلافة وغيرها من المسائل الثانوية في اعتباره ، أو بمحاربته لتقاليد الجمود ، وانما أصل شعوره الصادق ما ينّم عليه مثلاً قوله عن « ذكرى الحضارة العربية » مخاطباً الأمير شكيب أرسلان :

فالمـرء بضعـة ماضيـه ، وحاضره
مرآة آتيـه من حـظّ وإتعـاس

فـلا تخف بأس إلحـاد فمـا برحـت
جلالـة الأمـس أصل الفضل والبـأس

جلالـةٌ خشـع التاريـخ حارسهـا
في معـرض الوصف وضاءً بنبراس

حضارةٌ هي جمـعٌ من فنـون علـىً
للنابهيـن ، ومقبـاسٌ لمقبـاس

كفت جميع بني الأعراب جامعةٌ
على تباين أديانٍ وإحساسٍ
وما تجرّد من دينٍ لنا نفرٌ
الاّ وللمجد دينٌ فوق مقياس !

وصراحته هذه المحبوبة ممثّلةٌ أيضاً في شعره الغزلي ، بل في كلّ نوعٍ من أنواع شعره . ألم يقل لنا عن « أمتع الانس » :

تسائلني عن أمتع الأنس لذّةً
وما الأنس حقاً غير إيناس غانيه !

تنازلت طوعاً عن وعودٍ بجنةٍ
لساعة صفوٍ منك بالصفو غاليه !

وما الحور والولدان في معرض الهوى
وأنت منال اللّذة المتناهيه ؟ !

وحقّك كم جدّدت بالوصل مهجتي
نعيماً ، وكم أضحت ببعدك فانيه !

فكم بين شعرائنا من عندهم الشجاعة الكافية لتقرير مثل هذا الشعور وإن أحسّوا به ؟ !

وهو لم يستر هيامه بجمال المرأة ، وفيها أنشد قصيدته البديعة « الأنثى والمرأة » ، ومنها قوله :

انظر لعينيها كما نظر السّما
متبتّلٌ سأل المعزّ سؤالا !

وقوله أيضاً :

يا زينة الدّنيا ومبعث نورها
عيشي لمن عشقوا سناك حلالا
غنّي لنا معنى الحياة فانما
لولاك أصبحت الحياة خيالا !

وقد قال أحد الظرفاء إنه لو اتيح لمثل الدكتور أبي شادي أن يستعرض حرّاً نوادر الجمال النسوي كلما أراد ازاد الشعر الغزلي العربي سعةّ وتألقاً لانعرفهما الآن ولخصّ بكلّ انموذج ديواناً .. ! ! ووجه الجدّ في هذه الملاحظة الفكاهية أنّ الشاعر الوجداني يجب ان يكون خاطره وقلمه كذهن المصوّر الناقش وريشته ، لايفوته استيعاب ما يراه من حسن ، ثم ترجمة أثره في نفسه بما يرتضيه فنّه .

واذا انتقلنا إلى الشّعر الوصفي التحليلي فمن منا الذي لم يتأثر ببيانه عن « جزع عاشقة في مرض حبيبها » حيث يصوّر آلامها وآمالها أدقّ تصوير ، أو بقصيدته عن « أوراق الخريف » ، أو « القلب الدامي » أو بقصيدته « عرس الأصيل » ، وغيرها ، وغيرها ؟

وما ظنّك بقوة التخيّل التي تنشدك هذه الانغام العذبة من شرفة منزله المطلّ على البحر والتّرعة الاسماعيلية بثغر السويس :

غنّى الأصيل فقمت أرقب عرسه
قبل التفرّق في المساء الذاتيّ
فاذا الاشعة راقصات مثلما
رقصت لتلعب بالقلوب غوان !

يتموّج الماء الطّروب وتزدهي
وثيابها عجباً على الأغصانْ
طوراً مذهّبة وآناً فضة
وأعزّها سحرٌ بسحر بيان
والتمر محمرٌّ ومصفرٌّ على
عالي النخيل كجمعها الفنّان
جمعت به الأضواء بعد تفرّقٍ
وبدت به الجمرات حلو جمان !

أرأيت كيف تلاعب خياله بوصف هذه الأشعة في تنقّلها وشيوعها واجتماعها ، وكيف صوّر لك التّمر الأحمر والأصفر كمجمع لأنواع من هذه الأشعة المنبثّة في الطيف الشمسي ؟ ! — كلّ ذلك بلفظٍ سهلٍ جميلٍ يعشقه الأديب وان تضمّن الخيال العلميّ البعيد ...

وهناك مثال الجمع بين الخيال والوصف الفلسفي « لأوراق الخريف » :

هل كان نثرك غير ايذان بعمرٍ قد تقضّى ؟
هل كنت الاّ رمز أحلامٍ نفضن اليوم نفضاً ؟
مصفرّةٌ — شأن الممات ، بحمرةٍ تحكي النجيع
فكأنّما قتلتك أحكام (**الخريف**) بلا شفيع !
يرثيك عقل الفيلسوف يراك لغزاً مذهلاً
العيش والموت المعجل والرجاء المقبلا !

ومن خير نظرات الشّاعر نظرته الخلقيّة وشعوره بواجب الشّعر الكريم في بثّ الفضيلة لا عن ارهابٍ ولكن باعتبار انّ الفضيلة والخلق المتين رأس مالٍ الرقيّ الانساني خليقٌ بالتعميم ، فمن يحتقر الفضيلة يؤذي كرامته ومصالحه قبل أذى غيره ، فجاءت خطراته الصادقة في هذا البحث من خير ما يزدان به الشّعر العصري ، وتراثاً أدبياً ثميناً للجيل الحاضر وللأبناء والاحفاد . خذ مثلاً أبياته عن « التقدير الباقي » في إجلاله للنزاهة حيث يقول :

واذا الوداد دعـا الصحـاب لحفلـةٍ
لبسـت من الأنـس الجميـل نضيرا

واذا انـزوى الموفي فقـد يوفي معـاً
شـرفٌ يزيـد لربّـه التقديـرا

ما كـان تقدير الرّجـال بمظهـرٍ
حتى ولو كـان الزمـان ظهيـرا

كـلاّ ... ولا كان الكمـال بثـروةٍ
لكنّـه مـلك النّزيـه كبيـرا

إلى آخر هذه الأبيات القيّمة . ومن هذا القبيل وعلى سبيل المقارنة أبياته في « عظمة انجلترا » وقصيدته « لذّة الصعاب » وغيرها ، دع عنك ما يتخلل متنوّع شعره من أبيات خلقيّة تأتي لمناسبات جميلة . وأجمل من كل ذلك أنّ ناظمها مؤمنٌ بما يقول ويدعو اليه وأول من يطبقه على نفسه ؛ فليس من زمرة من يقال لهم :

يا أيّها الرّجـل المعلّـم غيـره
هـلاّ لنفسـك كـان ذا التعليـم ؟ !

وهذه القدوة الحسنة لها اعتبارٌ كبيرٌ عند الادباء الناقدين في تقدير شعره الصادق .

وفي هذا الديوان الممتع من القصائد والمقاطيع ما لايدخل في هذه الأبواب ، ولكنه يمثل صوراً شتّى من حياة العصر بين جدّ وفكاهة ، مثل قصائده « الطريد » و « رشفة ككتيل » و « راكبة الدراجة » و « أشعة الظلام » وغيرها . فاذا تدبرّها القارىء بعناية الباحث الدارس كانت له منها لذةٌ وفائدةٌ غير قليلة .

ولا بدّ لي في نهاية هذا البيان من كلمة ع الأسلوب ومن ملاحظة عامة على أنّ عنايتي الأدبية بنشر هذا الديوان ليس معنا موافقتي على جميع آراء الشاعر فيما طرقه من موضوعات ، فقد اخالفه في بعضها مخالفة صريحة ، ولكن معناها تقريري لشاعريته فحسب . إن اسلوب الاستاذ الدكتور ابي شادي يتنقّل ما بين الرقة والجزالة والفخامة حسب مناسبات الموضوع الذي يطرقه ، وانّ اسلوبه طوع شاعريته ، وليست شاعريته طوع اسلوبه ، وانه من أقدر شعرائنا على المعارضة الشعرية وإن لم يتعمدها موضوعاً ، وقد تأتي عفواً في ألفاظه . وله في ذلك آيات من الاعجاز تراها بالمقابلة ، فكأنما يلتذّ أحياناً بأن يعطي مثلاً في تحلّي الشاعريّة السامية بلباس معيّن ، بينما قرين هذا اللباس على غيرها قد يكون عديم القيمة أو قليلها . ومن الغريب ان إبداعه هذا بدل أن يكون موضع التأمل والتقدير كان موضع الحسد والنقد من بعض المحافظين الذين يجهلون أو يتجاهلون أصول النّقد الشعري في أعزّ أيام العربية وبين الغربيين في عصرنا الحاضر ، ويتناسون انّ الانماط النظميّة والأوزان و

القوافي في العربية على الأخص ملك قديمٌ شائعٌ ، وانّما العبرة بالمعاني ونـــور الشاعرية ، ولايضير الشاعر الفحل اشتراكه مع غيره — عظمت ام صغرت مرتبته — في بعض الالفاظ بينما المعاني مختلفة جدّ الاختلاف ، وهذه براعةٌ واقتدار على التفنّن في الاستخدام لاينكرها غير حسود . ويعجبني ردّ الشاعر على هذا النوع من النقد التافه بهذه الأبيات الشائقة الأبيّة الرّوح :

يا من توهـــمّ لي شبيـــه سراجـــه
لم لاتضيء إذن بقـــوّة نـــوري ؟ !
هوّن عليك فمـــا المظاهـــر وحدهـــا
تكفـــي ، وما المنّـــان غير بمقيـــر !
واعلـــم أخي أنّ المشاعـــر دفعهـــا
للشّعـــر كالتيّار دفـــع قديـــر
فـــاذا تعلـــق سابـــحٌ بملاذهـــا
— وهي العظيمـــة — لم تقف لحقيـــر !
إبـــدأ بألفـــاظ القريـــض مفنّـــداً
قبـــل الغلـــوّ مفنّـــداً تعبيـــري
أو فاتّخـــذ من جرأتـــي وتفنّنـــي
رغـــم اشتراك اللّفـــظ علـــم خبيـــر
خيـــرٌ لفكـــري أن تـــداس براعتـــي
إن فات شعري الحرّ وحـــي ضميـــري !

هذا هو الشعر الفنّي : شعر الوجدان وشعر النهضة بأشرف مظاهره وأسمى مراميه .

حسن صالح الجداوي

الجيزة ١٩ يوليو سنة ١٩٢٦ .

الشعر والشاعر

بحث فلسفي

بقلم صاحب الديوان

تمهيدٌ

قبل تناولي القلمَ لأخطّ هذه السطورَ ساءلتُ نفسي : « هل من جدْوى ؟ » ونظرتُ من شرفة حجرتي الى الأمواج الضّاحكة في هذا اليوم الجميل وسمعتُ عتابَها الدائمَ وحديثَها المُلْهِم والناسُ عن نجواها وعن حديثها وعن إلهامها وبثها غافلون . . . فقلتُ في نفسي : « كلّنا أبناء هذه (الطبيعة) الكريمة التي تحنُّ بأبوتّها وأمومتها المشتركة الينا كما نحنُ غالباً اليها ، وتحاول أن تتفاهم معنا فيُصغي اليها بعضنا وينجح بعضَ النجاح أو كلّه في مواقف ، بينما يبقى سرُّها بل وجهرُها لغزاً مكتوماً عنا كما كان عن الأجيال السالفة وكما سيبقى لاجيال طويلة . . . فمن برّ البنوة أن أحاول التخاطبَ معها والترجمةَ لبعض حديثها إقراراً بتقديري لها وعرفاناً لجميلها عليّ وارشاداً لاخوتي في الجنسية والانسانية . أجل ، هذا فرضٌ على كل من يشعر بالقدرة على أدائه ، ولكني لا أشعرُ بهذه القدرة وانما أشعر بحنانٍ لا يُرَدُّ نحو هذه الطبيعة الجميلة الرائعة ، وبحاجةٍ الى التعبير

عن هذا الحنان ، وعن بيان أسبابه ومبعث إلهامه . وقد اخفقُ في محاولة التعبير ، ولكن عليّ بأيّ حال واجب أدائه . وقبلاً حاول بعض المجتهدين ترجمة (**القرآن**) الكريم حُباً في نشر فضيلته وتعاليمه السامية فأخفقوا اجمالاً ومع ذلك أفادوا ، فليكن لي في أمثلة شجاعتهم وجهدهم عزاء ومشجّعٌ . . . »

بمثل هذه الخواطر شجعتُ نفسي على تناول القلم الذي يجري مدادُهُ بهذه الكلمات . . . اني أوقن أن الكون في تحول مستمر ، وانّ الفكر الاساسي في تبدّل وتطوّر ، وان ما نراه حسناً الآن قد لا يرضى عنه جيلٌ مقبلٌ كما أننا لم نرضَ عن كثير مما استحسنه أسلافُنا ، ولكنّ كلّ هذا لا يعني أنّ جهدنا عديمُ الجدوى ، ولن يُطالبنا العقل بأكثر من الوفاء لعصرنا الحاضر خاصةً ولجوهر الفكر الانساني عامةً . فلأقل اذنْ كلمتي هذه تلبيةً لدعوة صديقي الناشر حتى أتحمل وحدي عيوبَ العجز الذي لم يتجرّد عنه نظيمي .

ماهو الشعر

الشعرُ في رأيي هو تعبيرُ الحنان بين الحواس والطبيعة . هو لغةُ الجاذبية وان تنوّع بيانُها . هو أوحديُّ الأصل في المنشأ والغاية وصفاً وغزلاً ومداعبةً ورثاء ووعظاً وقصصاً وتمثيلاً وفلسفةً وتصويراً ، فان مبعثَه التفاعلُ بين الحواس ومؤثرات الطبيعة ، وغايته العزاء والاحتماء بهذه الطبيعة ، وانْ تضمّن أحياناً الغضب والسخط ، وما هو الاّ غضب الأطفال الصغار . . .

وقد يجوز أن نعرّفه مادياً بأنه الجرافيكُ لنبض الحياة وسكونها كنظيره المسجّل لدقات القلب ، أو كدليل البيانو الاوتوماتيكي تتحول سطوره المثقوبة الى نغمات ، وكذلك الشعرُ يتحول في النفس الى صورة منشئه من عواطف وفلسفة .

الحياةُ بأسرها مجموعة تفاعيل كيماوية حيويّة متشبعّة بالتموجات الكهربائية المنتظمة ، والشعر منظوماً كان أو منثوراً يحوي جرثومةَ هذه الحياة لانّ فيه ذُخْرَ الكثير من أسرارها ، وأكثر طربنا للشعر المنظوم لأنه جامعٌ بين فلسفة الحياة وطُرَفٍ من تموّجاتها بأوزانه ، فنحنُّ بالغريزة اليه كما نحنُّ الى الموسيقى الفنّية ، وكأن كليهما صورةٌ من حياةٍ تجذبنا برونقها والهامها ، ونحنُّ الى غناء الطيور المغرِّدة حنين الشعرِ إلى الشعرِ !

الغرض من الشعر وتدوينه

الأصلُ في الشّعر كما قدمتُ أن يكون تعبيراً غريزيا للتفاعل ما بين حواس الانسان والطبيعة ولا يزال لهذا الشعر أمثلةٌ جميلة تأتي عفواً في أحاديثنا وكتابتنا ، وفي الشعر المرْتَجلَ ينطقُ به اللسانُ على الفور أمام مشهدٍ مؤثرٍ أو بدافع وجداني قويّ ويسمّى هذا الشعر خطأً بشعر الالهام ، وما هو الاّ شعر الفطرة الصادقة ، فما الالهامُ سوى أثَر الخبرة والعرفان والمواهب في الذّهن ، ولا شأن له بأعجوبةٍ ملكية أو شيطانية ، ولا بالوحي المزعوم ...

ولمّا أخذ الانسان بأسباب الحضارة أدرك تدريجياً قيمةَ الشعّر كعاملٍ من عواملِ القوّة لما تبينهُ من أثره الفعال في النفوس ،

فاستخدمه في مآرب شتى لخدمة الحياة اختلفتْ سمواً وانحطاطاً حسب الأجيال والأوساط والبيئات .

فأسمى ما بلغه الشعرُ أخيراً من غرض انما هو درسُ الحياة وتحليلها وبحثُها واذاعةُ خيرها ومكافحة شرها ، وهو غرضٌ نبيلٌ جامع وإنْ تكيف بصور شتى ، فقد يظهر في لباس الانسانية العامة ، أو في لباس الجامعة القومية ، أو الجامعة الدينية أو غير ذلك . ومن المعقول ان يجمع بين لباسين فأكثر ، وأن يوفّق ما بين تناقضها الموهوم ، وأن يكون رسولَ السلام ونصيرَ الاصلاح والنهوض . هذا هو الغرضُ الأسمى الذي بلغه الشعرُ عامةً في جيلنا الحاضر في أرقى مواطنه ، ولن تجده قرين اللهو المحض فان وجدته فحاسبْ ظناك ترَ أنه مبجّلُ الفن الذي تحسبهُ لهوا ، أو معبرٌ عن إحدى العواطف الانسانية الدقيقة المحيرة أو فيلسوف باحث يتلمس الحكمة ويفتش عنها في جميع مخابئها .

ولقد أصبح الشعر يعد أهم أركان الأدب اللباب ، ومنزلته من التبجيل مقترنة بغرضه الجليل ، فمن الأمانة أن لا نغفل هذا التعريف حينما نبث روح الشعر في نفوس المتأدبين ، حتى نحفظ للشعر مرتبته الممتازة ، وحتى نوجهه دائماً الى أشرف الغايات .

وقد عني الانسان بتدوين الشعر منذ استطاع التدوين وبحفظه وروايته قبل ذلك كما يحدثنا التاريخ ، ولو تأملنا لما أدهشتنا هذه العناية اذا سلمنا بأن الشعر مثلٌ من الحياة وأنواعٌ من مقاييسها فهو قطع جذابةٌ من الانسانية الفكرية تغارُ عليها وتود لها البقاء بحكم الغريزة المقرونة بحبّ البقاء . ولذلك أعتقدُ أنه ما من شعرٍ يخلو منْ حسنٍ ،

وان جحود حسنات الشعر بحكم التحاسد والمناظرة عاطفة غير شريفة وغير طبيعية ، وذلك اذا اعتبرنا ان من خير أحكام الطبيعة تشجيع الصالح ونصرته والاعتراف برتبته .

صفات الشاعر

غيرُ مستكثرٍ في نظري اذا عُدَّ كلُّ شاعر (بالمعنى الاكمل) رسولاً في قومه . فالشاعر بفطرته — ولا مجالَ لفخرٍ بما هو من صُنعِ الطبيعة — يجب أن يكون حساساً ، سريع التلبية ، يقدرُ مسؤوليته العامة ويقومُ بأعبائها . وبدهي أن الطبعَ كثيراً ما يأتي من التطبع كما يأتي من الفطرة ، فخليقٌ بالشاعر أن يكون أول ناقدٍ لنفسهِ وأن يزنَ بنفسهِ حسناته وعيوبه ، وأن يكون المهذب الأول لمواهبه ووجدانهِ ، ثم يقوم بأداء رسالته . وفي الحياة من شتى المقاصد المجدية ومن الأساليب للدعوة والأداء ما يسعُ جهودَ الكثيرين ، وإنه لفقيرٌ ومسكينٌ ذلك المجتمع الذي يُغنى بشعراء معدودين وتكسد فيه سوق الأدب عامة ! !

معقولٌ ان ينشدَ الشاعرَ العاملُ البصيرُ بمسؤولياته منزلة الشهرةِ حتى يصغي الجمهور اليه ، فلا تذهب صيحته وجهده سدى ولكنّه غيرُ مشرفٍ وغير معقولٍ أن يتصدى لغيره ويحرمهُ من نظيرة هذه الشهرة ، وليس من الأمانة في شيء أن يستغل هذه الشهرةَ — متى بلغها — في سبيل مجده الشخصي الزائل ، بدل المجد الفني الخالد ، كأنما يتوهّم أن الموتَ سيخطئه ، أو أنه اسمى من ترجمان اذا ضاعتْ أمانته وزالت الثقة به تزعزعت منزلته ثم تهدّمتْ . . . فتتبعُ ذلك —

للأسف الوافر – الاساءة للأدب نفسه ، باصغار الناس لمن كانوا يتصدرون مجالسه من طلاب المجد الشخصي .

بيـــان الشاعـــر

اذا كان الشاعرُ رسولَ قومه حقاً فيجب عليه حتماً أن يكون بيانُه من بيانهم، ومهما تأنقَ في تعبيره فيجب أن لا يرتفعَ صوتُه عنه لا خاصتهم ولا عامتهم فتضيع مكانته ويخسر الأدب والمجتمع فوق مستوى آذانهم ومداركهم ، وإلا كان غريباً عنهم ، ولم يرض بخسارته . على أنّ هذا لا يعني تحبيذ العامية – وان كانت لها حسناتٌ كثيرة لا تُنكر – وانما يعني اجتناب التقعر وغريب التعابير التي لا توافق ثقافتنا العصرية ، ولا تناسب أمزجتنا المصريّة واستعمالَ الفصحى السلسلة وتطعيمها بالمختار المصقول من مفرداتنا وتعابيرنا القوميّة . ولستُ أشكُّ في أنه كلما نُشر العلم كانت العربية السليمة أقرب الى متناول الجمهور ، فنحافظ بذلك على ذخيرتنا الأدبية العظيمة العربيّة الأصل ، دون أن نغفل مطالبَ قوميتنا الحاضرة ، ودون أن نغالب جاذبيّة الأدب الأوربي . وهذه نظرةٌ تشبه نظرةَ الأمريكيين الى الأدب الانجليزي ، فلكل من الأمتين الانجليزية والأمريكية أدبُها الخاص ، بل طابع لغوي خاص ، ولكن الرابطة اللغوية العامة محتفظ بها ، وميزتها موضع الاعتراف بها والحرص عليها . ولكل امةٍ من الأمم الاوروبية لغتها الفصحى ولغتها العامية ، ومع ذلك فلم تعتبر احداها من وسائل الثقافة هجرَ الفصحى الى العاميّة ، وانما يرجعُ الى العامية أحياناً لمؤازرة الفصحى اذا دعت الحاجة الى ذلك، وشتان بين الحالتين ، فالاولى تكاد تكون قطعاً لكل صلة بميراث الماضي

بينما الحالة الثانية إحكامٌ لروابطِ الماضي ، وضمانةٌ للمستقبل الغني بميراثه المزداد . وتوجد حالةٌ ثالثةٌ هي في حكم العدم وهي محاولة الاكتفاء بذلك الميراث الفخم ، وان صغرَ في جانب علوم العصر الحاضر وآدابه ، وهي حالة لا تستحق الالتفات اليها لأن الفشل التام مقدرٌ لها ، والذي يريد أن يقبر فكره ولغته في قرون الماضي انما يحكم على نفسه بالفناء ، ويعارض أقوى قانون في العالم وهو قانون التطور . أضف الى ذلك أن هذه النزعة تعارض كل المعارضة الفكرة القومية التي هي أجلى وأبهى مظاهر النهوض السياسي في القرن العشرين ، واذاً فهؤلاء السادة الرجعيون هم والمتجرّدون سواء ومع احترامي لحرّية الرأي اصرح بأني لا أرى الخير المأمولَ من أحد الفريقين ، ولن تطاوعني مبادئي في مشايعة أحدهما في تطرفه .

فالشاعر القومي — كيفما كانت عقيدته وملته — محتم عليه أن لا يغفل الماضي وان لا يكون من المتجردين ، فانّ التجرد في نظري ليس من مستلزمات التطور أو التجديد ، بل قد يكون من أضداده .

ومن الحقائق التي لا يجوز انكارها ان الأدب العربي مرتبط ارتباطاً وثيقاً بالدين الاسلامي ، فالأمم العربية الاسلامية لا تستطيع أن تهدم الأدب العربي الصميم دون أن تسيء الى ذلك الدين الذي يعد (**القرآن**) الشريف في رأي تابعيه أكبر معجزاته . . . بيد ان الشاعر ليس إماماً دينياً ، وان كان من وجهةٍ اخرى مطالباً في الشرق بأن يعتبر الدين من المشخصات القومية لأمته ، فليس له أن يتعمد التعرض لهذا الدين باساءة لن يجني الأدب من ورائها خيراً . على أن هذا لا

يعني أن صبغ اللغة العربية بصبغة وطنية سواء في التعبير أو التصوير مما يسيء الى هذه اللغة أو يضعفها أو يجني عفواً أو عمداً على رابطتها الدينية طالما حافظنا على الأساس . وهذا هو اعتقادي في « تمصير » اللغة شعراً ونثراً بمختار المفردات ، مع المحافظة جهد الاستطاعة على شرف الديباجة العربية السليمة . وفي مثل هذا الاجتهاد خدمةٌ قومية كما أنه لا يفقر اللغة ، بل على النقيض يغني مفرداتها وتراكيبها ، ويساعد على تمييز صنوف الشعر والنثر في أقطار شتى ، ومهما كانت ثروة اللغة فهيهات أن تستغني عن النماء المطرد من كل جيل تمر به .

ومثل هذا النشاط يستدعي تكوين أكاديميات أو مجامع لغوية في الأقطار العربية ، لها وحدة في مقاييس الترجمة والاشتقاق والابتداع والتنقيح والتهذيب حسب مقتضيات العصر ، ولها منزلة الأرشاد والجمع والنشر ، فيستفيد منها الشعراء والكتاب على السواء ، وتكون حكما حكيماً بين التطرف الهادم وبين الجمود المميت . فتمنع العبث بتراث الماضي المجيد ، وتشجع الحركة الرشيدة للانتاج المستمر ، وللاقتطاف من ثمار وأزهار المدنية العصرية ، ولا تعارض النهضات القومية .

والعادة أن يكون بيان الشاعر صورة لمزاجه وفكره ، وأن يكون أكثر الأدباء رغبة في الحرية ، فمن الحكمة إطلاق العنان له في حدود واسعة ولو خالف السماع والقياس أحياناً ، فان الشاعر الأمين الكبير النفس لن يسيء استعمال هذه الحرية في مرماه ، وكثيراً ما يكافيء ناصريه بكنز ثمين من تعبيره وتفكيره وخياله أكبر من أن يعد جزاء وفاقاً ، ومن لا يعرف من الأدباء حسن التصرف فانما يجني على أدبه الخاص قبل أن يجني على الأدب العام .

وقد يلام الشاعر المبدع على خياله الشرود ، وما الخيال الا دليل من أدلة التهافت من النفس الشاعرة على الطبيعة الموجدة فلا تزال تتلمس الصلة بها في كل شيء وتحاول التقريب بين عواملها ونتائجها المتباينة في ظواهرها . بل قد يعد الخيال رابطة الوحدة بين عواطف الشاعر والطبيعة ، ولذلك يصح أن يعرف الخيال بأنه من روح الشعر .

بهذا اليقين والشعور جرى قلمي أو تحرك لساني أو غمغمت نفسي ثم باحت بما في هذا الديوان من منظوم السطور ، وما هي بالاولى من بنات وجداني الذي عرف النظم منذ الطفولة ، ولا هي بالبالغة بعض ما أصبو اليه من خدمة فنية ، ولكني أرجو كذلك أن أكون موفقاً لاتباعها بغيرها وبأصلح منها ، فلا تكون الأخيرة في بابها .

وقبل أن أختم هذه الكلمة الوجيزة اود أن أصرح في غير تحفظ ان الزمن الذي كان يفصل فيه ما بين العلم والحكمة والأدب قد مضى وانقضى ، وأصبح الشعر في أجل مظاهره الديوان الرحيب الجامع لها ، والعقيدةالتي تتوحد فيها. هذا هو مذهبالذي أتمّ به،وفي سبيلهاحاول بين شواغلي الكثيرة — أن أخطو الى الامام خطوات الايمان .

بور سعيد في ١٤ يوليو سنة ١٩٢٦

أحمد زكي أبو شادي

المصـــدر : ديوان الشفق الباكي المطبعة السلفيـــة ــ القاهرة ــ ١٣٤٥ هـ ــ ١٩٢٦ م .

هدم الادب وبناؤه

بقلم ناشر الديوان

تمهيد

لا أذكر أني كتبت فصلا نقدياً نال استحساناً شبه جامع بين جمهرة الادباء مثل فصل « الشعر مرآة عصره » الذي ذيلت به قصة (عبده بك) ، وأحسب ان ذلك راجع إلى اهمية الموضوع ثم الى روح المقال ، فقد كان مشبعاً بحب الأنصاف ، والى النهج العلمي المنطقي الذي لم أتحول عنه قيد أنملة فيما كتبت والذي هو رائدي دائماً ورائد صديقي الشاعر. ولكني قدرت — كما قدر غيري من الأدباء المستقلين — ان المغرضين ان يرضوا عنه ، وأنه لابد أن يتقدم أحدهم مسوقاً الى المغالطة ان عاجلاً أو آجلا . وهكذا كان القضاء الذي لا مرد له ، فتقدم متبرقعاً أحد أذناب شوقي بك بمقال مرذول كله سماجة ومغالطة ، ودفع به الى جريدة (الكشكول) التي يتردد على ادارتها يومياً شوقي بك وأصحاب شوقي باك . . . ولا لوم على (الكشكول) الأغر في ذلك ، فحرية النشر أمر محمود ، وتشجيع النقد الأدبي واجب صحفي شريف ،

طالما وجدت المساواة الصحفية في معاملة المتناظرين . أما اذا أبيح النقد وان كان سخيفاً ، وحرم الرد وان كان حكمة وأدباً فهذا هو الغرض بعينه ، وهذا هو التعاون على التضليل ، وهذا هو حب الاساءة والتشهير لغاية في النفس ، ونعوذ بالحق أن يكون هذا من النقد الأدبي أو من الشهامة والفضل في شيء .

للعبرة والتاريخ

أما المقال الشوقي السالف الذكر فهذا هو بنصه وفصه ، وان كان لا يستحق التشريف بنشره ، ولكن لا يخاف النقد كيفما كان الا العاجز العاثر ، فحسبنا اذاً أن ننشره وأن نعلق عليه من عندياتنا ومن ملاحظات شاعرنا الذي أعد من اكبر عيوبه مغالاته في حسن الظن بالناس(١) ، ومن ملاحظات غيره من الأدباء الذين أسفوا لظهور ذلك المقال ، وحسبنا أيضاً أن نسجله لفائدة المؤرخ الأدبي غداً ، حتى يقدر كيف ان شاعراً كبيراً ذا منزلة معدودة مثل شوقي بك كان مصاباً بمرض مزمن هو الحسد والغيرة حتى من أخلص محبيه ومعضديه ومريديه ، وأنه ما كان يحتمل مودتهم متى ظهروا ظهوراً في ميدان الأدب بجانبه . . . ! ! قال كاتب المقال المتخفي ولعله « مولانا قدامة » ذاته أو ابن عمه :

---

(١) راجع رده في مجلة (النهضة النسائية) ـ عدد صفر سنة ١٣٤٥ هـ . وفي جريدة (الكشكول) عدد ١٣ اغسطس سنة ١٩٢٦م .

كتبنا الجديدة

عبده بك

لصاحب التوقيع

قصة مصرية اجتماعية منظومة بقلم الدكتور أحمد زكي أبو شادي والدكتور زكي أبو شادي هو نجل المرحوم أبو شادي بك . عرفناه لعشرين سنة شاباً يكتب مقالا ت في جريدة « الظاهر » في شؤون اجتماعية ووطنية جمعت في كتاب . ولسنا ندري أهو لا يزال معجباً

بها كما كان يوم طبعها واذاعها أم زالت عنه جدتها وصارت « روباقكيا » يأنف من الا شارة إليها إلى جانب مؤلفاته من نثر ونظم

ثم سافر إلى انكلترا فتعلم الطب . وعاد فقال لنا انه درس إلى جانب وظائف الأعضاء وخصائصها وأدواتها فن النحل . فهو اذن دكتور في الطب ، وأستاذ في اشتيار الشهد المصفي . ورحم الله ابن حجة الحموي. . .

وبعد أن سكت سنوات طهز لنا شاعراً مكثراً . ينظم في كل موضوع ، ولكل مناسبة، مفيضاً مسهباً . فان لم يجد المناسبة خلقها ، وان لم يتمكن من خلقها أوجدها له جماعة من الأنصار والمحبين لا يقنعون بأن يكون الدكتور شاعر الشباب والمجددين فحسب ، بل يريدونه شاعر مصر والدنيا والآخرة معاً .

وآخر ما جادت به قريحة الشاعر الدكتور النحال منظومة « عبده بك» وهي كما وصفها أحد أنصاره :

« ... مبحث طلي في علل الزواج عقد له (عبده بك) ثلاث زيجات : اثنتان مصريتان وواحدة أجنبية ، فشل في الأولى لسوء الاختيار ولنقص في تربية (منيرة) ولا سرافها

ونشوزها فطلقهابعدما استولدها غلاما . ثم وقع في شرك (ماري) بواسطة سماسرة السوء. كلتا الوقعتين دلت على ضعف ارادة الزوج التعس .

« وحصل نفار وشقاق » فانهار بيت وجية كالأول ، لأنه غير مدعم بمقومات الا لتلا ف ، فهدمه الا ختلا ف .

« ثم أتاح له حسن حظه زيجة ثالثة فكانت الأخيرة . وفي الحق انها كانت بلسما لجروحه ، ومستقراً لروحه ، فجثم حيث نعم ما شاء الله أن ينعم » .

و « توته ، توته فرغت الحدوته » ، ولكنها والله أعلم بعيدة عن صنف « الحواديت» والروايات والأقاصيص والا قصوصات ، إذا أردنا مقارنتها بشيء من عالي القصص وسافلها وطيبها وخبيثها مما يتجلى فيه الفن أو لا يتجلى ، وما يكتبه القصاصون الا فرنج وكتابنا الشباب .

أما كونها شعراً فليس فيها منه إلا القافية والروي ، وبضع أبيات منثورة هنا وهناك، يشفع في انحطاطها وابتذالها انها تصف الحقيقة ويدخلها شيء من حلاوة العبارة المصرية كقوله :

حبي وحسبك مسعدا ... سعي من (الحاجة حليمة)
فلها بكل بيوت (مصر) ... علاقة الود القديمة
ويقال (مصر) كحلة ... ومثالها كالمغرفة
فلهما اطلاع واسع ... ولها اختبار المعرفة

ولكن إلى جانب هذا الوصف الطيب أبيات لا نعرف ان كانت عربية أو كردية نثراً أو نظماً مثل قوله :

لغدا (فريد) (عبده) ... وكذا غدا هذا (فريد)
في الحس والا خلاص والـ ... ـتفكير والنجح الأكيد

وقوله :

لـولا حبيـب غـائـب لكـن أعيـد الـوالـد

والقصة كلها بصورها ونقوشها وحلاها مكتوبة مبرقشة في مالا يزيد على ٢٥ صفحة صغيرة . هذه لا تكفي أن تكون كتاباً . ولكن حسن أفندي صالح الجداوي « مطيب أبي شادي » أراد أن تكون القصة كتاباً فأصدرها كتاباً في ١٣٠ صفحة محيطاً القصة بمقدمات وتعليقات وشروحات دونها شرح « البيع » للأستاذ حلمي عيسى .

فبعد مقدمة الجداوي المنشورة في ست صفحات أبان فيها كرامات الدكتور أبي شادي جاءنا « الكاتب العبقري المجدد الأستاذ عبد القادر عاشور » بفصل عنوانه « القصص في الأدب العربي » كانت « قفلته » : « للشاعر النابغ الأستاذ أحمد زكي أبي شادي فضل السبق في الشعر القصصي الاجتماعي الذي تهارب منه شعراؤنا مع انه من أروع الأمثلة لتمثيل المجتمع وانعاشه » .

وبعد القصة فصل عنوانه « تحليل القصة » بقلم « الأديب المتفنن والناقد المعروف الأستاذ عبد الله بكري » ففصل آخر عنوانه « نقد قدامة لشاعرية أبي شادي ، وآخر في « شاعرية أبي شادي وأمثلة القول الجامع بقلم الأستاذ عاشور » ملأه بنماذج من شعر الدكتور النحال . ومنها قوله :

ان الفواكـه للمـذاق شهيـة مثل الغناء إذا اشتهاه شعـور

وكذلـك الفردوس في أحلامنا وهم وغايـة ما احتواه غرور

وقوله :

ومن رتبة الانسان حرية الحجا وما هان قوم في مدى البحث احققوا

وقوله :

المــرأة الحســن الأعز بحسنها　　　من دام عاشقها أميــت شهيــدا

وقوله :

فكم يبصر الضدان في العيش مثلما　　　تآلف طير الغاب: شاد وأبكم

وربما كان أحسن ما في الكتاب فصله الختامي وهو « الشعر مرآة عصره » وقد تعرض فيه الكاتب لشعر شوقي بك فقال في نقده :

١ — ان شوقي بك ارستقراطي النزعة ، وقد تربى على الإخلاص للحكم المطلق.

٢ — انه لم يشارك جمهور الشعب مشاركة جدية في عواطفه ولم يشجع قوميته .

٣ — انه هادم للتعاون الأدبي ، ذو أنانية عظيمة

٤ — انه حبا في نيل تصفيق الأغلبية المحافظة كثير التعلق بالماضي ولو ناقض تربيته وخالف ضميره .

٥ — انه غالباً لا ينصف عصره ، لا في تعبيره ولا في تفكيره .

ومع أن الكاتب قد رد إلى تأييدر أيه بشواهد من شعر شوقي فان أقواله لا تزال في حاجة إلى التمحيص .

هذه هي قصة « عبده بك » وحواشيها . وللقارىء بعد أن يقرأ هذه الخلاصة أن يحكم على المقصود من المجموعة وتحالف كتابها على اعلاء أنفسهم واشهار شاعرهم بالحط من مقام غيره .

« الفرا »

سياســة الهــدم

فمن هذا المقال يستنتج القارىء ان كاتبه المتنكر :

(١) يحاول الحط من منزلة وشهرة الدكتور ابي شادي بتعريفه عن طريق نسبه الى قارئيه الذين هم في غنى عن ذلك التعريف ، بينما يناقض الناقد نفسه فيما بعد باقراره ان شاعرنا بلغ منزلة مذكورة من الشهرة لدى الجمهور .

(٢) يسخر من اولى آثار شاعرنا أو من منتجات طفولته . الأدبية (١٩٠٥ — ١٩٠٧ م .) في الوقت الذي كان أمثال الناقد بين البكم والصم الذين لا يفقهون ولا يستطيعون أن يخطوا حرفاً مما كتب . وقد صدق شاعرنا في قوله إن الأديب لا يسأل عن آثار طفولته الأدبية ولا يحاسب عليها ومع ذلك فانه لا يخجل منها ، وانما الذي يخجله أن يغدو يوماً لا قدر الله رجلاً حائراً متقلباً لا مبدأ له ، يدور مع الهوى وينصر الظلم ويبيع ذمته . . فنعمت الاجابة المفحمة في هذا الجواب لمن يسائله عن آثار قلمه وهو في منتصف العقد الثاني من عمره ويكاد متبجحاً يسائله أيضاً عن انشائه المدرسي . . . ! !

(٣) يهزأ بدراسة شاعرنا للأبقلطوريا (علم تربية النحل) ويصفه « بالدكتور النحال » ، ولكن جاهلاً أمياً مثل استاذنا الناقد معذور

اذا لم يعلم ان كبلنج شاعر الامبراطورية الانجليزية شاعر نحال ، وان ماترلنك شاعر بلجيكا العظيم نحال أيضاً ، وان بوانكاريه رئيس وزراء فرنسا حالياً ورئيس جمهوريتها سابقاً نحال كذلك ، وان عما نوئيل ملك البرتغال السابق مثلهم ، وان غيرهم وغيرهم — من كبار رجال الغرب ونبهائه — من محبي الطبيعة ودارسي حشراتها ونباتها ولهم ولع شديد بذلك ، وان علم الابقلطوريا من أشق العلوم ومن أعظمها ثمرة اقتصادياً وتهذيبياً ، وان المتضلعين منه موضع الاحترام في الدوائر العلمية الغربية ، وان شاعرنا ذو منزلة ممتازة في هذا العلم يحق لنا أن نفاخر بها من وجهة قومية ، — فقد كان المؤسس لنادي النحل الدولي المعروف باسم The Apis Club ، وانشأ مجلة عالم النحل The Bee World التي لبث يتــولى رئاسة تحريرها سبع سنوات بالانجليزية ، وكان أحد أعضاء اللجنة الاستشارية لوزارة الزراعة الانجليزية .

(٤) يهزأ به مغالطاً وعامداً الى النكتة العامية القبيحة فيشير الى دراسة « وظائف الأعضاء وخصائصها » ، ومثل هذه الاشارة لا يجوز توجيهها لرجلٍ نقي الاخلاق كريم النفس مثل الدكتور أبي شادي ، وان جاز لحضرة الناقد أن يوجهها الى المصدر الذي يستوحيه عندما يكتب ذلك الهذر . . . فهو يعلم علمي ان الدكتور أبا شادي اختص بعلم الميكروبات أو البكتريولوجيا ، وله نبوغٌ حق فيه ، فهو يحمل جائزتين وشهادتي شرف في هذا العلم من جامعة لندن ، ومضى عليه

في اختصاصه به أحد عشر عاماً بل اكثر ، تقلب اثناءها في وظائف ذوات مسؤولية خطيرة ، وكان أحد البكتريولوجيين بمعهد مستشفى سانت جورج بلندن وأحد المعيدين لطلبته ، وكان معمله الخاص بايلنج في لندرة ، وكان بمعهد الهيجين بمصر ، ثم مديراً لمعمل الحكومة بالسويس متحملاً مسؤلية كبرى في مراقبة ومنع الكوليرا ، وهو الآن مدير لمعمل الحكومة ببور سعيد شاغلاً مركزاً فنياً لا يستهان به علمياً وقومياً .

(٥) ادعى لائماً ان شاعرنا سكت سنوات كثيرة ، وهذه مغالطة، فالدكتور أبو شادي معروف منذ نشأته بنشاطه الجم ، ولو شئنا أن نغفل المفقود من آثاره الأدبية أثناء وبسبب اغترابه عن وطنه لما جاز لنا أن ننسى مراسلته « للمؤيد » « فالشعب » « فالأمالي » وغيرها من كبريات صحفنا ، دع عنك آثاره في مجلات شتى في مصر وفي صحف انجلترا ، ومجهوده القلمي السياسي ـــ ظاهراً ومستتراً ـــ مما لا يجهله رجال القلم وأئمة السياسة في مصر ، حتى كاد ينفى من انجلترا ، وقيد اسمه في قلم المراقبين السياسيين ببوليس لندرة (اسكتلاند يارد) ، وكان سكرتيراً (للنادي المصري) بلندرة ، وسكرتيراً (لجمعية ترقية آداب اللغة العربية) بها . فهذا النشاط الدائم لا يمكن أن يوصم عدلاً بالتقصير ، اذا لم يتخذ مضرب الأمثال في الغيرة الأدبية والقومية والنزاهة الخلقية المتينة . ولكن ألم يقل قديماً الشاعر الحكيم :

واذا أراد الله نشـــــر فضيلـــــة
طويــت أتــاح لها لســان حسود ؟!

(٦) زعم أن أنصار الشاعر ومحبيه « لايقنعون بأن يكون شاعر الشباب والمجددين فحسب ، بل يريدونه شاعر مصر والدنيا والآخره معاً » . وهذا مدح في قالب ذم لو أدرك حضرة الناقد القادح .. فليس هؤلاء الأنصار والمحبون على درجة من الباه لا تسمح لهم بأن يفقهوا مواهب الشاعر ووجوب استغلالها لنصرة الأدب . وهذا سعي حميد لا يستحقون لوماً عليه الا من الاناني الحسود .

(٧) ذكر في معرض النقد ان الدكتور ابا شادي « ينظم في كل موضوع ، ولكل مناسبة ، مفيضاً مسهباً ، فان لم يجد المناسبة خلقها ، وان لم يتمكن من خلقها أو جدها له جماعة من الأنصار والمحبين الخ » . ولا أدري متى كان الانتاج معيباً ، ولا وجه اللوم في ذلك ، لا سيما وللشاعر من ظروفه الخاصة ما يبرر هذا الأكثار . . . ؟ ! وهل نضمن دوام انتاجه أو طول حياته (مدها الله) حتى نحاول اخماد شاعريته في شبابه ؟ ! وهل جهل حضرة الناقد ان الشعر المنظوم أقرب الى جنان وبنان هذا الشاعر المطبوع من منثور القول ، وان مجموع ما نشر له — ولا أستثني هذا الديوان — لا يتعدى جزءاً من نظيمه ؟ فذهنه اذاً مفطور على الشعر ، وشاعريته في المقام الأول بين مشاهير شعراء العصر في العالم العربي . وهو في غني تام عن انتهاز المناسبات ، ولا اغالي اذا قلت عن علم وخبرة انه أطبع شعرائنا ، وأن الشعر روحه وريحانه ، ولولا حياؤه لارتجله ارتجالا في المجالس ، كما يفعل أحيانا بين خاصة أصدقائه .

(٨) حاول أن يصغر من قدر قصة (عبده بك) :

أولاً — من وجهة موضوعها كأنما لا يرضيه الا الموضوع المعقد وكأنما نسي ان السيرة الطويلة — كسيرة نابليون مثلاً — يمكن تلخيصها في سطرين أو ثلاثة ، فليس التلخيص الوجيز اذن دليلاً على الحقارة حتماً وكان الواجب عليه أن ينقد الموضوع ذاته ، ولكنه لم يجرؤ على ذلك ، فحاول الأصغار من شأنه بالمغالطة ، بدل الدليل الفني والنقد التحليلي المقبول ، لو كان ذلك في طاقته . . .

ثانياً — من وجهة الأسلوب فقال : « . . . ولكنها والله أعلم بعيدة عن صنف الحواديت والروايات والاقاصيص والاقصوصات اذا أردنا مقارنتها بشيء من عالي القصص وسافلها وطيبها وخبيثها مما يتجلى فيه الفن أو لا يتجلى ، وما يكتبه القصاصون الافرنج وكتابنا الشباب » ... وهذا نقد مبهم ، أقل ما يقال فيه إنه هذيان في هذيان ولو أن فيه مدحاً للشاعر من حيث لا يشعر حضرة الناقد فهو يعترف بان شاعرنا مبتدع لاسلوب جديد ، ولكنه لم يقل لنا في صراحة ومنطق ما عيوب هذا الأسلوب بالتحليل والمقارنة ، حتى كنا نستفيد حقاً من نقده . وهذا عجز منه نسجله عليه .

ثالثاً — من وجهة شاعرية الشاعر حيث ادعى أنه « ليس فيها الا القافية والروي وبضعة أبيات منثورة هنا وهناك يشفع في انحطاطها وابتذالها أنها تصف الحقيقة ويدخلها شيء من حلاوة العبارة المصرية » ... ثم خانه القلم بالحق بعد استشهاده ، فقال عما نقله أنه « وصف طيب » . . . ! ! وقصيدة الدكتور كما لا يخفى على القاريء مصبوبة صباً ومتجردة من القافية الواحدة ، وكلها تحليل لأخلاق وشخصيات ،

ووصف لحوادث وعادات وأمراض اجتماعية ، وملؤها المواعظ والاستنتاجات الفلسفية الجميلة ، والتشابيه والنكات المستملحة ، فلن تجد فيها بيتاً يمكن الاستغناء عنه ، لأنها وحدة تامة متماسكة أشد التماسك . وقد أجهد حضرة الناقد نفسه اجهاداً فأخرج أربعة أبيات لم يرض عنها ، فكان هذا مغالطة عجيبة منه لأنها أبيات صلة لا يمكن القدح فيها الا كما يقدح المغرض في مظهر أحجار قليلة في بستان شائق . وهذه الأبيات سليمة النظم ، وفي مواضعها من أنسب وألطف ما ينظم ، ومثال الايجاز البديع . ولو أنصف الناقد لتحدث عن قوة التحليل الذي امتاز بها نظم شاعرنا المبدع ، وعن محافظته التامة على العلاقة بين أسباب ونتائج قصته ، وعن اقتداره في الجمع بين الايجاز والاسهاب حيث يشاء .

رابعاً — من وجهة الديباجة ، كأنما لا يدرك حضرته أن المقصود بهذه القصة البليغة الذيوع فالاصلاح ، وأنها لو كانت في ديباجة (عمرية) حافظ بك ابراهيم مثلاً لجاءت مثالاً للسخف ومثالا مستهجنا لوضع الشيء في غير موضعه ومخالفة قواعد البلاغة . وقد صدق شاعرنا في قوله أنه لو طاوعه قلمه على كتابتها بالعامية لما توانى عن ذلك . وفي رأيي أن اسلوبها هو من السهل الممتنع ، تحسبه نثراً وما هو الا شعر منظوم ، كما قال الأستاذ عبد الله بكري . وما أنسب قول شاعرنا في هذا المقام :

ما الشعر ألفاظ ترص وإنما
الشعر نبع عواطف الشعراء

وأنـــــا المطـــالب بالوفـــاء لبيئتي
أمـــا الجنيـــب فان ينال وفائـــي

ديباجـــــتي من نور عصر سره
فـــــي الكهربـــاء أراه لا البطحـــاء

خامساً– من وجهة الحجم ، فادعى – أرشده الله – أنها ضئيلة الحجم ، متناسياً أنها رغم ايجازها المدهش واقعة في اثنين وسبعين ومائتين من الأبيات ، واني تعمدت الاقتصاد فيما شغلته من فراغ فآثرت باستعمال حروف دقيقة ولم أجزيء الأبيات ، ولولا ذلك لوقعت القصيدة في أكثر من ضعف حجمها في الكتاب . وما كان هذا الاقتصاد الكلي الا لأجد فراغاً كافياً لمباحث الكتاب الأخرى ، مما دلتني خبرتي الماضية على رضاء جمهرة الأدباء عنها . ولكن حضرة الناقد المفضال تعمد أن يعكس الحقائق عكساً تاماً ، كأنما يتصور – سامحه الله – انه ليس بين قارئيه من لهم عقول تقيس وتفهم ثم تحكم ! !

(٩) سخر من الاستاذين الأديبين الفاضلين عبد الله بكري وعبد القادر عاشور ، ولكن نكرة مثله معذور في ذلك ، كما أنه يعذر اذا لم يفهم أن النقد اذا تشبع بالتهكم والسخر والمغالطة فقد صفة النقد الأدبي ، وأصبح كاتبه ذاته موضع السخر ، فليس السخر والتهكم نوعاً من المداعبة المقبولة ، ولا أدري كيف يسخر حضرته ممن كان ناقداً أديبـــاً لصحيفة مشهورة ، ومن أحد علمـــاء الأدب ومدرسيه ، بينما هما في منزلة الاجلال بين الاساتذة ، ان كان لمثله أساتذة ! !

(١٠) عرض من غير تعليق أبياتاً قليلة من شعر الشاعر ولم يجرؤ على تحاياها أو نقدها ، وان أشار لسان حاله الى هذه الرغبة من قبله . . . فمرحى به من ناقد همام لا رأي له ولا شجاعة ! !

(١١) أشار في عجز تام الى نقدي المستقل لشاعرية شوقي بك دون أن يظهر خطئي في موضع ما ، فاكتفى بادعائه ان أقوالي « لا تزال في حاجة الى التمحيص » . . . ووصفني بأني « مطيب أبي شادي » اصغاراً لمهنة الأدب وللتعاون الأدبي ، وبعد ذلك يتظاهر انه من أنصار الأدب وحماته . . . ! !

(١٢) ختم رسالته بعد مغالطاته الكثيرة بهذا الاتهام العجيب . « . . . وللقاريء بعد أن يقرأ هذه الخلاصة أن يحكم على المقصود من المجموعة وتحالف كتابها على اعلاء أنفسهم واشهار شاعرهم بالحطّ من مقام غيره » . . . ومعروف أنه لابد لكل حكم معقول من حيثيات ، ولكن صاحبنا لم يأت بحيثية واحدة ، فكتاب (عبده بك) كله تقدير لادبائنا ، وتشجيع على خدمة الأدب ، حتى نقدي لشوقي بك فانه ممتليء بالتقدير الكبير لمواهبه الأدبية التي لا ينكرها منصف ، وبمحاولة توجيهه شطر التعاون الأدبي وقيادة المجددين من الأدباء ان استطاع بعد أن ظل معدوداً أمير المحافظين من الشعراء زمناً طويلاً . فحكم حضرة الناقد اذن حكم مغرض لا يراد به الا التشويش والخلط والتضليل ونكران الحقيقة الناصعة التي يعلمها جميع الأدباء ، وهي أن الدكتور أبا شادي يمثل الغيرة الأدبية أشرف تمثيل ، وهو عنوان البر بالأدب والادباء ، ومثال التعاون الجميل . فلماذا قلب حضرة الناقد هذه الحقيقة الناصعة المشهورة قلباً تاماً ؟ ! لقد سبق الجواب وسيأتي الشرح . .

* * *

لولا علمي بما وراء هذه الحملة الموجهة الى الدكتور أبي شادي والى الأدب الجديد في شخص الشاعر الممثل لأنصاره ومريديه لما حفلت بها ، لانها في ذاتها حقيرة لا تستحق غير الازدراء بها . ولكنها أقوى حملة وجهت الى هدمه بل الى هدم الأدب الحديث استبقاء لنفوذ شوقي بك الذي لا يؤازر إلا من يتملقون اليه من النكرات ، فان عرف أحدهم فيما بعد أسرع شوقي بك للتنكر له . . . ! ! وهكذا شاءت الأقدار لسوء حظ الأدب المصري أن يكون أحد الأكابر من شعرائنا — وهو شوقي بك — في مقدمة هادمي الأدب استبقاء لمجده الشخصي ، فهو يبني من جهة ويهدم من جهات ! !

أوشك شوقي بك أن يتم العقد السادس من عمره (حيث ولد سنة ١٨٦١ م) بينما الدكتور أبو شادي في منتصف العقد الرابع (فقد ولد سنة ١١٩٢ م) فالفارق بينهما ربع قرن من الزمان . فهل يريد الحزب الشوقي رغم هذا الفرق بينهما في السن (دع عنك نعمة شوقي وراحته) شيئاً من المقارنة تخفيفاً من غلوائهم ومكابرتهم ؟ إذن فليقرؤا . . . وليتشجعوا قليلا فيتجنبوا الولولة والادعاء بأننا نتحامل عليهم حينما نكتفي برد سهامهم الطائشة في شرف وكرامة . . .

أثر البيئة

نشأ الدكتور أبو شادي في بيئة أدب وعلم وترعرع فيها ، فهي بيئة الصحافة وبيئة الكتاب والشعراء ، فضلا عن الوسط العائلي الأدبي ، ثم انتقل الى خير الأوساط العلمية الانجليزية . وهذه البيئات المهذبة المثقفة قلما اتيحت لأديب مصري من قبل ، لاسيما وقد كانت متشبعة بروح الحرية والاباء ، مما طبعه بطابع الديمقراطية وعزة النفس .

وهذا من الأسباب القوية التي تجعلنا معشر الشباب الأحرار نعلق آمالا كبارا على مستقبله وعلى تأثيره الأدبي في المجتمع المصري .

وأما شوقي بك فقد نشأ في وسط ارستقراطي متقاب ، فانطبع بطابعه ولم ينفعه التعليم الاوروبي ، وخدع الأدباء بوعوده الجميلة التي نسقها في مقدمة الطبعة الاولى من ديوانه الجامع لشعره من سنة ١٨٨٨ م الى ١٨٩٨ م ، فلم يبالوا بمتابعة احدى الصحف في وصفه « بشاعر الأمير وأمير الشعر » — من قبيل المغالاة في المجاملة الشرقية المألوفة في ذلك الوقت — نعم لم يبالوا بذلك في الوقت الذي انتظروا الخير على يديه للأدب والادباء ، ولكن فطرة شوقي بك المادية وأنانيته أخذت تتغلب عليه ونسي وعوده الطيبة(١) وحارب كل أديب نابه من حافظ الى محرم الى الكاشف الى نسيم الى غيرهم ، وكان اخوانه الشعراء يغفرون له هذه الخطيئات ، ويشفع لديهم صنائعه بماله من حسنات أدبية ، واستمر الحال على هذا المنوال الى أن بلغ السيل الزبى في السنوات الأخيرة بتقلباته الذميمة ، حتى جعل أدبنا أضحوكة مبكية لمجرد زهوه وحبه للظهور وغروره الكبير(٢) ! !

---

(١) راجع ما كتبه الاستاذ السندوبي في جريدته (الثمرات) — يوليو سنة ١٩٢٦ م وقارنه بما كتبه شوقي بك في مقدمة الطبعة الاولى (للشوقيات) .

(٢) اعترف شوقي بك بتشجيع فخر الأدب العربي خليل بك مطران له وفضله عليه ذلك الفضل الذي نعلم جميعاً أنه لم يبدله حتى ابعاد شوقي بك عن مصر ، فقال في مقدمة الطبعة الاولى من (الشوقيات) : « . . . . وهنا لا يسعني الا الثناء ، على صديقي خليل مطران صاحب المنن على الأدب ، والمؤلف بين أسلوب الافرنج في نظم الشعر وبين نهج العرب » . واعترف بفضل حافظ بك ابراهيم فقال :

قالـــــوا حبيـــب أنت تطري شعـــره
مـــن ذا الـــذي لـــم يطر شعر (حبيب) ؟!

المبادىء والأخلاق

قلنا إن الدكتور أبا شادي رجل ديمقراطي بتربيته وهو كذلك بفطرته ، ويعزز شهادتي هذه كل من عاشره من الادباء وكل من جالسه ، دع عنك لسان شعره الحر . وهو وفي لمبادئه أتم الوفاء ، فلم يبدل منها الاغتراب ولا تقلب الظروف السياسية .

وأما شوقي بك فلا أعلم أن له مباديء أو شبه مباديء ثابتة ، ولا وفاء لبيئته الاولى ، ولا التقدير الباقي لولي نعمته التي ما يزال يرتع في بحبوحتها .

والدكتور أبو شادي رجل كريم قولاً وفعلاً ، وشوقي بك رجل بخيل ، ولا أحب أن أتوسع في المقارنة بهذه النقطة . . . . .

= من كان في ريب فذا ديوانه
راح العقول وكأس كل اديب

أوعى (لأحمد) و (الوليد) كليهما
شمم المديح ورقة التشبيب

كم فيه من مثل يسير وحكمة
تبقى على الدنيا بقاء (عسيب)

يا (حافظ) الآداب والبطل الذي
يرجى ليوم في البلاد عصيب

قل للآلى خصوا اللآليء بالهوى
مثقوبة أو غير ذات ثقوب

لا تسألوا الاصداف ماذا اودعت
في هذه الاوراق كل عجيب

ثم غلبت عليه الغيرة منهما ، وأعمته الماديات ، فاذا به لا يهنأ له عيش الآن بغير انتقاص أصاغر الكتاب والصحف المجاملة له من قدريهما وأدبهما العظيم ، ولم تكفه دسائسه الاولى في حياة صديقه سمير فصارت مناه الآن ان لا تسع مصر بل الشرق العربي بأجمعه شاعرا غيره . . . . ! !

وانما حسبي أن أقول إن جلال المباديء ومكارم الأخلاق تترك في الشعر حيـاة لا تفنى ، وهـذا عامل آخر يدفعنا معشر الشباب الى التأميل الكثير من عبقرية شاعرنا الناهض الأمين الكبير النفس .

قوة الشاعرية

اذا قارنا بين شعر شوقي بك في العشرين من عمره (أي سنة ١٨٨٨ م) رغم تنقيحه له فيما بعد ، وبين شعر الدكتور أبي شادي في مقابل ذلك العمر – بل فيما دون ذلك العمر بسنوات خمس – فأننا نجد لشاعرنا قوة نفسية وأدبية فوق منال شوقي بك الفتى . وأما عن شوقي بك في طفولته الأدبية فقد كان شعره هذراً في هذر وسخفاً عجيباً لا يزال حديث المسامرة في المجالس الأدبية اذا ماذكرت طفولة الادباء ، وقد اعترف شوقي بك ذاته بذلك مضطراً حتى يحبس ألسنة نقاده في أيام شبابه فقال : « على أن ما جمع في (الشوقيات) ثم طبع ليس هو كل ما قيل فقد أسقطت منه الكثير وعثرت على غيره ولكن في الزمن الأخير ، فأما ما اسقط عمداً فأكثره من قولي في زمن الصبا الذي لا يؤمن فيه على المرء الغرور ، ولا يسلك الفتى فيه سبيلاً إلا وهو مضلل عثور . وقد خشيت أن يقع مثل ذلك في أيدي الناشئة فأسأل عن سوء وقعه ويكون إثمه أكبر من نفعه . . . . » الخ ، بينما السبب الحقيقي هو قبح ما اضطر الى اغفاله ، لأن من يسمح في هذه الأيام للشركة المصرية البريطانية بائعة الوسكي بأن تتخذ شعره وسيلة للاعلان عن

بضاعتها(١) ولافهام الناشئة أن نبوغ شوقي بك الأدبي ينتسب الى الويسكي — من يسمح بهذه الجناية الخلقية لاهياً عابثاً لا يصدق عنه هذا التعفف الذي يتحدث عنه في شبابه الاول . . . ! !

قال شوقي بك في العشرين من عمره متغزلاً .

وبـــدا يميــس فلاح لي قمــر على
غصــن رطيب بالمحاســن مثمر
رشـــأ اذا هــز النسيم قــوامه
أزرى بغصـــن البانـــة المتخطـــر
متمايـــل الأعطـــاف ، ورد خـــدوده
يغنـــي المحب عن الشقيـــق الأحمر

فوضع لك « البدر » على « الغصن » وتحدث عن « البانة » و « الشقيق الأحمر » ونحو ذلك من السخف الذي يقال لنا الآن انه كان تجديداً عظيماً في الشعر العربي ! أما الدكتور أبو شادي فقال لنا في الرابعة عشر ، وهو من شعر طفولته الأدبية الذي يحاول الشوقيون تعنتاً أن يعرضوه على محك النقد بل في معرض التحامل الذميم :

لـــولا المحبـــة ما تحـــرك شاعر
ولمـــا غـــدا حول السماك يطير
ولمـــا رأينـــا للمكارم دولـــة
ولمـــا نظرنا لكون وهو خطير

---

(١) راجع الصفحة الثانية من جريدة (السياسة) الصادرة بتاريخ ١٦ اغسطس سنة ١٩٢٦ تجد فيها احدث اعلان من هذا النوع اطلعنا عليه بعد كتابة هذا المقال ووقت تصحيحه قبل الطبع .

فاعجب لضعف قوة في ذاته
يدع الحياة تني له وتمور

وقال في العشرين باكياً هواه وشبابه الذابل :

أسفي على عهد الشباب المنقضي
بجلال نعمته وحق زفيري
ودعته وحرست آمال الهدى
فشقيت الا من لقاء ضميري
وأنا الشفيق على الجمال وان قست
وجنت محبته إزاء مصيري

وقال شوقي بك في الثلاثين من عمره يصف منظر طلوع البدر في البحر من أعلى السفينة وهي تجري – وهذه القصيدة من أحسن شعره الوصفي في شبابه :

ملك السماء بهرت في الأنوار
ففداك كل متوج من سار
لما طلعت على المياه تنيرها
سكنت وقد كانت بغير قرار
وزهت لناظرها السماء وقرها
في البحر من عبب ومن تيار
وأهل له السراة وأزلفوا
لك في الكمال تحية الأكبار
وتأملوك فكل جارحة لهم
عين تسامر نورها وتساري
والبدر منك على العوالم يجتلي
بشر الوجوه وزحمة الأبصار

متقـــدم في النـــور محجوب بـــه
مـــوف على الآفـــاق بالأسفـــار

الى آخر هذا الوصف المستملح . ومع هذه الاجادة فقارنه بشعر الدكتور أبي شادي في الخامسة والعشرين يصف سقوط الجليد في انجلترا من قصيدة طويلة فريدة بأخيلتها وجمالها :

انظـــر مفـــاخر أنجم وبدور
جعلـــــت مطالعـــها بأبهـــج دور
سلبـــت عقول أولي النهي واولي الهدى
من لم تتيمهـــم ذوات خـــدور
هـــذا الجمال لعابـــد متبتل
جـــذبـت روائعـــه أرق شعور
هـــذا النعيـــم لكل من يعنى بـــه
ولكـــل ذي لـــب وكل شكـــور
هـــذا الكتاب لباحـــث أو واصـــف
أو ناقش أو عازف مســـرور
آيـــات إعجـــاز تجلت للـــورى
والليـــل حائطها بأمتـــن سور
فـــي كل تافهـــة وكـــل جليلة
آثـــار وجـــدان أجـــل كبير
هـــذي مظاهر كل فـــن شائـــق
منهـــا استعار الفن كل خبيـــر

فاز الثرى منها بكنز لآلىء
وحلي أقمار ونفح عبير

وزهت بزخرفها السماء فأمطرت
من عهنها المنفوش والمنثور

نشرت لواء السلم أبيض ناصعاً
فالحب تحت لوائها المنشور

كست الطبيعة حلة من فضة
هي في طهارتها لباس الحور

نثر النجوم قشورها مجلوة
بالنور أو نثر من البلور

قرت عيون الكائنات بمشهد
عجل الفناء اليه غير صبور

وأما المقارنة بين شعر شوقي في الثامنة والخمسين وبين شعر أبي شادي في الخامسة والثلاثين (وأمثلة منه في صفحات هذا الديوان) فميسور للقاريء(١) . وبجانب هذه المقارنة يجب على الناقد أن يذكر أن شاعرنا غير راضٍ عن نفسه وعامل دائماً على تهذيبها ، ومقدر

(١) المقابلة الحقيقية في عرف المنطق بين قوة الشاعرية في نظم شوقي بك سنة ١٩٢٦ م . وبينها في نظم الدكتور أبي شادي انما يجب أن تكون في سنة ١٩٤٨ م . حيث يبلغ شاعرنا (اذا مد الله عمره) عمر شوقي بك الحالي فتكون المقابلة بين اثارهما متكافئة في معظم العوامل الطبيعية ، وان انفرد شوقي بالثروة والنعمة والراحة والتفرغ للشعر . ورغم هذا الفارق فليس الدكتور أبو شادي في اعتقادي وفي اعتقادي الكثيرين من الادباء والمفكرين بالخاسر في مواقف كثيرة اذا تعرض للمقارنة الأدبية في وقتنا الحاضر .

مسؤولياته ، وأنه يترك تحقيق أطيب وعوده وآماله الأدبية الى الغد ، وان أصدقاءه لا يقنعون بآثار نبوغه الحاضر مهما أجلوها ، بينما شوقي بك اعتقد من أول عهده أنه شاعر الشرق بأسره ، وانه أعظم من (تاغور) وبينما أصدقاؤه النفعيون يتابعونه في هذا الوهم ويستغلون في غير حياء هذا الضعف منه . . . ! ! فأي الأدباء أولى بأن يسمى « مطيباً » لصديقه الشاعر ؟ أمثلي الذي يقرن التقدير بالنقد ويشجع صديقه دائماً على بلوغ المثل الأعلى من الكمال مهما طال الزمن ، أم هو الدكتور هيكل بك الذي غالى أية مغالاة في تفخيم شاعره شوقي ، أم هو محمد بك ابراهيم هلال الذي عظم حافظ وشرح ديوانه الأول وخاطبه بقوله :

ألا كـــل قـــول عن مديحـــك قاصر
وكـــل مديـــح في خلافك زور ! !

ثم دار الزمان دورته فتخلى عنه . . . ! !

اني رجل صريح لا أندم على الصراحة الشريفة والجرأة الحقة ولولا حبي للأدب لما استطعت الاشراف على نشر هذا الديوان فقد كثرت شواغلي وتنوعت منذ أوقفت الوزارة الزيورية المشؤومة عملي الصحفي ، وقد تعوقني شواغلي المستقبلة عن القيام بنظير هذه الخدمة الأدبية التي ترتاح لها نفسي أعظم الارتياح ، ولكن ذلك لا يدعوني الى تغيير رأيي فيما دلني المنطق والتجارب على انه صواب ، ولن يثنيني النقد المغرض عما أراه حقاً ، ولن يكون سكوتي الاضطراري تبديلاً لمبادئي ولا مساومة في ذمتي ، لا قدر الله . . . .

الأثر القومي

لقد صدق الحزب الشوقي في قوله ان شعر أبي شادي شامل للحياة القومية ، وان شاعرنا ينظم في كل موضوع ولكل مناسبة وانه قادر على خلق المناسبات للنظـــم . وسيؤلمهم أكثر مـــن ذلك — ماداموا لا يعبؤون ببناء الأدب ، بل يكاد يعنيهم هدمه استبقاء لتفرد شوقي بك بالشهرة — ان شعره محبوب لدى طبقات كثيرة من المتعلمين ، وان دواوينه رائجة منشودة .

حدثنا أحد محبي شوقي بك — بل أحد المغالين في تفخيمه — عن تقلب شوقي بك وقلبه للحقائق حسب الأهواء والمنافع ، فقال في رفق ومودة كثيرة(١) : « شوقي شاعر : شاعر النيل وشاعر البسفور ، وشاعر الحضرة الخديوية في مصر ، وشاعر العرش العثماني في فروق ، شاعر العهد الحميدي في حكومته المطلقة ، وشاعر العهد الرشادي في حكومته الدستورية . كذلك شوقي نفسه شاعر الخلافة الاسلامية متمثلة في التاج العثماني ، وشاعر الجمهورية التركية مشخصة في قبعة مصطفى كمال . ثم من هنا وهناك شوقي عينه شاعر الشرق ، فأمير الشعر ، أو أمير الشعراء !

لا بأس ! طائر يغرد في كل فنن ، وريشة تضرب على كل وتر ، وان شئت فقل : شاعر في كل واد يهيم ! لا بأس ! ان في شعره لحلاوة ، وان عليــــه لطلاوة ، وان الرجـــل لمطبوع عـــلى الشعر كأنما خلق ليكـــون شاعراً ، فليكن أميـــر الشعر والشعراء ، ولكن

(١) راجع مجلة « الفتح » : العدد الثامن ، المجلد الأول .

شاعر الشرق والغرب اذا شاء . في استطاعة شوقي أن يكون كل ذلك ، وفي استطاعة شوقي أن يهيم في كل واد ، وأن يقدح كل زناد . ولكن ليس في استطاعته أن يتمرد على الطبيعة ويخرج على الدائرة التي وضعه الله ضمن حدودها دون أن يضل سواء السبيل ، فلا يلبث أن يعود مقهوراً مدحوراً لم تغن عنه شيئاً ألقابه ووديانه ، ولا أوتاره وأفنانه ، فانها شيء وما تصدى له شيء آخر . . . » (١)

هذا ما يقوله أحد أنصار شوقي بك متستراً ، فماذا يمكن أن يقال عن الدكتور أبي شادي ؟ لا أكثر ولا أقل من أنه شاعر وجداني تتمثل العواطف في كل شعره ، وتتوجه أحاسنه الى هيكل الوطن المقدس ، كبير القلب ، شريف المبدأ ، يحترم شعره كما يحترم رأيه ، مجدد في غير تجرد ، متصوف في فلسفته ، حر الذهن في غير إلحاد ، عريق في وطنيته ، واف بعهده القديم : تخر الراسيات ولا سبيل الى هدم الكريم من اعتقادي .

يعرف أن أعظم سر لدينه نصيح خاتم الأنبياء والمرسلين ، بأن نطالب العلم ولو في الصين ، فيدعو — خدمة للعلم وللدين وللانسانية

(١) طعن شوقي بك طعنا مراً في زعيم الثورة المصرية الأولى المغفور له أحمد عرابي باشا بقصيدته التي يقول في مطلعها : « عرابي كيف أوفيك الملاما . . »وكانت منشورة في الطبعة الاولى من (الشوقيات) ثم حذفها من الطبعة الثانية ، لا اعترافا بالحق ولا خجلا من ذنبه ، وانما جبنا أمام انكار الوطنيين المصريين لحملته ، فلا هو تمسك برأيه في عرابي ودافع عنه ، ولا هو أنصف ذكرى عرابي باشا . وهذه روحه بعينها في مدحه واوصافه وتهانئه ومراثيه ومن بينها رثاء الحصان الكريم « مكسوبني » فانما يمليها غالبا الغرض أو الهزل أو حب النفع أو فرص الظهور ، وأما الواجب المستتر فيندر انه يعبأ به . والعهد قريب بتخلفه عن حفلة (يوبيل المقتطف) لا شتراطه الا كتفاء بقصيدته نيابة عن الشعراء المصريين والاستغناء عن قصيدة حافظ بك ابراهيم ، فرفض أصحاب (المقتطف) طلبه السخيف بشمم وكرامة نفس . . . .

معاً — الى دوام تطبيق العلم على الدين ، كأنما ذلك ركن سادس للاسلام.
هذا شاعرنا وهذا أثره القومي في شعره .

اللغه والديباجه

ربما كان الأليق ان اشير عرضا الى اللغة والديباجة في موضع سابق لأنها ليست أهم شيء في الشعر ، فالغاية القصوى من الشعر أثره القومي ثم أثره الانساني العام ، وما أثره الفني الا غاية صغيرة بجانب الغاية القومية العظمى المنشودة في هذا العصر . بيد انه لا يزال في مصر جيش عظيم من المقلدين كل حديثهم عن الأدب محصور في هذه الكلمات : « رقيق . جزل . لغة . ديباجة . مبتذل . فخم . » . . . فالى أمثال هؤلاء يكفيني أن أقول : هذا شاعركم شوقي أنفق من عمره ثماني وثلاثين سنة دارسا اللغة العربية ، ومع ذلك لا تزال تعد عليه سقطات وأخطاء كثيرة ، وأمله الأكبر أن يعد الشاعر العربي القح . . . فلا هو يرضي علماء اللغة والأدب العربي الأصيل من تلاميذ الشنقيطي والمويلحي والمهدي ، ولا هو يرضي أنصار الأدب المصري الخاص ، وهذا شاعرنا الدكتور أبو شادي اعتبر بهذا الدرس الأليم الذي شاهده في شوقي وحافظ ومحرم وغيرهم ، فقال ما أغناني عن كل هذا السخف ، وابتدع لنفسه أسلوباً خاصاً ، وأحيا روح الأدب المصري في شعره ، ونظر الى أدب بيئته بالنسبة للأدب العربي الصميم كما ينظر الأمريكي الى الأدب الانجليزي . ولقد صدق الناقد الأدبي لجريدة (الأهرام) في قوله عن شاعرنا : « . . . تبينا له طريقة استقل بها ، فهو لا يقلد

قديماً ولا يشايع جديداً ،وانما يرسل شعره منتزعاً من الحياة العصرية ، حتى كأنه قطع منها متناثرة »(١) .

فالدكتور أبو شادي ليس مقلداً في أسلوبه وان كان له مقلدون وقد استمده من روح قومية شريفة بدافع شريف ، فكل نقد يصطدم به اذا يتناثر حوله ، لأن روح أسلوبه المنطق السليم والوطنية العملية الصادقة . ولله دره حيث يقول :

لغتي الذي يوحيه ذوقي والذي
لبى به الأدب الحديث ندائي

وأرى فمي وحجاي ثم يراعتي
ملكاً لموطني الشقي شقائي

ولم يكتف الدكتور أبو شادي بتمصير مفرداته وأسلوبه في اعتدال جميل بل تصدر أيضاً لمحو رذائل القيود العروضية التي لا يقبلها الذوق العصري أو لا موجب لها في عرفه ، وقبل النقد في شجاعة بل دعا اليه ورد سهامه الطائشات ، بينما « أمير شعرائنا » شوقي بك خائف وجل يتقدم خطوة في سبيل التحرير ثم يتراجع خطوات أمام نقد الجامدين ، واذا عتبنا عليه في لين أو شدة بريئة من الغرض الشخصي أثار عساكره علينا في حرب عوان ، فرأينا – وبنفسنا اللهف والحسرة – كيف

---

(١) راجع مقالة الدكتور أبي شادي الشائقة عن « ادب العصر » في ذيل الجزء الأول من كتاب (وطن الفراعنة) وقصيدته العصماء عن « الوطنية والأدب » المنشورة في هذا الديوان .

يعمل على هدم الأدب من هو أولى بأن يبقى دائماً في طليعة بناته . . . فلعل مرارة كامتنا هذه هي مرارة الدواء الناجع ، وآن سوف يتبعها شفاء ستقر به عين الأدب ، وسيكون فاتحة عهد جديد للتعاون الأدبي المنشود المجرد من حب المجد الشخصي ، فانه ما تسلط على أي نابه عظيم الا وأساء اليه ، ثم الى عماله ، ثم الى وطنه .

حسن صالح الجداوي

* * *

درس وتحليـــل

بقلم العلامة الأستاذ الشايب
مدرس الأدب العربي بالمدرسة العباسية الثانوية

(١)

سم هذه الفصول نقداً أدبياً ، أو سمها ملاحظات تحليلية ، أو سمها تحبيذاً ومجاملة ، أو سمها ما شئت أن تسميها ، فليست تعنيني هذه التسمية ، ما دمت أذهب فيها مذهباً صريحاً نتفق عليه قبل كل شيء ولا نحيد عنه قيد شعرة ، وما دمت زعيماً لك أن أضع يدك على المقدمات قبل النتائج فيما أحاول إثباته ، إلا أن شيئاً واحداً يجب أن أحتفظ به لنفسي منذ الآن ، ذلك هو نفسي الأدبية ، وما قد يدعونها « شخصيتي » الأدبية التي لا مفر منها للباحث ، بل لا بد منها لتذوق الأدب ، وشرح أسراره ، وبيان بلاغته ، والتماس صلته بالحياة العامة والخاصة . ولا يهولنك هذا فتنقبض وتتراجع إذ ليس الأدب قوانين ثابتة وقواعد مقررة يقف عندها الناس ، ويقصد اليها الادباء ، ويعدونها الغاية التي ينتهون عندها كما ينتهي الرياضي عند جواب « المسألة » أو « التمرين » . تجد ذلك في الحياة العلمية وقوانين الحساب والجبر والهندسة ، وأما الأدب فبراء من ذلك بعيد عنه ، براء من

تلك المذاهب العلمية التي يحاول كل من « سانت بيف — Sainte Beuve » و « تين — Taine » و « برونتيير Brunetiere » أن يحبسه فيها ويضيق عليه الخناق ويكسبه الجمود والجفاء ، وليت شعري كيف يتيسر لنا أن نحبس العواطف المتدفقة والشعور المتقد ، والنظر البعيد عنه نقطة أو دائرة لا تعدوها ؟ أليست هذه جناية على الأدب والأدباء وسلباً لحرية الشعر والشعراء ، فتكون العاقبة حبس المواهب والجمود ثم النفاق والموت ؟ وقد يدور بخلد أحد أن هذا عيب في باب الأدب ، عيب أن يترك دون حدود وتقاليد مرسومة يتأثرها الناس وينتهجونها ، ولكن الحق أن هذا ليس بعيب ، وانما هو خير فضيلة في الأدب وأحسن محاسنه حتى يكون قابلا للحياة الخالدة والحركة المتجددة ، والاتصال بالدنيامهما تكن صورتها ورسومها فهل تريدنا على سلب الأدب ليانه ومرانته فلا يبقى شيء في الدنيا حراً ، ونعيش نحن آلات متحركة بقوة القوانين العلمية والأدبية فوق قوانين السماء والأرض ؟ لا ! وسأحتفظ بنفسي أولا ، وبنفس الأدب ثانياً !

ومع هذا فسأتفق معك على قانون أو مذهب صريح كما حدثتك منذ قليل ، ولا تظن هذا نقضاً لما سبق أو خروجاً على ما أشرت اليه من براءة الأدب من الرسوم الثابتة . لا تظن هذا ، فلست إلا واقفاً عند قواعد عامة لا يضيق بها الشعر ذرعاً ولست الا مشيراً الى ما يجب أن يكون عليه الشعر من حيث انه صورة للحياة ، وجزء من عمر الدنيا ، وصحيفة من صحف التاريخ ، ومرآة لنفس صاحبه نراها فيه واضحة صريحة . وقد قلت لك أن اساس هذا المذهب الاحتفاظ بنفسي أولا ، ثم بطبيعة الأدب أو الشعر ثانياً . وما نفسي تلك التي أعتز بها ؟ ليست

بشيء هنا سوى هذا المعنى الأدبي الذي لا يمكنني الخلاص منه ومن ومن التأثر به ، وكيف يمكن هذا بل كيف أخلص من نفسي وهي التي تتحدث اليك وتكتب لك ؟ فاذا سترى شيئاً متأثراً بمواهبي فاصبر عليه ، فليس ذلك استبداداً وأثرة ، لان طبيعة الشعر ووظيفته هي التي ترسم لنا سبيل القول ، وهنا يبطل السحر والساحر . ما طبيعة الشعر ؟ وبم يمتاز العصري منه ؟ لست أبهم أو ألغز أو أطيل ، وانما أقول لك في صراحة وسذاجة : إن الشعر كلام يجمع بين الحقيقة والخيال ، تدعوه الحقيقة الى الخلود وقوة الأسر ، ويدعوه الخيال الى الخفة والجمال بما يسبغه الشاعر على الحقيقة من فنه وبيانه ليسهل وقع الحقيقة على النفس ، فتكون لذيذة وقوية أيضاً . أما الشعر الحقيقي كله فصعب ثقيل ليس من الجمال الوجداني في شيء . وأما الشعر الخيالي كله فشيء طائر لا يكاد يستقر في النفوس ، بل يمحي منذ ينشأ ويدعو الى السخرية والاستهزاء ، فلا بد أن يكون مزيجاً من الحقيقة والخيال ليكون جميلا خالداً .

وأما الشعر العصري فيجب ان يتوافر له هذا الأصل السابق مع أمر آخر هام : هو الصلة بينه وبين هذا العصر الذي نحيا فيه فيستمد منه موضوعاته ومعانيه وأخيلته ، ويجتهد أن يصور لنا هاته الحياة الحاضرة في مختلف أحوالها ونوأحيها ولا سيما الحياة المصرية أو الوطنية للشاعر القومي . أليست الدنيا كلها بيئة الشاعر العصري بعد أن ألم بها خبراً ؟ ثم أليس وطنه ألصق به من سواه فيؤثره بالحديث والتقديس ؟ ألا تراه بعد هذا يكون صادق الشعور صادق التعبير : شعره قطعة من الزمان والمكان يستحق الخلود ما بقي الزمان والمكان ؟ ثم أفلا تراه مفهوماً لشعبه وناسه الحاضرين والغابرين ؛ يرون في شعره صورة نفوسهم وحياتهم ،

وتاريخ دنياهم وبلادهم ؟ نريد من الشعر أن يتشبث بشيئين ليحظى بشيئين : يتشبث بالحقيقة الجميلة والاتصال بالحياة ليحظى بالالفة والخلود . فأنت تراني حراً حين قيدت نفسي معك بهذا المذهب الأدبي، وأنت تراني أيضاً مقيداً بهذا الأساس ولكنه على قيمته دائرة مرنة وأصول عامة ، هي في ظاهرها سهلة سائغة ، وفي حقيقتها لا يتطال اليها الا النابهون . ومهما يكن من شيء فأشعر أننا اتفقنا ، وأن قد آن آن الأوان لنلتمس هذا المذهب في هذا الديوان .

(٣)

وماذا تريدنا أن نلتمس في الديوان ؟ نريد أن نتبين هل توافر للدكتور أبي شادي أن يكون شاعراً عالمياً ، فيصف النفس الانسانية العامة ويعرض لها في شرح وتحليل ويخضعها لسلطانه الفني والعلمي أو يخضع لها فنه وبحثه ، فلا يتجاوز الحقيقة الى تلك الدعاوى الشيطانية التي يمخرق بها مشعوذو المتأدبين من حيث لا يشعرون ؟ ونريد أن نعرف هل تيسر لهذا الشاعر أن يكون شاعراً قومياً نقرأ في شعره عصره السياسي والاجتماعي سواء أكان في مصر أم في غير مصر من أقطار الدنيا حتى يكون أثره سجلا لعصره ، وقطعة من عمر الدنيا ، وحتى يكون صريحاً صادقاً يعرف دنياه ويدونها لنا ، وللتاريخ فيستأهل منا العناية والاحتفاظ بشعره ؟ ونريد أن نحس شيئاً آخر : هو نفس الشاعر الخاصة ومواهبه العقلية والوجدانية ، هو تلك الجذوة الباطنية التي اتقدت في نفسه ثم ظهر شررها أو لهبها فكان غناء ، فكان حباً وبغضاً، ورضاء وسخطاً ، وأملا وألماً . . . وأخيراً كان صلته بالحياة ، ومقدار ازدواجه بها ، وثمرة تلك الدائرة الكهربائية ؟ !

ولا أنسى بعد ذلك ما يتبع هذا من وحدة الموضوعات ، وجمال الاساوب وحسن النغم والجرس ، فتلك توابع يتم بها جمال الشعر ، وتسمو مكانته في نفوس الشعب الأدبي ، وتقربه الى المثل الأعلى . أليست هذه الغاية تتطلب منا أن نجيب على هذه الأسئلة : ما هو عالم هذا الشاعر الذي نرجو أن يكون شاعره ؟ وما هي قوميته التي تحمله على أن يصورها لنا ؟ وكيف تكون مزاجه النفسي والأدبي لنعرف هل كان شعره نتيجة حقة لنفسه أو كان شاعراً مقلداً يطير مع أهواء غيره ، ويترجم نفس سواه ؟

(٤)

في مستهل القرن العشرين كان صاحب الديوان طفلا يتردد على مدرسة عابدين الابتدائية بعد أن مارس التعليم الأولي بمدرسة الهياتم ، وكانت تستقر في نفسه مواهب اسرتين كريمتين لهما أصل أدبي معروف : احداهما أسرة والدته ولا نحدثك عنها بأكثر من ذكر المرحوم مصطفى بك نجيب صاحب كتاب (حماة الاسلام) وصاحب الآثار القلمية الباقية ، ولعلك تعرف أن هذا الكتاب من أول الكتب التي حاولت فهم التاريخ بالطريقة المنطقيةالحديثة ، فهذا خال الشاعر . وأنت بعد هذا لا يزال يرن في أذنك صيت المرحوم الأستاذ الفذ « محمد أبو شادي بك » أحد الثلاثة الذين بدأوا الحياة القانونية والقلمية في هذه الديار ، ثانيهم سعد زغلول وثالثهم الهلباوي ، ونسيت أن أقول لولا المنية لكان خاله بحكم منزلته الاجتماعية والسياسية خليفة صديقه الحميم مصطفى كامل رسول الوطنية المصرية وجذوتها الاولى .

فاذا كنت على علم بقانون الوراثة للأفراد والشعوب سهل عليك أن تفسر سرعة شاعرنا وهو في فجر الصبا الى الشعر وقرضه ، والى الأدب وفنونه ، وانصرافه الى ذلك بجل مواهبه وهنا ظهر لي ما حاولت تبينه غير مرة : وهو النتاج الشعري المتواصل الذي امتاز به أبو شادي ، فهـل لي أن أنسب ذلك الى تلك النفس الفياضـة بطبيعتها والتي قدت من الشعر والسلاسة وخلقت لتكون شاعرة على الرغم منها ومن الطب والبكتريولوجيا والأبقلطوريا وغيرهما من المباحث العلمية الخالصة ؟

وكان من الحتم اللازم على هذا الصبي الغض أن يتأثر بمؤثرات أخرى لا قبل له بدفعها ، ولا مناص من الاتصال بها لمثله ، منها تلك الخطة المرسومة للتعليم المصري ذلك الذي يضم في منهجه الابتدائي الابتدائي والثانوي أنواعاً شتى من العلوم الكونية والأدبية والدينية، فاذا كان لنا أن نبتهج بها لتكوين شيء من الثقافة الأولى للناشيء المصري ، فان لنا أن نبتئس بها لاحتوائها اذ ذاك على شيء غير قليل من الجمود والجفاء الذي لا يلائم النفس الشاعرة التي لا تحتمل القرار والوقوف عند رموز الجبر والهندسة وقواعد اللغة والأدب المحبوب الذي وقفت عنده تلك المدارس أول هذا القرن ولا يزال له أنصاره الى اليوم ، أقول كم من البون — فيما يظهر — بين نفس من حقها أن تطفر بين أفنان الجمال الفاتن ، وبين نفس أخرى ليس لها أن تكتفي بالشيء يلقى فيها تحفظه لتجوز الامتحان الدراسي والسلام ! . . . فهل هذا من أسباب ثورة أحمد أبي شادي على القديم وقصده توا الى الجديد والنبو عن هذه الأغلال التي قيد بها أنصار المدرسة القديمة أنفسهم وأقلامهم خائفين أو

عاجزين ؟ ذلك رأي أراه ، وأرى معه شيئاً آخر ، وهو أن هذه الحقائق العلمية والأساليب الأدبية القديمة أفادت شاعرنا مادة قويمة في اثبات الصلة بين العلم والأدب امتاز بها دون غيره ، كما أفادته فصاحة لسانية قاموية والاعتماد على القديم فيما يذهب من التجديد ، دون أن يقطع الصلة بين أعمار اللغة والأدب .

ومنها تلك الحركة الوطنية التي كانت تضطرم جذوتها في المدن وفي رؤوس الشبان ، والتي كان مصطفى كامل يحمل علمها جريئاً مقداماً ، يتأثره الشبان ، ويعاونه رؤوس مصر ومحبوها فانطبعت هذه الصورة الوطنية في نفس هذا الشاب ، وكان شعره القومي لها نغما جميلا ، وتاريخاً قومياً ، وصوتاً عالياً ، في مصر وفي بلاد الانجليز كما أحدثك بعد .

ومنها (الطبيعة) التي يفتتن بها الشاعر قبل غيره ، بل هو وحده الذي يفهمها ويتحدث اليها ، سواء أكان صامتاً أم ناطقاً ، ضاحكاً أم باكياً ، واقفاً عند مظاهرها أم ذاهباً الى أغوارها مستسراً أسرارها . . ستجدني بعد حين أحدثك عن شعر الطبيعة وألفتك الى قصيدة « الربيع » و « صور وأنغام » وغيرهما ، ولا أدري لما ذا طرأ على فكري الآن « بيرون — Byron » و « ورد زورث — Wordsworth » و « بيرنز — Burns » من أصحاب الشعر الرائع في مشاهد الطبيعة — لعل ذلك لأني أجاهم وأعرف عنهم أكثر من غيرهم في هذا الباب الذي فتن به أبو شادي أيضاً .

وليس لنا أن ننسى نفحة الحب ونعمته ، ذلك الحب العذري الطاهر ، ولولا أنه كان بريئاً طاهراً لما رأينا آثاره هذه في حال الشاب

النفسية من الوجد والمرض ، بل والاضطرار الى ترك الوطن والاغتراب ، وربما كان من حسن حظنا وحظ الأدب — على الرغم من ارادة هذا الشاب — أن حيل بينه وبين أماله في الحب ، فكان زهرة تفتحت أكمامها ، وكان برقاً لمع وميضه في أفق الأدب ، وكان جمراً اتقد ضرامه وعلا ، وكان بلبلا فصدح ، وكان غيثاً أوله :

نشأت وقلبـــــــي يصبو للــــك
وانـــــي ربيـــــت على حبك

أليس لي أن أبتسم من قلبي وانظر الى هذا البيت نظر البستاني الى أول ثمرة ، ونظر المبتهل الى الهلال ، ونظر الفلاح الى أول فيض النيل ، ونظر الأديب الى الخيال البكر الباكر الجميل ؟ !

والحب كان ولا يزال مصدر إلهام الشعراء وأوله ، والحب العذري الطاهر يفيض بالشعر الحار الطاهر ، كان العصر الأموي في الحجاز عصر الغزل العفيف ، فكان أيضاً عصر الغزلي الخالد العفيف ، . . . ولا أحاول إثبات ذلك باكثر من أبيات قرأتها له في كتاب من مختار شعره الأول يسمى (شعر الوجدان) ، حيث يقول تحت عنوان « عبادة المرأة » :

جـــــودي علي من الحيـــاة بنفحـــة
واستنهضـــــي أمل الشباب البـــــاكي
فالنفس عنـــــدك أصـــلها وبقاؤهـــا
والـــــروح مشـــرقها الغـــرام الذكي
يارحمة اللة القـــدير وعطفـــه
مــــــا شمـــت نور جـــلاله لولاك؟!

أنظر عقيدته في المرأة ، كيف يراها مصدر قوة ، ومظهر نعم الله ، ثم أقرأ ماقرأته تحت عنوان « ميلاد الحبيبة » .

قضـــــى الزمان علينا بالفراق وما
قضـــــى على رحمة من برك الهادي
كأنمـــــا كان تعذيبـــــي وضائقتي
تجـــــارب الحـــب لا موتي وإلحادي
فاستقبـــــلي العام بساماً لنعمتـــه
وغيـــــره راحـــل باك لإبعاد !
كأنمـــــا حســـرتي راحت تودعه
فلــــم تؤب ، وتجلى أنسي البادي !

تر الوفاء على رغم البعاد ، وتشعر بصدق العاطفة ورقة اللهجة .

الى هنا يصح أن أقف برهة بعد ما تيسر لي أن أفهم شيئاً من مزاج الشاعر وشيئاً من قوميته ، وهنا تنقضي في رأيي الحلقة الأولى من حياة الشاعر ، فلننظر فيما بعد ذلك .

(٥)

أما ما بعد ذلك فعجب عجاب ، وفرار من وجد الى وجد بل من عالم صغير الى عالم كبير ، من شخص لنفسه ولقومه الى شخص لنفسه ولقومه وللناس جميعاً . كان خروجه من مصر فراراً من حرقة آلمت صباه ، وجنت — فيما يدعي هو — على شبابه الآمل الباش ، ولكنه كان في رأي الأدب خروجاً من أزقة الدنيا الى ميادينها وشوارعها الكبرى . كان خروجاً من القفص الذي يضطرب فيه شكاية ، الى البستان

الذي يمرح فيه هزجاً صداحاً ليشجي ويشجي الناس ، ولينشر على الحياة حلل الحياة ، وليكون « أبا شادي » !

ليت شعري ، هل علم ذلكم الشاب الشاعر وهو يغادر مصر انه في مصر مهما تنتابه الحظوظ ، وان نفسه جد أسيرة في مصر ، وان وفاءه لوطنه سيطغى على الدنيا العريضة ، وان القلب للحبيب الأول الذي احتل السويداء وملك الشغاف ؟ وداع لاذع حاو وبكاء حكيم ذلك الذي نفثه سحراً أو شعراً ، ونشره حللاً أو زهراً ، حيث يقول قبيل رحيله في أبريل سنة ١٩١٢ :

آن الرحيـــــــل فلا جـــواب لداع
حتـــــى أتم لها مقال وداعي !

وأسطـــــر العهد الذي إن فاتنـــــــي
يــــــوماً رعايتـــــه قصفت يراعي

فـــي العيش أو في الموت ، ما بين المنى
واليــــــأس أذكــــــرها بقلب واع

هكذا يودع مصر ، فلتبتهج مصر باحتراق نفسه ، وليفرح الشعر بعذاب هذه الروح ، وليكن الخير من الشر ، وليظهر الفن وليد الألم !

ليست الثقافة السكسونية الا ثقافة الدنيا ، والا روح العالم ولبه . والا الحرية الكاملة الناضجة ، وإلا سر العالم الذي ملك العالم ، فمن شاء أن يرى الذهن الجبار الذي اشتق من حركة الدهر وصروفه ، وسيطر على مناحي الكون وأسراره ، فليلتمسه هناك عند « جيرة المانش » وليسأل عنه هذا الشاعر الذي نترجمه . . . . في هذا العالم الكبير والدنيا

العريضة ألقى عصاه مزوداً بمصر وعلمها ، بنفسه وذكرياتها ، بهواه وآلامه ، بدنيا شرقية يحملها الى دنيا غربية . . . فهل من الغريب أن نثبت ماهذه الدنيا الجديدة من الأثر في نضوج هذا الشاب ، وتكوين ثقافته الأخيرة ، وإضافة ذخيرة غالية الى ذلك العقل الناهض ؟ في بلاد الانجليز فوق ما ذكرنا من تلك العقلية جمال ريفي ، وجمال طبيعي وآخر صناعي ، وفيها الحركة العلمية التي تنمو بحرية . واسعة ، وفيها الحركة السياسية التي ينبض لها قلب العالم ، وفيها الفنون الأدبية التي خلدها الشعراء والكتاب وفيها كل مضطرب لكل جهد ، وفيها الدنيا فقط !

هبط أبو شادي بلاد الانجليز . ولبث فيها عشر سنين (١٩١٢ . ١٩٢٢) يدرس الطب وفروعه، وينبغ فيما اختص به ، ويؤسس (معهد النحل الدولي (ومجلة (عالم النحل) ، وهو في أثناء ذلك كله يدرس العلوم الغربية العامة ، والآداب الفرنجية ، ويتصل اتصالا عالمياً برجال من أمم شتى حتى كان أشبه شيء بالنحلة التي تنال من كل زهرة شهدها ، ثم تمجه عسلاً صافياً فيه لكل نفس أرب ، ولكل عقل شهية ومطلب . . . لم ينس (مصر) في هذه الفترة ، بل كانت هذه الفترة الحرة التي أتاحت له الصلة بالعالم الحر أدعى الى التعلق بمصر وبحق مصر فيما تحاول من حرية واستقلال ، فكان شعره هناك وجدانياً، وقومياً ، وعالمياً ، تمتزج فيه نفسه ، ومصره ، وعالمه الأخير . ويجب أن نذكر هنا أن أهم طوابع المدنية الحديثة ، إنما هو الإنسانية والعمل للإنسانية ، والاعتراف بها في الأعمال العامة وفي الثمار الأدبية ، تجد ذلك واضحاً في التعاون العالمي ، وفي إنقاذ المنكوبين ، وفي

الإفاضة على البشر بفيض العقل والوجدان ، ولعلك تعرف أيضاً أن الأطباء هم أمسُّ الناس بهذه الفكرة ، وأعمالهم للانسانية في طبهم ، ومن القواعد المأثورة لديهم : « كن طبيباً فقط ، ولا تفكر الا في إنقاذ مريضك » . . . أفلا يكون الطبيب الشاعر إنسانياً في شعره كذلك ؟ وهذه الفكرة تدفع الينا فكرة أخرى لابد من الإلمام بها ، تلك هي علاقة العلم بالأدب ، وانما نلم بها لأن شاعرنا عالجها في دراساته الأدبية وفي دراساته الأدبية وفي قصائده الشعرية ، ودافع عنها أقوى دفاع رآه الناس ، ويظهر لي أن سبب ذلك يرجع الى الناس ، فلقد أحفظوه وضيقوا عليه الخناق ، ناعين عليه تشبثه بالشعر ، داعيه الى الانصراف الى « معمله ومجهره » فذلك أجدى وأولى ! !

والى متى يريد الناس تقطيع أوصال الحياة ، واعتبار نواحيها وحدات منفصلة ليس بينها صلة ومعاضدة ؟ أليست الحياة بجهتيها العلمية والأدبية أشبه تماماً بالانسان جسمه وروحه : كلاهما لازم للآخر يتأثر به ويؤثر فيه ، وان قوة أحدهما قوة الآخر ؟ ما لهؤلاء القوم لا ينصفون الحق ؟ أيقدر أحدهم على الحياة بدون روحه ؟ ألم يكن أكثر الأدباء والشعراء في الشرق والغرب علماء أيضاً ؟ اللهم ان العلم يزيد الأدب قوة وخلوداً ويبعث فيه الحياة القوية ، ويبعد خياله الى أقصى الغايات وأحقها ، وهذا يذكرني بقول (لسبنسر — Spencer) الانجليزي قرأته منذ أن كنت طالباً بالمدرسة معناه : « ماضر الشاعر المفلق أو الكاتب البليغ اذا عرف أن هذا الحجر قد مر عليه كذا من الأعوام حتى تم تكوينه ؟ ألا يكون في ذلك خير كثير لأدبه وشعره ؟ » وأزيد أن الشعر بغير علم يكون أقرب الى الهراء والسخف منه الى

الاعتدال والحق . وقد كان أجهل الشعراء بالعلوم أشدهم سخفاً وهذراً، وأقلهم بضاعة ، وأفقرهم خيالاً ، وأفناهم آثاراً !

نقول إن أبا شادي دافع عن نظريته في غير قصيدة من شعره مثل قصيدة « حياتي أو روح الشاعر » ونحن نذكر هنا شيئاً من قصيدة أخرى (ص ٣٥٦) قالها يخاطب « جمهوره » :

صحبتــــــك عمراً في وفاء ومتعــة
فكنــــــت لفنــي ملهماً ولأفكاري

فكـــــم من بيان لاح لي منك مرشـداً
وكـــــم من معـــان قد وهبت وأسرار

ويــــذهــل قوماً أن يحبــك شاعر
ومـــــا عرفوا فنـــي الدقيق وأشعاري

أرى فيـــــك سر العيش والموت معلنــاً
مــــراراً وآلام الوجــــود بتكرار

ويــــارب خيــط عد جرثوم قــوة
تنـــــاولــت منه الوحي والأمل الساري

فيــــا قوم صفحـــــاً ، لا تعيبوا الذي يرى
وينظـــــــم ما يلقــى بدائــع للقاري!

والى هنا يمكننا أن نقول : ان نهاية اقامته بانجلترة كانت نهاية ثقافة الشباب ، ووضع الأصول العامة للنفس الشاعرة بكل ما في الكلمة من معنى . . . . وهنا ينتهي الدور الثاني من حياة الشاعر .

ثم نعود فنقول : أليست هذه العوامل التي تظاهرت على شاعرية أبي شادي تسمح له أن يكون شاعراً وجدانياً ، ثم شاعراً عالمياً ، وكم في الشعر العالمي من باب ، فانه يسع الطبيعة ، والفلسفة ، والسياسة العامة ، والحكمة ، والنفس الانسانية في شتى مظاهرها الخالدة ، فاذا حدثتك بعد حين أن أبواباً كثيرة تدخل في ديوان (الشفق الباكي) وفي غيره من داواوين الشاعر لم أكن الا مستنبطاً من هذه المقدمات التي سلفت والتي اتفقت معك على تقديمها ، ولكني مضطر في هذا القسم الثالث من حياة هذا الصديق أن أشير الى شيء من شمائله إذ لم أظفر بمعرفته الا في هذا القسم أيضاً ، فاذا حدثك أبو شادي شعرت بوداعة خلقية وتواضع وإنكار للذات الى حد نادر غريب ، ويكون معاك في منزلك فيخجلك بأدبه وظرفه ، ويفي لك ويبالغ في الوفاء ، ويحمل الناس على مشاركته في محبتك وتقديرك، ثم تهجم عليه فيصبر ، ثم يدافعك فاذا به أقوى الناس حجة ، وأمضاهم قلماً ، وأطهرهم حديثاً ، وأبلغهم غرضاً ، ثم أسرعهم صلحاً وتسامحاً ، يحدثك فيأخذ عليك مسالك القول ومنافذه ، ويعترف للناس بكل فضلهم وجهودهم ولو كانوا منه في مواقف عداوة وحسد ، وآية ذلك اعترافه في شعره بالفضل لكل أديب ولكل عالم ولكل مبتكر مبدع أياً كان فنه أو وطنه أو دينه . . . فهو إنساني في ذلك ، يحاول الكمال ويجد فيه ، وهو بعد جريء في التجديد ، سباق خير ، يذيب رأسه وجسمه لتخفيف الويلات مهما ينفق من المال أيضاً . وفي وسعي أن أضع يدك على شواهد ذلك بعد

أن أتم ما بدأت من تلخيص فنونه الشعرية ، ولكن لعلك في غنى عن إرشادي هذا معتمداً على دراستك للشاعر ، ولا أنكر أني حاولت صرفه عن الشعر بعض الشيء ، ففي عمله الذي يحبه ثروة وجاه ، فكان يقول لي : « كأنك تريدني على النزول عن قسم من نفسي ، هذا شيء لا أعمله وانما هو نوع من الراحة ألجأ اليه أو يلجأ هو الي فأقوله ، وسيان عندي أحفظته الدنيا أم فقدته » .

وفي هذا القسم من حياته أكب الدكتور على دراسة الأدب القديم والحديث من عربي وفرنجي ، وعلى دراسة الفلسفة العامة والطب ، ثم ابتلي بما يبتلي به أمثاله من مسؤلية الحياة وصروفها وحسد الناس وغدرهم ، وتهريج الممخرقين المشعوذين فنقم على هؤلاء لا لنفسه وانما لأجل الأدب وفي سبيله ، فاشترك في تلك الحرب الطاحنة التي قامت أخيراً بين المحافظين والمجددين ، وكان منحازاً بكل قواه الى الطائفة الثانية حتى لقد خفت أن يكون متطرفاً .

وقد تسأل نفسك كيف موقف أبي شادي مع معاصرية من الشعراء ؟ نراه يثني عليهم جميعاً مع بعد ما بينهم في المذهب الفني ، وفي مقدار الثقافة ، وفي النزعة الموضوعية والمعنوية . ولكني قلت لك منذ حين إنه يعرف لكل منهم جهوده ، ويقر له بميزاته ، ومن هو ذلك الشاعـــر الذي يخلو مـــن ميزة واحـــدة ؟ أولى بنا أن لا نعرض له . . . ولكنك من جهة ثانية تجد أبا شادي أميل في التفكير الى أمثال مطران ، وشكري ، والعقاد ، وان يكن هذا الميل بدرجات متفاوتة ، وليس من الصعب تفسير ذلك بعد ما قدمنا لك من اعتزازه بالثقافة الحديثة ، والعناية بالمعاني والموضوعات الطريفة التي ينزع اليها هؤلاء .

هناك صفحة أخرى لابد من الاشارة اليها . وهي ما تتصل بالنهضة المصرية الأخيرة إن صح لنا أن نسميها نهضة ، وقد قلت لك أن صلة شاعرنا بهذه النهضة يرجع الى أول حياته بل الى ما قبل حياته أي من ناحية والده وأخواله ، ثم الى تأثره بزعيم الشباب مصطفى كامل ، ثم الى مسايرته الحركة التي قام بها الزعماء المعاصرون وعلى رأسهم سعد زغلول . فهل تصدقني اذا رويت لك أن ديوان (مصريات) لهذا الشاعر وقف على شيء كثير لروح هذه الحركة ، غير الكثير والكثير جداً مما تراه في (الشفق الباكي) ، وغير ما تراه أو تسمع عنه في غيره من شتى مؤلفاته وآثاره الشعرية المطبوعة والمخطوطة ، المحفوظة والمفقودة . .؟

مسكين أبو شادي ! كأنما كتب عليه أن ينهض بالشعر العصري وحده ، وأن ينهض به في أقل زمن ، وأن يرى آثار النهضة ناضجة في رجولته ، وأن يملأ اللغة العربية نظماً بنماذج لخير ما انتجت اللغات الحية ، فتراه يحيط بكل شيء شعري ويحاول نقل روحه الى لغته ، وهي غيرة لا تقل عن غيرته الوطنية ، بل هي جزء منها ، وليس من حقي ولا من الميسور لي أن أنقل لك منها شيئاً ، وانما أدلك فقط وعليك أن تقرأ بنفسك وأن تشركني في هذه الأحكام الكثيرة . ويجب أن نعرف لهذا الشاعر نزعته الوطنية التي يتشبث بها وينتصر لها مهما يؤذ في سبيلها : نادى بها في صباه ثم في بلاد الأنجليز ، ونادى بها في مصر سايرها آخر الأمر ، وكان اداة صالحة للدعوة الدستورية في شعره لا يتحول عن مبدأ ولا يتردد بين شتى المذاهب إرضاء لشهوات شتى ،

وأفراد معروفين ، وهذا يذكرنا ببعض المعاصرين من الشعراء الذين تنقلوا بين المذاهب السياسية ، والاهواء الحزبية فكانوا صورة سيئة من هذا الاضطراب وضعف العقيدة أمام قوة الهوى والشهوة ، وأساءوا الى الأدب والى نزعة السمو النفسي . كذلك نذكر « هيجو — Hugo » الذي نفي في سبيل عقيدته السياسية ومذهبه في الحكم ، ونذكر « بيرون Byron » الذي ساعد يونان في استقلالها ، ونذكر « دانزيو D'A Daunzio » شاعر ايطاليا القومي المعاصر .

(٨)

والآن أشير اشارة عجلى الى بعض الأبواب التي ألم بها في شعره، ما قد عجزت عن الإلمام به في هذه الفصول الموجزة ، ولو حاولت كل شيء أريده لما فرغت هذا العام ، ولما وسعني كتاب في حجم الديوان، فكل أبوابه جديدة ، وكلها في حاجة الى تقديم وتحليل ، وأين أنا من هذا كله في هذا الوقت الضيق والجهد الكليل ؟ !

(١) فأول الأبواب الشعر الغزلي ، ولعله أسبقها الى ذهن الشاعر ولسانه لما قد عرفت من نفحة حب ألمت به في شبابه ، فاذكت قريحته التي فاضت بأول كلمة غزلية ، وليس ذلك بدعاً فلعل الحب من أسبق دواعي الشعر لدى الشبان ، ولعل شاعرا صادقاً لايخلو من حب ، ولكن الشيء البديع هنا أن يتحلل الغزل من هذا السبب الخاص فيصير غزلاً عاماً أو — بعبارة أوضح — يصير غزلاً فلسفياً يعشق الجمال للجمال ، ويتعدى المرأة الواحدة الى أي جمال في أي فتاة . وقد لا تشعر في غزله الآن بحرارة الشباب وصدقه وان كان مستمدا في روحه من ماضي

ذكرياته ، ولكنك تشعر بحرارة الفن وقوته ، وتصوير الجمال وأسراره، وأشير الى القصيدة المعنونة « أمتع الأنس » (ص ١٢٥) التي يقول في مطلعها :

تسائلنـــــي عن أمتـــع الأنس لذة
ومـــــا الأنس حقاً غير إيناس غانيه

وأين الأنس اذا لم يكن مع الغانيات ؟ ! وأي ميزة لهن في الدنيا غير هذه ؟ !

تنازلـــــت طوعاً عن وعود بجنة
لساعة صفــو منك بالحب غاليـــة

وهذا المعنى يعيد الى ذهني قول ديك الجن :

(عــــزت خدي في الثرى لك ساجداً
وعـــــزمت فيك على دخول النار)

ثم انظر اليه يذكر فنون الجمال وألوانه ، وما تمتاز به الحسناء :

جمـــــال وتحنـــان وتيه ورقــة
وعطـــــف وإحيـــاء لاحى أمانيه

ولست أسترسل فالوقت ضيق ، ولكني أذكر أيضاً قصائد أخرى مثل « قلبي الخفوق » و « ليلة صيف » و « نظرات » و « اذكريني » . . . وهكذا تقرأ القصيدة بعنوان غريب لا تعهده في الشعر القديم ، لأن هذا الحديث ذو معنى حديث ، وأعلم أن الغزل كان منذ العصر الأموي حاراً صادقاً حين فرغ له شعراؤه ، ولكني لا أعد أبا شادي شاعراً غزلاً بذلك المعنى القديم الذي يقصر الشاعر على هذا الفن وحده : مثل جميل وعمر بن أبي ربيعة وغيرهما ، ولكنه يتجاوز الغزل الى غيره .

(٢) فلنترك الغزل الى نوع آخر وجداني يعبر عن نزعات خاصة للشاعر كقوله في « قلم الفنان » و « نقد الشعر » و « عتاب صديق » ، و « حق النبوغ » وغيرها وهذه الأبيات جيدة حقاً قالها في موضوع « نقد الشعر » (ص ١٨٢) .

هـــــون عليك فما شعري بمفتقـــر
للمـــــادحين ، وما عتبي لنقادي !

ولـــــن يعيـــب نظيمـــي ذم حاسده
فانمـــــا يزدهـــي في ليل حسادي !

كالنجـــــم في ظلمـــات الليل مشتعلا
والماس في الفحـــــم ، أو كالنبع للبادي !

ولا أعرض لهذا النوع بالتحليل الموضوعي ، فهو من رأي صاحبه ، وأما فنه فبديع .

(٣) وأما وصفه العام فهو فلسفي تحليلي تاريخي فيه خيال جميل رائع . إقرأ قصائده في « إخاء الورود » و « ليلة العرس » و « الطبيب » و « راقصة البار تنون » ، « وغادة البحر » ، « والشاعر المجنون » ، « والكلب التائه » ، و « أبي الهول » حيث يقول (ص ١٩٥) .

لـــــم يفـــن شيب الدهر منك تيقظاً
كلا ، ولا نـــوب الزمان الخـــالي

مـــــرت حوادثه الجســـام روايـــة
وكـــأنمـــا أنـــت الضحوك السالي

تقضـــــي بموت العابثيـــن مباركـــاً
جهـــــد الذيـــــن بنوا بناء رجال

فقد لا يسمي الناس هذا وصفاً ، ولكنه وصف عميق خيالي فيه عبرة وعظة ، فأبو الهول ثابت صاح ، يعبث بالدهر ويستقري حوادثه، ويبارك المجدين .

وأوصيك بقصيدة « الربيع » (ص ٥٧٤) فانك ترى فيها هذين البيتين الجامعين :

عـــاد (الربيـــع) فعاد البشر وانبجست
مـــن (الطبيعة) أنغـــام وألوان !
وازينـــــت هـــذه الدنيـــا لموكبه
كأنمـــا فـــي مجال العرس تزدان

وغير قصيدة « الربيع » قصائده في « الزهرة الذابلة » و « الراقصة» و « البحر » و « الموسيقى » و « المنارة » و « الشيخوخة » و « شم النسيم » و « الشهرة » و « الشلال » ومثلاتها .

(١) واذا ذكرنا شعر الطبيعة فلنذكر معه أن أبا شادي من عشاق (الطبيعة) ، فتن بها في مصر وفي غيرها من الأقطار التي رحل اليها باوربة ، وراعته مشاهدها الجميلة التي تفوف الأرض في فصول السنة . يقف على البحر لا وقفة المفتون بزرقته وسفينه بل وقفة الحكيم الذي يستنبط الحكمة من نواحيه ويشتق أبدع المعاني من مظاهره :

الرعـــد صوتك أم حديث وفاق
قـــد بدلتـــه مرارة الأشـــواق ؟ !
تنـــهد أمواج بعثت ، كـــأنها
للعاشقيـــن مصـــارع العشـــاق

ســـــارت طويــلا في خفاء تارة
وهنيهـــــة ضحكت من الإشراق

واليك قوله في « أوراق الخريف » وهو مختلف القوافي :

هل كان نشرك غير إيذان بعمر قد تقضى ؟!
هل كنت إلا رمز أحلام نفضـــن اليوم نفضاً
مصفرة — شأن الممات — بحمرة تحكي النجيع
فكأنما قتلتك أحكام (الخريف) بلا شفيع !

ومثل ذلك من الإبداع قوله في « الشمس » و « فتاة الريف » و « بسمة الطبيعة » و « جنة النحل » و « عذراء الربيع » وسواها .

وهنا أيضاً أقول إن وصف (الطبيعة) في الأدب العربي ازدهر بالأندلس ، ولكنه لم يمزج بالفلسفة الا أخيراً على يد المعاصرين من شعراء العربية بعد ما ثقفتهم التربية الحديثة .

(٥) وشعره التاريخي حشوه العبر والعظات ، ولا سيما ما يتصل بالدول الزائلة والحوادث الجلى ، والأشخاص النابهين: تجد ذلك في ذكريات « بيتهوفن » موسيقار ألمانية ، وفي « كارثة دمشق » وفي « دار ابن لقمان » ، وفي « آخر بني سراج » الاندلسيين من رواية الكاتب الفرنسي الفيكونت دوشاتو بريان :

كانـــــوا ملوكا منار الشمس رايتهم
حتى تدلــوا اسقط اللهو غافينــــــا
فضيعـــــوا دولة كان الجلال لهـــــا
دينـــــاً ، فلم ينصفوا ملكاً ولا ديناً

حضــارة قــد نماها العلم مــزدهــراً
لــم يزل ضوءها البسام يسبينــا

ومن أمثلة ذلك في الشعر القديم سينية البحتري .

(٦) يأتي الشعر القصصي ، وأنت تعرف أن هذ الباب يعوز الشعر العربي منذ القدم كأخيه التمثيلي ، ويعتبر هذا النوع أول درجات الشعر ظهوراً منذ البداوة ويليه النوع الغنائي ، ومهما يكن من شيء فلهذا الشاعر أقاصيص مستقلة معروفة ، ومن نظمه القصصي في هذا الديوان « الرؤيا » و « مملكة ابليس » ، و « ممنون الفيلسوف » لفولتير ، وهي من الشعر المرسل الذي يمثل الحكمة أو تغيرها وأوهامها وعثراتها الإنسانية بحياة فرد في شكل حادثة خاصة ، وأحيلك على هذا الديوان (ص ٦٢٥) لدراستها ، وأما « تل العمارنة » فيغلب عليها الخيال الجميل :

وقفــــت على الاطلال في الحلم وقفــة
فكانـــــت لي الأمس المحقق لا الحلما
فالفيـــــت نفسي قرب فرعون ماثــلاً
(على النيل) في يخت يشق بنا الميا

وفي الحق ان هذا النوع تهذيبي جليل ، يفيد منه الأطفال والشبان والشيوخ على السواء .

(٧) ولأبي شادي رثاء حار حكيم ، أخصه ما يتعلق بوالده وآله ، وما يرثي به كبار الرجال ونابغيهم : رثى صديقه محمد بك فريد ، وسليم سركيس ، وطانيوس عبده ، وسيد درويش ، وأبا هيف ، ويعقوب صروف وغيرهم ، وله في سعد عدة مراث قيمة نظمت بعد جمع هذا الديوان ، ومن قوله في رثاء فريد بك :

إنهـــض وقل للذكر كيف يكـــون

جهـــــد الكمـــي اذا اعتراه سكون

لا المـــال عز لديك يوم كريهة

كـــلا ، ولا شقت عليك سجون!

فخـــــر كهذا الذكر يخرس عنده

وصـــف ، وما تقضي عليه منون !

ومن قال ان المنية تقضي على الذكرى الماجدة ؟

(٨) ولعلك تعفيني من شرح القومية المصرية فأنت تعرفها كما تعرف حب الشاعر بلاده حتى وقف على نهضتها وآمالها وآلامها شيئاً كثيراً مما أنشد وعمل ، وقد حدثتك منذ حين عن (مصرياته) ولم أحدثك عن (أنين ورنين) وفيه من شعر الوطنية جانب ثمين جدير بعنايتك ، وكذلك كتابه (وطن الفراعنة) وغيرهما . والآن لتقرأ أولى قصائد هذا الديوان المعنونة « النهضة ارادة » وقصائد « الآداب القومية » و « تحية الجامعة » و « ملك النيل » و « البحر الصاخب » و « بيت الأمة » وغيرها ، لتعرف الى أي حد طبعت هذه النهضة في نفسه فأرخها وسايرها الى الأمام يحدوه أمل جميل ولا أقول أمل الواثق من النتيجة .

ومسألة القومية وعلاقتها بالشعر تعد هامة في رأي النقاد المحدثين لتثبت الصلة بين الأدب والحياة . فيكون صورتها وتكون هي معينه الدار . قال في يوم ٢١ نوفمبر سنة ١٩٢٥ م . وهو يوم « الوحدة الوطنية » ، يوم اتحاد الأحزاب المصرية :

يـــا يوم قد بعثــت بك الأحـــلام
فليبـــق ذكـــرك للفخار يـــرام
مـــرحى لوحيــك ناشراً آمالنـــا
مـــن بعـــد ما قبر الرجاء ظـــلام
متنـــا ضحايا الوهـــم يقتل بعضنـــا
بعضـــاً ، وتضحك حولنـــا الأيـــام

نعم ! وكم ضحكت منا الأيام لما تهارشت أحزابنا وفرغ بعضنا لبعض ، تاركين المسألة المصرية وراءنا حتى نلناشر النتائج التي نعالجها الآن . . . . .

(٩) باب هام ذلك الذي أعرض له الآن ، وهو الشعر العالمي الخالد الذي تقرؤه كل نفس في أي قطر فترتاح اليه ، لانها تقرأ صورة النفس الانسانية في شيء من نزعاتها ومظاهرها ، فاذا كان للشعر الوجداني قيمته في نفس صاحبه ، وللقومي منزلته الوطنية الموضعية ، فان للشعر الانساني منزلة كبرى تشترك في تقديرها شتى الشعوب والأجناس . ولأمر ما تقرأ الأمم المثقفة جمعاء أبا العلاء المعري ، والخيام ، والفردوسي ، وتاجور ، ودانتي ، وهومر ، وشكسبير ، وملتون ، وجيتا ؟ أليس السبب في ذلك أن هؤلاء الشعراء سموا بنفوسهم العظيمة على طبقة أو قبيل أو عاطفة خاصة ، ثم ارتفعوا الى سمواتهم الشعرية وتحدثوا الى الانسان المعنوي الذي يتفرق معناه في كل ذهن بشري ، فاطمأن اليهم كل ذهن بشري ؟ أليس سبب ذلك أنهم تخطوا الدهر الى أبعد غاياته ، ورجعوا به الى أقصى ماضيه وعرضوه في فنهم صورة قوية خالدة ؟ أليس سبب ذلك أنهم أنكروا المكان الخاص حين عرفوا

المكان العام ، فصار الكون كله دارتهم يضطربون فيه ويصورون جوانبه ، حتى صار شعرهم محبوباً لكل نفس لأنه مشتق من كل نفس ؟ ولنعلم أن هذا النوع من الشعر العالمي له فنون شتى فهو صوفي مرة ، وفلسفي تارة ، وفني حيناً وانساني طوراً ، ولسنا الآن بعرض الشرح والاطالة ، وحسبك أن تلاحظ ما قدمنا من أن خلاصة هذه الفنون راجعة الى الانسان من حيث هو إنسان ، له آمال وشعور وفكر تسيطر على الحياة وتتنزه عن صغائرها التافهة ، وحسبك أن تقرأ في هذا الديوان شيئاً من هذه الفنون لتعرفها من جهة واتعرف الى أي حد تغلغل فيها صاحب الديوان — الذي لم يفته أن ينظم في هذا الباب من قبل عبرتيه (أخناتون) و (الآلهة) — فقال ما بين مقطوعات وقصائد في « علة الدهر » ، و « الشكوك » و « العظمة » ، و « ضمير الخالق » ، « القيامة » و « المجهر » و « الفنان » و « الانسانية » ، وعدا ذلك شيئاً كثير وهذا شيء من قوله في « السعادة وفلسفة سقراط » :

(أمـــا (السعـــادة) عنـــدي

فلـــــذة مستعـــادة

قالـــوا (القنـــاعة) منهـــا

لهـــا دواع وقـــاده

العـــامـــلـــون لخيـــر

المبتغـــون الإجـــاده

الى آخر هذه القصيدة المستملحة .

وخير لي ولك أن تقرأ بنفسك ، فأبو شادي سخي جد السخاء في هذا الباب لا يشاركه فيه شاعر بمثل هذه الثروة .

(١٠) وأنت واجد بعد هذا نوعاً آخر يسميه النقاد « الشعر الغنائي Lyrical Poetry » يندرج تحته مثل « البعث القاتل » و « الاطلال » و « الجريح المنسي » و « غناء الحياة » و « جنتي » و « توبة الحب » هذا غير صور أخرى شتى في غضون الديوان .

(٩)

لا يظن القاريء أني أطلت ، فما علي عتب ، وانما العتب الأول على صاحب هذا الديوان الكبير ، ولا يظن اني أردت حصر أبواب الديوان فذلك عسير ، ولا يظن أن ماذكرته كل أبواب الشعر ، فالشعر في جزئياته لا يحصى ، ولكنها أغلب أبوابه ، وان كان يجمعها القصص والغناء والتمثيل .. غير أني حاولت بيان الجهد العظيم الذي حمله الشاعر ليجدد في الأدب العربي وليجعل الشعر صورة من الأدب العالي لا يقل في جميع نواحيه عن الشعر الفرنجي ، وقد كان عهدنا بالشعر بالشعر العربي مدحاً وهجاء ، ووصفا ورثاء ، وغزلاً ونسيباً ، فاذا به فلسفة وقصص ، وإذا به فن يسيطر على مظاهر الحياة وقوى النفس ، واذ به دنيا عريضة ! هكذا رأينا ، ورأينا أمراً آخر قد لا يعجب المحافظين أنصار المدرسة القديمة ، ذلك هو حرية التعبير النظمي ، فله « شعر مرسل» ، Blank Verse وله « شعر حر — Free Verse متداخل الأوزان ، وله مجارات جديدة وألفاظ وتعابير جريئة مستحدثة تجد ذلك في قصيدة « الفنان » وقصيدة « نقطة دم » وقصيدة « الرؤيا» وسواها . وهذه المسألة في الواقع تعود بنا الى بحث آخر فصلناه في غير هذا المكان ، هو البحث في حقيقة الشعر ؛ ولعلك تذكر ما قدمنا لك أول هذه الفصول من أن الشعر هو الكلام الجامع بين الحقيقة والخيال ، وأما مسألة الوزن فهي — على جمالها — تعد في الدرجة الثانية ، حتى

لاعد النثر الجميل شعراً أيضاً ، وهذا المذهب يوافق رأي المناطقة في تعريف الشعر ، وعليه لا أرى حرجاً في الشعر المرسل بل المنثور كما لا أرى مانعاً من تداخل الأوزان أو تغيير القافية في القصيدة الواحدة ، وليس هذا هدماً بل هو بناء وتوسيع لهذا الضرب من الشعر ، ليسهل على الشعراء شرح عواطفهم ، ونزعات نفوسهم وما يشعرون، حسب المواقف ولا سيما في الشعر القصصي وفي الشعر التمثيلي

وبهذه المناسبة اشير إلى أن شاعرنا يعني بالموضوع والمعنى اكثر من عنايته باللفظ ، فهو يحيط بعدة موضوعات ، كما يحاول الإلمام بشتى المعاني ، ثم يخضع اللفظ لذلك كله ، حتى اخذ عليه بعض الناس ليان الأسلوب وفقده الجزالة، ولكن ماذا يبغي هؤلاء من شاعر عصري يكتب للشعب العصري ؟ هل يريدونه على الرجوع الى الوراء ليعيد لنا عمراً فانياً من عصور اللغة ؟ ! اليس الأنسب أن يتحدث الشاعر الى الناس بما يفهمون من الأسلوب حتى يستطيع إيصال معانيه اليهم ؟ على أن شيئاً كثيراً من شعره لا يقل جزالة عن شعر النابهين من شعراء العربية قديماً وحديثاً . وبعد ، فهل تحبون أن يحتمي مثل كثيرين من الشعراء بالألفاظ فراراً من المعنى الواضح والموضوع القيم ؟ !

وناحية أخرى اعرفها للدكتور أبي شادي ، ولعلها كبرى المسائل، فلقد أعرفه مؤلفاً و واضعاً للروايات التمثيلية الغنائية شعراً ، واعرفه في ذلك اشد سخاء ، واسبق الشعراء الى الفتح في هذا الباب والمضيء فيه اشواطاً بعيدة ، واذكر أني فصلت هذه النقطة في تعقيبي على (بنت الصحراء) إحدى عبراته (مرادفة أوبرات في رأي الأب الكرملي صاحب « لغة العرب ») ، ومع هذا فمن الحق القول أنه فذ في هذه

الجهة ، وان لم يتم له تمثيل إحداها للآن ، . . . فليكن سبب ذلك أي سبب ، ولكن التاريخ سيكتب له فضل السبق وفتح هذا الباب في الشعر العربي بجرأة واقدام ، كما يثبت له كثرة الآثار وسهولة الأثمار .

(١٠)

أريد أن أختم هذه الفصول ، فلأختمها بهذا الأسلوب الذي يعمد إليه مؤرخو الآداب من إجمال ما يفصلون ، والاشارة الى ما يناسب الموضوع ويتصل به ، فأقول : إن شاعرنا تيسرت له وراثة جليلة ، ونشأة حرة ناتجة ، وتعليم مصري قومي ، وثقافة عالمية قوية ، وصناعة علمية دقيقة ، وبيئة حية صاخبة بالآداب والصحافة والسياسة والنهضة ، فخلقت منه شاعراً اجتماعياً فلسفياً وجدانياً عالمياً غزير الفيض سريع الإلهام .

ولأذكر هنا من معاصريه : شوقي وحافظ ومطران ، وشكري والعقاد والمازني ، والجارم وعبد المطلب والزهاوي ، وأنا اعترف لكل واحد من هؤلاء بميزاته الفنية سواء في لفظه ومعانيه وموضوعه ، فأعرف لبعضهم جلال اللفظ وعظمته ، وقوة المعنى وروعته ، وأعرف لآخر محاولات حسنة في التجديد الموضوعي والخيالي ، وأعرف لآخرين رقة وقوة أسر وروح ، وأعرف لأبي شادي التجديد الكثير ، والشعر التمثيلي ، والسهولة اللفظية ، وكثرة الفنون الشعرية ، ولا تظن أني أزيد فأوازن وأفاضل ، فليس هذا موضعه الزماني أو المكاني ، وحسبي الاشارة الى ميزات هذه الطبقة .

ولكني أريد أن أختم هذه الفصول . . . فبماذا ؟ بأن أعرض عليك الأسئلة التي عرضتها على نفسي منذ بدأت : هل تيسر لأبي شادي أن يكون شاعراً عالمياً ؟ وهل تمكن أبو شادي أن يكون شاعراً قومياً ؟ وهل هو شاعر وجداني . . . ؟

أحمد الشايب

السقراطيــة

هل هي جائزة في الشعر ؟

بقلم الناقد القدير الأستاذ محمد سعيد ابراهيم
سكرتير (رابطة الأدب الجديد)

عرض لي وأنا أقرأ ديوان (الشفق الباكي) أن أجعل لصاحبه اسماً يدل عليه وعلى شعره ، لان الأسماء المتخيرة والنعوت الموجزة اذا نفذت الى لباب المسميات لم يكن أقوى منها على الابانة عما وضعت له . وبعد مارجح لدي وقع هذا الخاطر لم يطل بي مدى البحث عن الأسم المقصود اذ سرعان ما وجدت بغيتي في شخص سقراط الفيلسوف ورأيت عن يقين ان أبا شادي شاعر سقراطي .

وقد يكون من الغرابة بمكان أن تجر رجل سقراط الى ميدان الشعر في حين أن الرجل لم يكن يعبأ به ، بل كان أضحوكة شاعر زمانه أريستوفانيز ، وكان ميلتيس الشاعر أحد الذين أقاموا عليه الدعوى التي أدت الى مقتله الشنيع . ورجل هذه صلته بالشعر والشعراء — ان كانت صلة الخصومة والزراية به صلة — يستغرب جعله مضرب المثل بين الشعراء وتنصيبه مثالا يقتدى به ، لولا أن لهذا الديوان صفة فذة

فذة تحكم وجوه الشبه بينه وبين مذهب سقراط . وشخصية سقراط — رغم قدمها في التاريخ — لاتخفى على الكثيرين ، وقليل من لا يعرف هيئته الضخمة وعينيه الجاحظتين وأنفه الأفطس ، ومشيته وهو حاف في الأسواق وتحدثه الى الناس في خلقه الناصح الطيب ، ودعواه الجهل مع محدثيه ، وأخذهم بمنطقة القوي في مسائل المعرفة والواجبات المدنية والفضائل ، وكل ما قد يخطر بأذهان أهل عصره — هذه الروح السقراطية في التفلسف هي موضع التسمية التي وضعناها لهذا الديوان. وسآخذ في تبيين مواضع التشابه في الناحيتين ، وبهذه الطريقة تنكشف دخائل الدوافع التي يصدر عنها شعر أبي شادي .

أبو شادي شاعر يحترف الطب ، وقد أرصد له كثيراً من وقته ، واستنفد فيه شطراً كبيراً من جهده وعنايته ، وأمكنه أن يجد في مزاولة هذا العمل العلمي لذة قد يستنكرها البعض على شاعر ؛ وهو لهذا متأثر بالأسلوب العلمي في تفكيره ، وأثر هذا الأسلوب متغلغل في قرارة نفسه ، سار فيما يكتب من نثر ونظم عن قصد وغير قصد ، حتى أنه ليس ينمحي في تصوفه ، فتراه في قصيدة « أقصى الظنون » (ص ٣٠٠) واضح منهج التفكير لا يشوبه إبهام المتصوفين المألوف . أما أمثلة الأسلوب العلمي المبثوثة في ديوانه فكثيرة : خذ مثلا قصيدة « واجب الفن » (ص ١٧٨) لترى كيف يتحرى التحديد في أفكاره ، وأحرى بأن تقرأ تلك الحدود الفنية التي يقيمها للشعر في كتاب نقد لافي ديوان شاعر ، لأن الحقائق العلمية اذا جاءت على يد شاعر أصابها من الضعف والرثاثة ما يصيب الشعر من السقم والفتور . وكثيراً ما حدثني أبو شادي عن محاولته أن يهضم شعره العلم ، وكنت أجادله في عقم

هذه المحاولة التي لا يخشى منها الا على الشعر الذي لابد أن يهضم حقه ويصبح آلة عرجاء في خدمة العلم . فالذي أراه هو أن الشعر والفلسفة والعلم مراتب متفاوتة في ادراك الحياة وتصورها ، تختلف من حيث الابهام والوضوح ، ولكل منها حدودها التي وإن كانت متداخلة غير حاسمة الا انه يمكننا أن ندرك متى يتجاوز واحد منها حدوده ، ومتى يخرج الشعر مثلا عن طريقه فيصير فلسفة أو علماً . وقد أدخل في روع أبي شادي أن الشعر سيصيب خيراً من صحبته للعلم ، وغاب عنه أن لذة الشعر في أن يبقى حيث هو اساساً للحس والعاطفة . وهذا وجه من وجوه النزعة السقراطية التي لا تجد اللذة الا حيث توجد الحقيقة العلمية سافرة لا غموض فيها . وها هو وجه آخر لسقراطيته أشد خطراً على الشعر مضيع لحرارته ونضارته ، وهو أذيع الصفات السقراطية وأفشاها في شعر أبي شادي : وهو الروح الخلقية التي تغشاه من رأسه لقدمه ، فانك ان لم تجد ذكر الفضائل في قصيدة من قصائده فلن تخطيء معناها أو مغزاها بين الألفاظ والسطور ، وكثيراً ما يذكر الأعراض والفجور والشرف والعفة كما يذكرها أهل التقوى والصلاح ، ومن أمثلة ذلك ما يرى في « فتاة الريف » (ص ٣٥٣) و « فتاة العصر » (ص ٤٢٨) و « وفاء المدين » (ص ٥٤١) و « بأمر الحاكم بأمره » (ص ٤٠٢) و « مملكة ابليس » (ص ١٠٢٣) ونحوها كثير .

والسبب في ذلك أن أبا شادي ينظر الى الحياة نظرة خلقية تقليدية مستمدة من خلقه الموروث وعيشته البريئة الطاهرة التي لم يشبها استهتار باللذة ، ولا استرسال في دفعات الشباب الحارة ، وهو يرى أن شعره يجب أن يكون وسيلة من وسائل الاصلاح الاجتماعي ويذكر ذلك في

جلاء في مقالة « الشعر والشاعر » (ص ٤٣) ، إذ يقول : « ان أسمى ما بلغه الشعر أخيراً من غرض انما هو درس الحياة وتحليلها وبحثها واذاعة خيرها ومكافحة شرها ، وهو غرض نبيل جامع وان تكيف بصور شتى ، فقد ظهر في لباس الانسانية العامة أو في لباس الجامعة القومية والجامعة الدينية أو غير ذلك . ومن المعقول أن يجمع بين لباسين فأكثر ، وأن يوفق ما بين تناقضها الموهوم ، وأن يكون رسول السلام ونصير الاصلاح والنهوض . هذا هو الغرض الذي بلغه الشعر عامة في جيلنا الحاضر في أرقى مواطنه » . فهو يعترف هنا ان هذه الاغراض التي يتوخاها الشعر جديدة طارئة عليه في عصرنا وهذا حق ، لأن هذا المذهب لم يعرف لشاعر من كبار الشعراء التاريخيين . ثم يتحدث في بقية المقال عن مسئولية الشاعر العامة وأعبائها وعن أساليب الدعوة ، وهذا البرنامج الذي قد يصلح لرئيس وزارة أو مصلح اجتماعي لا يجوز بحال من الأحوال – بدعوى الغيرة على الأخلاق – أن يكون برنامج شاعر . ونحمد الله على أن لمثل هذه الدعوات أناساً أقوم بها من الشعراء لينصرفوا الى ما هيئوا له . وأنا أرجع هذه النزعة السقراطية الى البيئة الأدبية التي عاش فيها أبو شادي في انجلترا ، وأعرف ان اعجابه بالكاتب الانجليزي « ولز » هو الذي أوقعه في أحابيل هذه المسائل النثرية ، بعد ان استهوته مشاريعه العمرانية الخرافية ، واني اسائل من لا يزال في قلبه خلجة شك في تعارض هذهالمسائل مع الشعر وافسادها له أن يدلني على شاعر أجمع على عظمته قد تناول مثل هذه المشاكل ، وأن يريني شاعراً حديثاً أو قديماً قد استقام له أمر الشعر في مثل هذا الكلام . وقد كان تولستوي امام مذهب خلقي من هذا

القبيل في الفن أفرد له كتابه المسمى (ما هو الفن) كتبه في شيخوخته ، وأحط مستوى من باقي تاليفه . وقد قلنا إن أبا شادي مدفوع في هذا المذهب بأثر مزاجه الوراثي وتذكية « ولز » لهذا المزاج ، ثم بأثر البيئة الصحفية التي نشأ فيها فقد كان في شبابه منذ عشرين سنة يكتب في جريدة (الظاهر) المقالات الحارة في السياسة الاجتماعية في ابان الحركة التي قام بها مصطفى كامل ، وظل بعد أن أقام في انجلترا متصلا بأصحاب الدعوات السياسية فصحب فريد بك في بعض سفراته في أوروبا وروج للقضية المصرية في بعض الأوساط الانجليزية حتى كتب اسمه في سجل المشاغبين السياسيين ، وسعى أيضاً في ايجاد ناد مصري في لندن ، فهو لهذا لا يفتأ يمزج الشعر بالسياسة والمسائل الاجتماعية ويتخذه منبراً للوعظ والتهذيب حتى خلق لنفسه نقاداً كثيرين لم يألفوا هذه النغمة بين الشعراء .

واذا كان الحض على التفاؤل ومحاربة الشرور من أشرف الغايات التي يدعو اليها انسان فان الشعراء يجب أن يكونوا آخر من يدعو للملك صراحة في شعرهم ، فكفاهم أن يشعروا العالم بلذة التعبير الفني عما في الحياة ، تاركين للوعاظ والمصلحين وظيفة الوعظ المملولة الكريهة . ويتصور الشاعر الخلقي ان الحياة قد أصبحت يوماً فاذا الابالسة قدارتحلت عنها وحملت معها شرور الدنيا وآثامها ،وأصبح الخير حاكم الدنيا الاوحد لاينازعه فيها منازع ، وجاء الشاعر يرسم ظلال هذه الدنيا الموهومة الباهتة : فأي شعر سوف ينشده ، وأية حرقة شوق سيثيرها ، أو فرحة قلب مصدوع يختلج بها شعره ،أو أمل سيبقى يذكره اذا كان الحال كما يتصور من الاستقرار المميت ؟ !

ولو ان فحول الشعراء الذين خلدت اسماؤهم كانوا وعاظاً ودعاة اصلاح لما ابيح لنا أن نستمتع بأثر فني واحد . ولا داعي لان نقيم الحجة على فساد خلط الشعر بالأخلاق ، فإن هذا يعد في عصرنا من الأمور المقطوع بصوابها ، ومحاولة الخوض فيها تطول .

ومن خواص الروح السقراطية اعتقادها ان الفضيلة مبعثها المعرفة ، أو انها المعرفة ذاتها ، وأنها موصلة للسعادة ، وأنه لاخير الا ما أتت به وأن الناس لا يأتون شراً إلا لجهلهم . وهذا ما نرى واضحاً في قصيدة « لانسانية » (ص ٣٩٥) التي يقول فيها :

مـــا زلــت سابحــة بتيــار الدم
فتنبهـــــي مـــن قبل أن تتهـــدمي
وتعلمـــــي سر النجـــاة وحققي
معنـــــى الحياة بحكمـــة المتعلم
مـــــرت ملاييـــن السنين فهل كفــت
لتفهـــم الدنيـــا ونفض توهـــم؟

فهو يذكر هنا مر الأجيال من غير أن ينفض الناس أوهامهم ويفهموها على وجهها الصحيح ، كأن سعادة الإنسانية ورخاءها مسألة معلقة على نفض الأوهام والوقوف على أسرار الحقائق ، ان كان في الدنيا حقائق ثابتة . والسقراطيون متفائلون لأنهم يؤمنون بمقدم ذلك العصر الذهبي الموعود الذي سوف تنفض الانسانية عنها مصائبها فيه وتستقر ويرفرف على ربوعها السلام . على ان التفاؤل في توقع هذا الحلم اللذيذ يكفي لاطارته عن جفونهم أن يفتحوا عيونهم على الواقع ، ليروا ان العالم لم ينقص صولة الأثم مقدار ذرة ، وأنه لمن الصواب أن

توهن سند هذا الضرب من التفاؤل ، وأن تجنب الشعر طريقه ، وخير لنا أن نسيغ الحياة على انها ظاهرة فنية جميلة يمتزج فيها الخير بالشر امتزاجاً لا يشوبه نقص ، من أن نعدها ظاهرة خلقية ترى الخير فيها على الدوام يصارعه الشر ، فلا هو بقادر أن يصرعه وينئيه عنها ولا هو راض أن يشاطره الحياة ، ونقف نحن ازاء هذه المعركة نبكي الخير المغلوب على أمره في كل زمان ومكان .

وتفاؤل أبي شادي هذا قد صرفه عن تصور الجوانب المظلمة من الحياة ، لأنه يعتقد ان رسم جوانبها المشرقة بلسم يأسو جراح الناس ، فهو يقدم لهم ما يستطبون به من غلو الشعراء المتشائمين في عبوستهم وتشويههم وجه الحياة . وهو لذلك يرينا الحياة على نحو فاتر قد اقفر من الأسى والألم ومن ضروب المكارة والمصائب . وأحرى بمن عرف الدنيا على هذه الصورة الباهتة أن يعروه اليأس اذا التقى بوجهها العابس وواقعها الملموس .

فهذه الصورة التي يحاول أن يموهها الشاعر اشفاقاً على الناس تؤدي كما ترى إلى عكس المقصود منها ، فضلا عما فيها من النقص في التصوير . وان من أكبر ما آخذه على أبي شادي حقاً ويشعر به كل من يقرأ أن تنعدم في شعره روح المأساة التي يجاهد أن يخفيها في نفسه اذا عبر عنها ، فهو يكتّم أحزانه ويأسو جراح قلبه من غير أن يظهر لنا أثر" في شعره ، ظاناً أن تكشف الرجل أو الشاعر عن أحزانه ضعف لايحسن القول فيه ، ولايجمل بالرجل الجليد أن يسترسل فيه . وهو قد انضب في نفسه بهذا المسلك ينبوعاً حاراً من الشعر كان الاولى أن يترك على سجيته في الجريان . وإذا كان أبو شادي في

حاجة إلى دليل على ما في روح المأساة من ذخر لطبيعة الروح ، فلينظر في أثر المآسي اليونانية على شاهديها ، وهل كانت تلين صلابة العزائم أم كانت تصفيها من أوشابها وتسمو بها إلى شأو من العظمة يدنيها من الأرباب .

هذه هي المواضع التي تبدو لي من سقراطية أبي شادي ، وهي كما ترى مضعفة لروح الشعر ولو انها جميلة بنفس صاحبها ، وهي روح أولى أن يتصف بها علم العلماء ونقد الناقدين . وشعره لاتتجلى فيه الروعة والحرارة الا حيث ينسى هذه النزعة الخلقية ويتخلص قليلا من وثاقها ، وينضو عن نفسه مسوح الصلاح التقاة . فمتى وجدت أبا شادي يدفع عن نفسه طائلة ناقد أو لائمة لائم على مثال ما يرى في قصائد « نقد الشعر » (ص ٨٢) والطبيب (ص ١٩٧) وحياتي » (ص ٤٦٥) ، أو حيث يخرج عما ألفه فيكشف عن عن ألمه وحزنه كما ترى في قصائد « جزائي » (ص ٤٣٤) و « توبة الحب » (ص ٤٤٩) و « صحبة الالام » (ص ٤٥١) فهناك تجد أبا شادي ناصع البيان حار الاسلوب .

وقد اتخذت سقراط وفلسفته فيما كتبت عن أبي شادي مجرد وسيلة لأبين مآخذي عليه كشاعر لا على الفلسفة السقراطية ، وحشرته في زمرة السقراطيين لا لأن السقراطية مذهب خاص يتبع في الشعر ، وانما كان ذلك سعياً في إخراجه من زمرتهم ، لان السقراطية نزعة علمية خلقية لاتتفق مع روح الشعر مطلقاً .

واجتزأت أيضاً في جوهر (الشفق الباكي) ومراميه ، ولم اكتب شيئاً عن أسلوبه اللغوي ومادته ، ولم أقف ككثير من النقاد

أمام كل بيت من الشعر لأقول هنا أجاد الشاعر وهنا أخطأ ، وهناك ضرورة التزمت أو خبنة لحقت بهذا البيت أو ذاك ، إلى آخر ما هنالك من ضروب المآخذ اللغوية والعروضية التي قد يتورط فيها الشاعر ، كأن عمل الناقد أن يعقب على كل كلمة بكلمة ، وكأن ديوان الشعر كراسة تلميذ لانجري فيها الا مباضع النحو والعروض ! ! وإني أترك هذا لفقهاء اللغة الذين جعلوا هذا العمل ديدنهم في الشعر ، وأعيذ القارىء من ملال هذا الاستعراض الذي تغثي منه نفسه ، والذي اتخذه المشايخ في السنين الاخيرة بضاعة لهم ، عوضاً عن الفتاوي الشرعية التي بارت تجارتها وعفى عليها الزمان ! ولكن لي كلمة قصيرة في أسلوب الديوان لابأس من إيرادها : فأنا أعرف أن أبا شادي يتوخى في الأسلوب ما يدعوه تمصيراً للغة ازاء من ذهبوا إلى الباس اللغة ثوب الاستعراب والبداوة ، وهو متأثر في هذا إلى حد بمطران . فاذا كان مطران نفسه يأخذ عليه شاعر كحافظ شيئاً من الضعف في الأسلوب فما بالك بمن يجري خلفه في هذا السبيل ؟ ولذلك لم يسلم أبو شادي من اتهام الكثيرين له بضعف الاسلوب . ويمكننا الردّ على دعوى تمصير اللغة بالاشارة إلى أساليب نوابغ شعراء العرب الذين لايزال شعرهم يروى للآن ويستعذب ، ولانجد فيه ما يتنافى مع تذوق المعاصرين للاساليب اللغوية ، واننا لانعدو الصواب اذا قلنا إنّ الاسلوب العربي القويّ البليغ بليغٌ في كل زمان ومكان .

وبعد ، فان لسقراطية أبي شادي وغيرته على الحق واحلاله من

نفسه محلا يؤثره على اطراء الأصدقاء له دليلاً أخيراً يلمسه من يقرأ هذه الكلمة التي أبى عليّ الا أن أسجلها في ديوانه !

وليس يخاف بعد ذلك ان رأيي هذا في أبي شادي ليس آخر ما يقال فيه ، فسوف يعتّريه التغير الذي يغير كلّ شيء ، وسوف يغير من صاحب الديوان ومن مذهبه في الشعر . (والشفق الباكي) لم يزد أغلبه على كونه ثمرة ما يقرب من سنتين من حياة في الأدب والشعر لايزال هو في مطالعها ، والأيام المقبلة تدخر له الشيء الكثير .

محمد سعيد ابراهيم

لما سئل سقراط الى أي مملكة ينتسب اجاب : « الى العالم ، وذلك لأنه كان يعتبر نفسه مستوطناً العالم بأسره واحد ابنائه .

عن (سيسيرو – Cicero)
الخطيب الفيلسوف الروماني

للادب غايات غير التسلية المأمونة للرجال الكسالى الواهنين . »

عن (كارليل – Carlyle)

« يمثل الأدب الذهن الذي هو دائم التقدم ، حينما تمثل الحكومة النظام الذي هو دائم الثبات .

(بكل – Buckle)
الأديب المؤرخ الا نجليزي العظيم

شعر التسامي

للكاتب العبقري المتفنن الاستاذ سلامة موسى

أخي الاستاذ أحمد زكي أبو شادي

أرسلت إليّ « **الشفق الباكي** » ودعوتني إلى أن أخبرك عن رأيي فيه . وأنت تعرف أني لست شاعراً ، لم أنظم بيتاً قط ، ولكنك تستند بالطبع إلى أني أديبٌ وأن الشعر أصيلٌ في نفس الأديب ، وان الشاعرية بل الايقاع نفسه يتضح في النثر الجيّد والاسلوب الرّصين ، وكلنا مع ذلك ينتقد الصورة ولو لم يكن رسّاماً . وقد نشأت على أن أتذوق القليل من الشعر العربي بل أني لا أكتمك كراهتي لملوك الشعر العربي كالمتنبي وأضرابه ، وحبي لصعاليكه كأبي نواس والبها زهير ، وقد ملت إلى الشعر الاوروبي وخاصة الانجليزي الذي لا أظن أنّ في العالم شعراً يساويه ولا أقول يسمو عليه . وما ذلك الا لأن لفظة « الشاعر » عند الاوروبيين تعني العامل المبتكر ، وهي عند العرب تعني المغنّي لأن « الشعر » مشتق من « شير » العبرانية بمعنى الغناء . ومن هنا صار من تقاليد الأدب عند العرب أن يقصر الشاعر مجهوده على الزخرفة اللفظية ، بينما هو يخترع ويبتكر عند الاوروبيين . وأي شيء أدلّ على الابتكار من الدرامة التي عرفها الاوروبي وجهلها العربي ؟ !

ولست أستقل شأن الايقاع والغناء والزخرفة اللفظية في الشعر، فإني أكاد لا أعرف ميزة أخرى للبها زهير ، ولكني وأنا أقرؤه أشعر أني ألهو كما أظن أن هذا كان شعوره عندما كان ينظم . ولكني عند ما أقرأ شعراً أوروبياً وخاصةً انجليزياً أشعر أني أعالج مع الشاعر موضوعاً سامياً لا مجال فيه للهو اذ هو عين الجد . واذا كنت ألتذّ ما فيه من ايقاع فأنما تعود هذه اللذة إلى زيادة الشعور بالجد ، وما في موضوع القصيدة من خطر . وقد يتوهم الانسان من وقار المتنبي وقوته على الاداء أنه جادّ لايلهو ، ولكنّ الواقع أنه أكثر الشعراء جداً في اللهو . وأيّ لهوٍ أكبر من أن يضيّع الشاعر وقته وعبقريته في مدح الامراء وهجوهم ؟ !

وقد ورثنا نحن هذا التراث عن شعراء العرب ، فنشأ شعرؤنا في نهضتنا الحديثة على احتذائهم في الاسلوب والغاية ، وفي الاكبار من شأن الصنعة اللفظية . بل نحن ما زلنا في النثر نتحرى اللفظة الرشيقة والعبارة المنمّقة ولو كان فيها التضحية بالمعنى ، أو ضياع وقت القارىء فيما لايفيده . ومع أنّ كثيرين من كتابنا يدعون كراهة السجع ، فانك تراهم من وقت لآخر وفي طيّات عباراتهم يخالسون القارىء ويدسون له سجعة قد انطوت على مترادفات يعرفون هم أنه لافائدة منها للقارىء وأنه لايدفعهم اليها سوى التقليد ! وأكاد أقول إن المحسنات اللفظية والاغراق في الصنعة والنزوع إلى تأليف النغم كل هذه خصال تكاد تكون أصيلة في اللغة العربية ، وهي من البواعث المثبطة في التأليف عندنا ، لأن المؤلف الذي يعرف موضوعه وقد حذقه درساً وبحثاً يخشى الاستهداف للنقد ، لأنه يظن أن عجزه عن

الصنعة اللفظية سيعاب عليه ، وان هذه الصنعة ستحتاج منه إلى مجهود كبير ، فهو لذلك يحجم عن التأليف !

ومما يدلك على الاكبار من شأن الصنعة عندنا أن في البلاد الآن حزبين كبيرين يتنازعان السلطة أحدهما « الوفد » والمحرر الظاهر في صحيفته هو العقاد ، والثاني هو حزب « الأحرار الدستوريين » والمحرر الظاهر في صحيفته الآن هو المازني وكلاهما كاتب صنعة بضاعته تنميق الألفاظ وتزويق العبارات ، أما الدرس والثقافة فلا قيمة لهما عندهما . فلاتشك بعد ذلك في أن جمهور الامة يحب الصنّعة من الناثر ، أما حبه لها من الشاعر فواضحٌ في جميع شعرائنا الظاهرين .

وعلى هذا سأتنبأ لك منذ الآن بأنّ الناقدين سيعيبون عليك قلة عنايتك بالصنعة ، وبأن ألفاظك عاميّة غير شعرية ! أما مقاصدك العليا وعناياتك السامية فسيضربون عنهاً صفحاً ، وذلك لأننّا على الرغم من صيحات التجديد التي تتكرر أمامنا ما نزال نعيش من حيث الأدب في القرون الوسطى . ومعظمنا إلى حدٍ ما أزهريّ يقول بالنقل دون العقل ، وكما يكره « الاجتهاد » في الدين كذلك يكرهه في الأدب ، وكما أن البدعة ضلالة في الدين كذلك هي ضلالة في الأدب !

أما أنا فقد انطلقت من القرون الوسطى وصرت لا أجد النجاة الا في البدعة ، وهذا ما جعلني أنتبه إلى شعرك وأتوسم فيه التجديد . ولعل توافقنا في الغايات الأدبية قد زاد اعجابي « بالشفق الباكي» فانك تدعو فيه إلى الحب بينما غيرك يدعو إلى الكراهة والبغض . وتدعو إلى الإخاء الانساني والوطنية العالمية وكسر شرة التعصب القومي والوطني والديني ، وهذه دعوة يعدها أحد أدبائنا — إما لؤماً وإما

جهلاً منه – شيوعيةً ، وقد دعوت أنا بالنثر إلى ما دعوت أنت اليه بالنظم .

وفي شخصيتك وجمعك ما بين العلم والأدب ما يدعو إلى التفكير . فالعلم في اعتقادي يحتاج إلى الذهن الذي يحلّل ويردّ إلى الاصول ، بينما الأدب وخاصة الشعر يحتاج إلى البصيرة وإلى التأليف دون التحليل . وأنت جامعٌ بين البصيرة التي ترسم لك الغايات ، وبين الذهن الذي يرشدك إلى هذه الغايات، وهذه ولاشك عبقرية . وربما لم يكن خلواً من الدلالة على شخصيتك انك جمعت بين العلم والشعر في مهواتك التي هويتها وعلقت بها وهي تربية النحل . فأي شيء هذه المهواة : أعلم أم شعر ؟

ثم ان العالم فيك ينشد الحقيقة والواقع ، ولكن الشاعر لايقنع بهما ، بل هو يلبسهما ثوب الجمال وينحو بهما نحو المثل الأعلى . أفلا تظن أنه يجب أن يكون للانسان شخصيتان لكي يؤدي هاتين المهمتين ؟

لقد أخذ عليكم بعضهم نشأتكم العلمية ، وانها تحول دون تنمية الروح الشاعرية ، ولكني لاأرى في ذلك شيئاً تؤاخذون عليه ، عليه ، بل أعتقد أن العلم يؤاتي الشعر كما يؤاتي الذهن البصيرة بأن يمدها بالطرق والوسائل . ولاعبرة بأن تكون لكم شخصيتان بدلا من شخصيةٍ واحدةٍ . وماذا يمنع أن يكون لأحدنا ثلاث أو أربع شخصيّات ؟

النقد والشعر

بقلم الناظم

أذكر قبل الحرب الكبرى بسنتين — أي في بدء إقامتي بانجلترا — أنّ حركة التآليف الشعرية كانت كاسدةً نظراً لقلة إقبال الجمهور في انجلترا على الشعر العصري ، فكان ذلك موضوع الشكوى المرّة وحينئذ تآمر بعض الشعراء والناشرين وتعاونوا معاونةً جميلة نبهت الجمهور من غفلته ، وكان بين أساليب دعايتهم أجزاء المنتخبات الموسومة (Georgian Poetry) التي ذاعت ذيوعاً كبيراً وخدمت الشعر العصري الانجليزي خدمةً كبرى ، دع عنك ما كانت تنشره الصّحف اليومية والاسبوعية من تشجيع وإعلانات أدبيةٍ وتقاريظ ونقدٍ تحليلي ، فراج التأليف الشعري وتسابق الشعراء لخدمة النهضة الأدبية ، وما يزال صدى جهدهم يرن في المحافل الأدبية حتى يومنا هذا .

ونحن في مصر في الوقت الحاضر نعاني ما كان يعانيه شعراء الانجليز منذ جيل ، فطلبة المعاهد ما زالوا يؤمنون بخرافة « المعلقات » وبالشعر القديم باعتباره المثل الاعلى للشعر العربي قديماً و حديثاً ، ويحسبون الغنى الأدبي في استيعاب ذلك الشعر وحده . وخاصة القراء

– ولاسيّما من تربوا تربيةً فرنسية – ما زالوا يحنّون إلى شعر الألفاظ الرّنانة والتهويل والمبالغة دون التفات كافٍ إلى الشعر الجديد وجمهرة القارئين لايعنيها إلاّ شعر الشهرة وإن انحطت درجته الأدبية ، ويعنون أكثر من ذلك بالأزجال – وفيها الصالح القليل والطالح الكثير – فيجري وراءهم عبّاد الصيت من مشهوري الشعراء الذين لايحيون لغير الشهرة ولايعتبرونها وسيلة ، بل غاية فتانة هي حلمهم الدائم ، ويسابقون شعراء العامة في نظم الأزجال بمبتذل المواضيع والأغاني ! وصحافتنا – رضي اللّه عنها – لاتعنى كذلك بغير الشعراء المعروفين ، وإن نال معظمهم شهرته في غفلة الزمان ، ولايعاونها غالباً أحدٌ من النقاد الضليعين النزيهين ، وأكثر نقدها هراء في هراء وأغراض ومجاملات . وأولئك شعراؤنا الأفاضل متخاذلون مغرورون بغير إنتاج يساغ بجانبه ذلك الغرور ، وهم كلٍ منهم أن يعدّ الشاعر المعلّى في جيله ، وبينهم من تفتّن في العظمة المصطنعة وفي أذاة الحسد دون أن يفهموا لاخاء الأدب وللتّعاون الأدبي قيمةً أو معنى ، متغافلين عن القدوة المثلى البادية في مجتمعنا الأدبي بين إخواننا اللبنانيين وبين أقرانهم النابهين في أمريكا .

فوسط هذه الظروف يشق كثيراً انهاض الشعر العصري – فالوسائل المادية لتأليف ندوة للشعراء ومجلة خاصة بهم ومسابقات تشجعهم شبه معدومةٍ للأسف ، وذلك لأنّ القادرين عليها أنانيون ماديون ولايعنيهم غير أن يحرصوا على ظهورهم الشخصي . وهذا مما يثبط همم الشعراء الناشئين المجيدين الذين لايملكون وسائل الدعاية الصحفيّة في قطرٍ شبه أميٍ ، قد يمرّ جيلٌ كاملٌ أو أكثر قبل أن

يلتفت أهله إلى الأدب الجديد بغير تنبيهٍ لهم وإلحاح عليهم ، لاسيما وقد يسوق الحظّ إلى أولئك الشعراء صنوفاً من المقاومات التي قد تقضي على كلّ أملٍ لهم في فائدة جهدهم للناس وللأدب !

وقد شاءت الأقدار العنيدة أن تجمع بين ايماني بعقيدتي واتّهامي شخصياً لجهدي ، وكذلك بين رغبتي القوّية في أن لايذهب عملي سدىً ورغبتي في تشجيع النقد الشريف أيضاً ، وإن كان فيه إصغار ذلك العمل . فاذا بي أراني في تناقض معقول وإن لم يفهمه من يجهلني فبينما أقدر لنفسي ولزملائي قيمة الاعلان الادبي المعتدل الشريف الذي يؤدي إلى الانتباه إلى ذلك العمل ، أرفض رفضاً باتاً التقريظ الناشيء عن محض الرغبة في التقريظ ، ولا أظن أديباً مثقفاً يحترم نفسه يعنى بالتقريظ بقدر ما يعنى بالنقد الحر النزيه الذي يخدم القرّاء والأدب والمؤلف على السواء ، وأقصى ما يهمه — وإن طال الجهد — انما هو النجاح الأدبي لا التطبيل والتزمير .

فبين هذه العوامل أرحب بكل نقدٍ وتحليلٍ ، وألتمس من القارىء المستقل أن لايحمل ما بين دفتي هذا الديوان من أبحاث دراسية على محمل الاشادة بجهد الناظم ، فكلّ ما فيها من تقدير ونقدٍ لن يغير الواقع مثقال ذرةٍ ، وانما فائدته العظمى في تنبيه الاذهان واستنطاق العقــول (interrogation) ، بعد خمولٍ فكري طويل . . . . وفائدة ذلك لاتعود على الشاعر وحده وانما على شعراء جيله جميعاً ، فالكل تقريباً مغمورٌ في تيار الاغراض والشخصيّات والأنانية والخمول . ولولا هذه الغيرة على النهضة الأدبية العصرية لآثرت خلوّ جميع تآليفي من فصول تحليلية ، لأني شخصياً أبعد ما أكون

عن الرضى عن نفسي ، وهذا من العوامل القوية التي تحفزني إلى الدأب المتواصل ، وأعدّ مقياس الشعر المقياس الكوني والانساني العام ، لاالمقياس الوطني المحلي فحسب . ومن يصرح هذا التصريح جهاراً ومراراً في كلّ مناسبة لاحاجة به إلى الاطراء في مواقف الدراسة الجدية ، وإن احتاج اليه أحياناً في مجال الدّعاية الشعبية لايقاظ الرّقود وتوجيههم إلى عمله وعمل أقرانه فلا يسعه اذن الاّ أن يسخر من العاجزين العابثين الذين يتطاولون إلى الأخلاق وينتقدون باسمها ، بينما هذه الأخلاق بريئة منهم إلى يوم القيامة ! !

فليطمئن اذن القارىء والناقد اطمئناناً وافياً إلى هذه الحقيقة حتّى يشتركا بعد ذلك بنفس صافية في ما يستحقه هذا الديوان من دراسة أدبية سواء بالقبول أو الرفض ، وليذكره دائماً واجبهما نحو الشعر العصري عامةً ، إن نسيا حقّ ناظم هذا الديوان خاصة ، فأنا لاأعرف الاعتداد بالنفس الاّ في موقف الدفاع من أجل الأدب الحرّ وحده ، ولا أعتبر هذا الديوان بالنسبة لآمالي وواجبي الاّ خطوةً صغيرة إلى الامام ، وكل صورة غير هذه لنفسيّي انما هي من تصوير الجهل أو الغرض الأعمى لمن يستمتعون بالهدم والصغار بدل البناء الشريف .

* * *

بهذا الروح وبين هذه الظروف أراني مطالباً بالتعليق على أهم ما يوجه إليّ الآن في بعض المجامع الأدبية والصحف فضلا عمّا في ذيل هذا الديوان من نقد لأنه ليس من العدل أن يتحمل صديقي

الناشر هذا العبء ، وان شكرت له فضله المتكرر عليّ وعلى الأدب العصري في مواقف شتى سابقة .

(١) في طليعة هذا النقد من وجهة نفسية متجلية في شعري بثي فكرة التعاون والاخاء الأدبي ، فهذه الفكرة معدودة من سيئاتي الأدبية ! وهذا نقد لاأفهمه إذ أني لا أتصور أن الفردية الأدبية أو الأنانية مزية عظيمة للأدب أو للأديب ، أو أنها عماد للثقافة ، بل أرى الواقع عكس ذلك كما أسلفت ، وأعتبر النهضات الحقة ولبدة التعاون . ولن يعني التعاون تنازل الأديب عن آرائه أو أساليبه ، وانما يعني التآزر على إظهار أنواع الجمال الأدبي في بيئته ، وهيهات أن تقتصر هذه على إنتاجه وحده ! ولكن هذا النقد غير عجيب في بيئة يريد كل فرد ممتاز أن يكون دولة متفردة مستبدة ، وينسى فروض التربية الاجتماعية مصغراً دائماً من شأن سواه ، ويتعلق بالصيت ذلك التعلق الذميم الذي وصفته في قصيدتي « الشهرة ») (ص ١٠٣٧) . بين هؤلاء من يعد الاخاء الأدبي تملقاً ورياء ، حينما يعد السكوت تقصيراً وحسداً ، وبينما يعد النقد الحر النزيه حقداً وعداء ! ! وهذه نفوس مريضة لامنطق لها ولاثبات ، وإنما لها أهواء وأوهام وسخائم تحيا بها .... تحتقر التعاون الشريف وتهزأ بأصحابه ، ويرى كل فرد انه هو وحده الجبار العظيم والعبقري الفذ الذي ينبغي أن لاترفع رأس إلى جانب رأسه ، وان يقضي قضاء مبرماً على كل أدب سوى أدبه ، بل تبلغ الصفاقة ببعضهم إلى أبعد من هذا التبجح ! فبالله قارن بين هذا الروح الأناني الخبيث وذلك الروح الأدبي الخالص الذي أنشأ (جمعية الشعر —

(PoetrySociety) الشهيرة في لندرة ، وكذلك نظيراتها من الجمعيات الأدبية التعاونية المثمرة في تلك العاصمة وسواها من عواصم الغرب ، دع عنك جمعية (الرابطة القلمية) التي أسسها اخواننا السوريون في نيويورك ، فنهضت نهضةً مأثورةً بأدبهم الجديد . فكيف يعد شعوري هذا دليلاً على ضعف أدبي ؟ ! ! وهل نسي هؤلاء المثل العالي الذي ضربه الشاعر الانجليزي المجيـــد روبرت بروك (Rubert Brooke) الذي فقده الشعر في شبابه فعوّض عن فقده بروحه التعاونية النبيلة ، إذ أوصى بأن يخصص دخل تآليفه لنشر آثار ثلاثةٍ من أقرانه الشعراء المجدّدين ، وهم الاستاذ (لاسل أبركرمبي — Abercrombie (Prof. Lascelles) و (ولتر دي لامار — (Walter de La Mar) و (ولفرد جبسون — (Wilfrid Gibson) وقال إنّ غرضه أن يساعدهم ذلك على التفرغ للانتاج الجميل بدل أن تعوقهم الشواغل المادية عن إظهار أحسن ما عندهم ، وأنّ هذا خير عزاء له في وفاته . وها قد مرت أعوامٌ طويلة منذ وفاة بروك في خلال الحرب الكبرى ، وما يزال شعره وخلقه العالي مذكورين أشرف ذكر ، وهذا نظمه يقبل عليه الجمهور الانجليزي أعظم إقبال . فلم تكن روحه التعاونية إذن دليلا على ضعفه الأدبي ، ولا منافية « للفردية » (Individuali - sm) المعقولة ، بل خدمت شعره وذكراه أجلّ خدمة وما أساءت إلى الشعر الانجليزي بل ساعدت شعراء آخرين مجيدين على اظهار أحاسن نظمهم . فكيف تجوز بعد ذلك السخرية مما هو جديرٌ بالتشجيع والتقدير ؟ ! ! وكم من شعراء مغمورين في مصر لهم حسنات فائقة لايستطيعون مادياً إذاعتها في كتب ، وقد يلاقون أولاقوا عند محرري

الصحف أيضاً ما كفاهم من تثبيط الهمة ، فكم يكون ربحهم وربح الأدب عظيماً باذاعة مجموعة سنوية لهم مختارة من أحسن شعر العام ؟ ولكن هذا لن يكون ما دامت روح التخاذل متفشيّة بين أدباء مصر كما هي متفشية بين ساستها ، والنتيجة في كلتا الحالتين واحدة : وهي الخسارة المستمرّة . فمن هو أولى إذن بالنقد والتثريب ؟

* * *

(٢) السقراطية : هل هي جائزة في الشعر ؟ — سؤال يوجهه إليّ وإلى جمهور الأدباء صديقي الاستاذ محمد سعيد ابراهيم باساوبه الصريح الجميل ، وخيراً فعل بطرقه هذا الموضوع الجديد بالمناقشة والتصفية . خيرٌ لي أن يخالفني الآن ثم يتفق معي آجلاً من أن يكون الحال عكس ذلك .

لقد كان سقراط في أول نشأته مثّالاً ، أي رجل فن ، كما كان والده مثالاً كذلك ، بل كان أحد المساعدين لفيدياس — (Phidias) ، فلم يكن فنّه هذا بالذي يحجب عنه نور الحقيقة بل كان داعياً له إلى التأمل في الحياة والوجود ، ومبغضاً إياه في السفسطائيين المغالطين . فانتقل من هذا إلى واجب مقاومتهم في سبيل نصرته للحقيقة ، ولما عظمت نفسه أحس بواجب تدريب أبناء وطنه على التفكير والبحث في أسباب الأشياء وعللها ، وطرح المناقشات العقيمة التي يعتمد عليها للمغالطة ، واستبدالها بالمنهاج البحثي المؤدي إلى معرفة الحقيقة . وعلى رأي الاستاذ برندون J.A.Brendon كان الأثينيون يعتقدون أن الخير في أن تكون عظيماً ، فجاء سقراط

يعلمهم أن العظمة هي في أن تكون خيراً ، وان الحياة المستقيمة أكرم وأعظم من مجرد الغنى المادي .

ولهذا كان شديد السخط على رجال السياسة وعلى رجال المادة الذين نظروا للانسانية كأنها آلات ومتاع وأرقام ، ويشبهه في سخط هذا فيلسوفنا الاجتماعي العصري ه . ج . ولز (H.G.Wells) الذي أحترمه حقاً ، ولا أعتبر آراء الاصلاحية محض خيال لن يتحقق ، فهي سائرة في سبيل التحقيق التدريجي أمام أعيننا ، وفي مقدمة قرائه المتأثرين بهرجال التفكير ورجال الحكم المستنيرون في أمم شتى ورجال الماسونيه وسواهم من العاملين على توحيد الانسانية وتثقيفها وتآخيها .

كان دأب سقراط أن يبرهن على جهل الناس في معظم ما يتحدثون عنه إذ يلقون أحكامهم جزافاً ، فما كان أحوج أثينا إلى مثله ، بل ما أشد حاجة هذا العصر أيضاً إلى أمثاله . فقد كان بحاثة نفسياً خلقياً ، ومفكراً محللاً إلى درجة مدهشة ، ولما أعلن الوحي القدسي (Oracle) في دلفي انه أحكم الاغريق وأحصفهم لم يقتنع بهذا الحكم — برغم فحصه له وتحليله وتطبيقه على عقلاء أمته — الا مستنداً إلى حكم آخر من أستنتاجه : وهو أنّ غيره من الرجال لايعرف شيئاً ثم يدّعي المعرفة ، حينما هو (سقراط) لايعرف شيئاً كذلك ولكنه يقرّ بجهله ! وكان يخالف الناس في اعتقادهم انّ الشيءالمقدس هو مارضيت عنه الآلهة ، ويسأل لماذا لايكون العكس هو الواقع : أي انّ الآلهة تسرّ من الشيء لأنه مقدسٌ في ذاته ؟ ! ورجلٌ هذا شأنه لم تكن تأسره الخرافة فكان يسخر من تفاسير الجهل للميثولوجيا اليونانية التي تعتبر الآلهة طلاب شهوات ، وكان يعد هذه الآلهة .

التي تتحدث عنها الأساطير بمثابة رموز لإلهٍ واحد عظيم . فهو لم يكن ملحداً وانما كان متديناً مفكراً ، وكان إلى جانب ذلك شديد الحرص على كرامته عظيم الشمم ، فلم يقبل أن يتزلف إلى قضاته الآثمين وأبى اباءً أن ينال حريته من السجن هرباً واختلاساً . فعده تلميذه أفلاطون لذلك « خير الرجال في زمنه وأحكمهم وأعدلهم » وما يزال معدوداً أعظم الفلاسفة الاغريقيين شعوراً بالروح المسيحية قبل ظهورها .

فهذا الرجل إذن يصور في تفكيره ومراميه مثالاً من مثل الانسانية العليا التي هي رجاء الحاضر وعزاء المستقبل ، وبعد هذا نسأل عما اذا كان يجوز تطرّق السقراطية إلى الشعر .... كأنما هذه السقراطية هي خطب منبرية جافة ، أو أناشيد ببغاوات لاحياة ولا شعور فيها ، وليست ذخيرة عواطف نقيّة وفلسفة جميلة ومبادىء ملهمة . وما هو الشعر إن لم يكن التعبير الحارّ عن شعور النفس وايمانها ؟ فكل ما يطلب فيه أساسياً صدقه وإخلاصه لنفسية الشاعر ، سواء أدان الشاعر بالسقراطية أم لم يدن . على أن أرقى الشعر ما اتصل بالحياة اتصالاً واتجه بها إلى مثالٍ عالٍ مسعدٍ ، وما كانت السقراطية الاّ أحد هذه الأمثلة .

فأما طريقة سقراط في البحث فهي شبيهة بطريقة ديكارت (Descartes) كما أشار الدكتور طه حسين إلى ذلك في كتابه القيّم [**قادة الفكر**] وإن فرّقت بينهما عشرون قرناً ، وأما الفلسفة السقراطية فهي — على ما أجملها الدكتور طه حسين — « تنحصر أو تكاد تنحصر في شيئين : الأول انّ الانسان قد جهل نفسه في

جميع العصور المتقدمة ، وانّ جهله نفسه هو الذي حمله على أن يلتمس في الخارج فيبحث عنه مرةً في الأرض وأخرى في السماء وحيناً في الجوّ وحيناً في الماء ، وكان الحقّ عليه أن يبدأ بنفسه فيدرسها ويتبين أمرها ، حتى اذا فرغ منها استطاع أن ينتقل إلى الخارج . وليس هو في حاجة إلى ذلك ، لأنه لن يفرغ من درس نفسه أبداً ، ولأنه سيجد في نفسه اذا درسها كلّ شيء . الثاني أنّ الفلسفة يجب أن تقوم منذ اليوم على معرفة النفس والعلم بها ، أي ان الفلسفة يجب أن تكون انسانية ، أي انّ الفلسفة يجب أن تقوم قبل كلّ شيء على «الاخلاق» . وهكذا كان سقراط واضع علم النفس الانسانية والاخلاق ، واذا كان الأدب عامةً — وفي طليعته الشعر — نقد الحياة ، فكيف نتساءل عمّا اذا كانت السقراطية جائزة في الشعر ؟ ! الشعر عاطفة يعبّر عنها ، ولكن العاطفة ليست إحساساً مجرّداً إذ لها جوانب شتى من التفكير والرأي والايمان متصلة بها ومؤثرة عليها فلا يمكن فصلها عنها ، وكلّ ما يعنينا أن تكون هذه العاطفة صحيحة صادقة . وإني أعرف انّ صديقي الناقد الغيور معجب ايما اعجاب بالمتنبي الذي يعتبره أعظم شعراء العربية وتاجها المعلى — وليس هذا موضع مناقشته في هذا الرأي — فهل فقد المتنبي شاعريته حين قال :

وما الحسن في وجه الفتى شرفاً له
اذا لم يكن في فعله والخلائق

وحين قال :

شرّ البلاد مكان لاصديق به
وشرّ ما يكسب الانسان ما يصم

وحين قال :

اذا أنت أكرمت الكريم ملكته
وإن أنت أكرمت اللئيم تمرّدا

وحين قال :

وللنفس أخلاق تدلّ على الفتى
أكان سخاء ما أتى أم تساخياً

فانّ دموع العين غدرٌ بربها
اذا كنّ اثر الغادرين جواريا

وحين قال :

أصادق نفس المرء من قبل جسمه
وأعرفها من فعله والتكلم

وحين قال :

تشرق أعراضهم وأوجههم
كأنها في نفوسهم شيم

وحين قال :

أنف الكريم من الدّنية تارك
في عينيه العدد الكثير قليلاً

والعار مضاض وليس بخائف
من حتفه من خاف مما قيلا

وحين قال :

وأنفس ما للفتى لبه
وذو اللب يكره إنفاقه

وحين قال :

اذا ما عدمت الأصل والعقل والندى
فما لحياة في جنابك طيب

فهذا ونظائره شعرٌ سقراطي صميم تزدحم بأمثاله دواوين شعر العربي قديماً وحديثاً . ولم يسلم منه حتى أولئك الذين بربدون غالبة طباعهم حباً في الشذوذ أو مجاراة لبعض النظريات الفنية بصرف صرف النظر عما اذا كانت هذه النظريات صحيحة أو وهمية .

وهذا الاستاذ عبد الرحمن شكري معدودٌ لدى صديقي الناقد عظم شعراء العربية في هذا العصر ، فهل فقد شكري شاعريته حين قال :

اذا أنت لم تعط الفضيلة حقّها
أصابك من رجس الرذيلة عائب

ألم ترى أنّ الشرّ مغرىً بربه
يغالبه عن نفسه وهو غالب ؟ !

وحين قال :

غلّوا يد الجبّار في غلوائه
فبكم يصول إذا أراد ويظلم
إنّ الذي اتخذ الظلوم وليه
أطغى إذا عدّ الطغاة وأظلم

وحين قال :

إذا بلــغ المــرء الغنى كـــان خاســـراً
بنبيـــل الغنى قـــدر الذي هو كاسبـــه
فيربـــح حـــالاً لدنـــة الوجـــه غضةً
ويخســـر شيئـــاً خافيـــا عزّ حاســـه

وحين قال :

حببتـــك حبي للضميـــر اذا دعـــا
فؤادي إلى حـــبّ الفضيلـــة والخير
واني لأرجـــو في اخائـــك لـــذة
كلذّة أهـــل الرأي في حســـن الفكـــر

وحين قال :

ولولا رجائـــي أن أقـــول مقالـــة
تعـــود بخيرٍ أو تعيـــن على شـــر
لمـــا كـــان لي في بسطـــة العمـــر رغبـــةٌ
ولم أحمـــد الأيـــام إن زيـــد في عمري

وغير ذلك من شعره المأثور المشبع بالروح السقراطية وإن خالفها في غيره ؟ !

انّ هذه السقراطية ليست — كما أسلفت — سوى مثل من الأمثلة العليا للحسّ والفكر الانساني ، وانه لخير ألف مرة للشاعر أن يؤمن بها وأن تتسرب إلى شعره ضمناً من أن يكون مجرد آلة مصوّرة أو مجرد ناظم أمي إلى أبعد من أنفه ، ولايستهدي وحيه بأي مثال عالٍ في الحياة خطأ كان أم صواباً .

ولو أننا جارينا الأستاذ سعيد ابراهيم وصحبه في هذا الرأي لوجب أن نسقط من الشعر الانجليزي أيضاً كثيراً من النفائس وفي مقدمتها قصيدة (اذا — if) المترجمة في هذا الديوان (ص ٩٢٣) للشاعر العبقري المجدد رديارد كبلنج (Rudyard Kipling) وكم له من منظومات أخرى مشبعة بهذا الروح إلى جانب سواها الذي تثيره روحٌ مختلفة ، مما يدل على انّ الشاعر قد يتأثر بأكثر من إلهام أو مثل عال في شعوره ونظراته . ومن ذا الذي يصدق مثلاً أنّ هذا الشاعر الاستعماري الجاف سياسياً هو صاحب هذه الأبيات الدينية السقراطية الروح المعنونة :

'When Earth's Last Picture is Painted

قال :

And thosc that wera good shall heePfv they be shall sit in a golden chair ;
They shall Splash at a ten -Ieague Canvas with brushes of comets hair .
they y shall find real saints to draw from-Mag- daiene, peter, and Paul ;
They shall work for an age at a sitting and never be tried at all!

وحتى الشاعر الغنائي المبدع هيني (H einrich H eine) لم يسلم من هذه الروح السقراطية فهو هو القائل :

Yes, You are right. Your lingering glances Brim with a truth makes me sad .
How could we two bave met Life's chances -You are so good, And l so bad .
Iam so bitter and malicious ;

Even my gifts bear wry respect
TO you who are so sweet and gracious
And oh , so righteously correct ,

ودعك من الشاعر اليوناني العظيم إسكايس (Eschylus) بل من شعراء الاغريق الدراميين جميعاً فقد كانوا يبثون الروح السقراطية في نظمهم كلّ البث سواء عفواً أو قصداً ، ولا غرابة في ذلك فدراماتهم الغنائية ذات صبغة دينية خلقية برغم مناسبات المرح والتعييد . وهذا إسكيليس نفسه هو القائل :

For Jove doth teach men wisdom , sternly wins
To virtue bu the tutoring of their sins ;
Yea ! drops of torturing recollection chill
The sleeper's heart ; ' gainst man's rebellious will
Jove works the wise remorse:
Dread powers, on awfnl seats ienthroned, compel
Our hearts with gracioun force .

ورأيي أن الشاعر العالي النفس الانساني النزعة يتسامى دائماً إلى مثلٍ في شعره ، وقد يتسامى إلى أكثر من مثل واحد حسب شعوره وتباين المناسبات ، فليس من الضروري أن يبقى دائماً سقراطياً . ومن رأيي كذلك أنّ النفسيات والخلقيات أصبحت لها سيطرة كبيرة في تقدير أفكارنا وفي تكييف شعورنا أيضاً ، وصار الشاعر الحساس المتأمل دقيق البصر يتأثر شعوره بكل كلمةٍ وحركةٍ يواجهها ، فيعكس ذلك في شعره إن وصفاً أو تقريراً أو مناقشة أو غير ذلك .

والشاعر المطبوع أديبٌ بفطرته وإن أصبح رجل علمٍ وكاتب هذه السطور لم يكن طبيباً قبل أن يكون أديباً ، فليس من الصواب

تصور إمكان إدماج الأديب (وهو الأصل) في الطبيب (وهو المستحدث) . والواقع أنّ التربية الطبية هي تربية ملاحظة قوية واستقراء وتشخيص وتوليد وجلدٍ شديدٍ ، فالأديب بفطرته يستفيد من كل ذلك ، ويعينه في شعره الوصفي كثيراً ، وفي تحليل النفوس والأخلاق والطباع . وهذا مشاهد في جميع الامم بين رجال الطب الادباء على اختلاف نزعاتهم من قصصيين ونقاد وشعراء وغير ذلك . لكن صديقي الناقد الفاضل أبىَ في غلوه — وفي شغفه بحُبي على بلوغ الكمال الشعري الذي يوده لي — إلا أن يعكس الآية عفواً في غير إنصاف . فهو مبدئياً تعلق بكلمة « السقراطية » ومدلولها ، فأخطأ أولاً في إنكار قبول تعاليمها في الشعر ، ثم اخطأ ثانياً في تطبيق هذه النظرية على ديوان يضم مئات القصائد وآلاف الأبيات ، وصمم على أن يجعل هذا الشعر كله صوراً من السقراطية حينما هذه السقراطية لاتتمثل حتى في عشره . . . . وصار أبغض شيء اليه كلمة « فضيلة » أو « وفاء » أو « برّ » أو « خير » ، حتى أنه ليسقط قصيدةً برمتها اذا ما وردت فيها إحدى هذه الكلمات أو نظائرها من التعابير الخلقية — ولو استعملت استعمالاً مجازياً بمعنى آخر — وهذا ولا شك غلوٌ كبير لا إنصاف فيه ولا جدوى منه . وكما يسقط قصيدة برمتها لاعتراض كهذا ، فهو يريد أن يسقط ديوانا بأسره لأن جانباً منه له هذه الصبغة النفسية ! !

أما أنا فقد آمنت — بعد تأمل نقدي طويل في شعري وفي شعر غيري — بأن هناك ما يصح أن يسمى « بالتبادل » وهو تعويض الكل للجزء ، وكذلك تعويض الجزء للكل : بمعنى انه يجب نقد الأثر

الفني (القصيدة مثلا) كوحدة لا تتجزأ ، بحيث يوجه النقد الى جوهرها ولبها ، فتارة يكون هذا الجوهر صغيراً شبيهاً بالصورة الدقيقة (miniature Picture) وتكون بقية القصيدة كاطار وحاشية لهذا الجوهر ، وقد يكون ذلك اطاراً ضخماً ولكنه متناسب من وجهة التأثير مع الصورة ، فبدل أن يفسد جمال الصورة تراه يوجه الالتفات اليها . ومرة أخرى ترى الصورة ذاتها كبيرة والاطار صغيراً ، فتشغلك روح هذه الصورة وتكوينها عن الالتفات لحواشيها . ففي الحالة الأولى يعوض الجزء عن الكل ، وفي الحالة الثانية يعوض الكل عن الجزء ، ولا يتأثر الناقد الفني في كلتا الحالتين الا بالجوهر وحده ، ولا يكون ما عدا هذا الجوهر إلا معيناً على إبرازه . فالقسم الباهت الفاتر ليس بالحقير في الواقع لانه يساعد بالمقارنة على اظهار غيره وعلى توجيه النفس الى ما يقصد توجيهها اليه من لب الموضوع ، ولا يجوز إنصافاً أن يعد ترقيعاً في مجموع الصورة الفنية سواء كانت شعراً أو رسماً أو غير ذلك .

واني وان لم أعتبر الأسلوب الخبري أرقى ما يشتهى فنياً ، الا أني أرى من المجازفة في الحكم اعتبار اقترانه بالنزعة السقراطية كفيلاً باخراج خطبة منبرية جديرة بالوعاظ وغير قمينة بالشعراء ! !

فالشعر في جوهره شعر سواء كان نظماً أو نثراً ، قصصاً أو تصويراً أو خبراً أو غير ذلك . وهذه مسألة سأتعرض لها فيما بعد عند الكلام على نقد أسلوبي . وحسبي أن أقول هنا إنه من عجائب النقد الأدبي في مصر الرضاء عن الاباحية الخلقية في الشعر واعتبارها فناً ، والسخط على السقراطية واعتبارها مضيعة للفن ! ! وها هو صديقي الناقد اكتفى بكلمة أو ببيت لاسقاط قصائد من خير شعر هذا الديوان .

ثم نظر للتحديد كتعبير عامي ، ولكنه لم ينظر اليه كقدرة فنية في التعبير ، لأنه ليس من السهل على كل شاعر أن يصوغ كلاماً مجملا صادق الأحكام أو قوي التأثير البليغ ، وقد تفنن شعراء العرب في ذلك وفاخروا بالقدرة على نظم جوامع الكلم . وصديقي الناقد يقول إن الاسلوب العربي القوي البليغ بليغ في كل زمان ومكان ، فما باله يتناسى ذلك الآن ويلوم على اتباع هذا الأسلوب العربي الصميم ؟ !

وكما ان الشعر السقراطي (EThical Poetry) على اختلاف صورة فن سائغ معترف به عند نقاد الشعر (راجع مثلا: Poetry and the Renascence of Wonder للناقد الشهير Theodore Watts - Dutton الذي وصفه الشاعر سونبرن Swinburne بانه « أنبغ ناقد في عصره ، أو لعله أوسعهم ذهناً وأصحهم نظراً في أي عصر » (— أقول كما أن هذا النوع من الشعر له منزلته المحترمة برغم أساليب التناول للمواضيع عند الشرقيين والغربيين ، فكذلك الأسلوب الخبري من الأساليب المعترف بها ، وان كنت أنا نفسي لا أميل اليه الا في المواقف التي أقدر انه سيكون فيها أبلغ تأثيراً من سواه ، واذا كان التحديد في ظاهره أحياناً فالاستعارة والمجاز والتخيل أو الصورة العامة الباطنة للقصيدة تقضي على أثر هذا التحديد ، فلا يكون له أي لون علمي ولا أية خشونة ، بل يجد فيه السامع أو القارىء قوة الأقناع منطوية في هذا التحديد الملطف ، ولولا هذا الذي يسميه الأستاذ سعيد ابراهيم تحديداً لضاعت من هذا النوع من النظم قوة تأثيره المقنع . والأمثلة في الشعر في الشعر العربي – قديمه وحديثه — اكثر من أن تحصى أو تستقصى . وأما في الشعر الاوروبي فأمثلة ذلك غير قليلة أيضاً ، ولو سمح المجال

لجئت بأمثلة لا تعد ، فيكفيني ان اذكر مثالين من كل من الشعر الانجليزي القديم والحديث جامعين في آن واحد لما يسميه صديقي الناقد « سقراطية » و « تحديداً » . وكلا المثلين من مختار الشعر ، فأما المثل الأول للشعر القديم فمن أوائل القرن السادس عشر للشاعر المبدع استيفن هوز (Stephen Hawes) وموضوع القصيدة « الفاوس الحقيقي » وهذا نصها :

THE TRUE KNIGHT

For knighthood is not in the feats of warre,
As for to fight in quarrel right or wrong,
But in a cause which truth can not defarre :
He ought hinself for to make sure dand strong‘
Justice to keep mixt with mercy among:
And no quarrell a knight ought to take
But for a truth , or for the common's sake .

وأما المثل الآخر من الشعر القديم فقصيدة ملتون الشهيرة في عماه ، وهي مزيج من الصوفية والسقراطية (من شعر القرن السابع عشر) وهذا نصها :

ON HIS BLINDNESS

When I consider how my light is spent,
Ere half my days , in this dark world and wide,
And that one Talent which is death to hide,
Lodg'd with me useless, though my Soul more bent
To serve therewith my Maker , and present
My true account, lest he returning chide,

Doth God exact day-labour, light deny'd ?
I fondly ask : But patience to Prevent
That murmur, soon replies : 'God doth not n ed
Either man's work or his own gifts, who best
Bear his middle yoak, they serve him bist, his State
IS kingly . Thousands at nis bidding speed
And post o'er Land and ocean without rest :
They also serve who only stand and waite ".

وأما المثلان للشعر الحديث من أمثلة شتى متقاربة في الروح « السقراطية » والاسلوب الخبري « التحديدي » لشعراء مشهورين فأولهما من نظم الشاعر الانجليزي ولفرد جبسون (Wilfrid Gibson) عن الرجل الذي يخون ذكرى زوجته المتوفاة ، وهذا نص قصيدته التصويرية « السقراطية » :

THE ANNIVERSARY

Theclick ing of the latch,
Then the scratch
Of a match
In the darkness and a sudden burst of flame-
And I saw you standing there
All astare
In the flare :
And I stepied to meet yuo , crying on youe name,

But the match went out , alack
And the black
Night cane back

To my heart as I recalled with sudden fear
How upon your dying bad
You had said
That the dead
Rerurn ro haunt the faithless once a year.

فهل يقضي على هذا الجمال التصويري البديع اشارة الشاعر « السقراطية » الى الخيانة الزوجية وعاقبتها ؟

وأما المثل الآخر للشعر السقراطي التحديدي الذي ينقصه حتى التصوير المتقدم فقصيدة كيلنج المشهورة المسماة « اللاهوت الطبيعي » وقد نظمها حزيناً في نوبة سخط على الحرب خلافاً لنزعته الاستعمارية المعروفة . وهذا نصها :

NATURAL THEOLOGY

Money spent on an Army of Fleet
Is homicidal Iumacy ..
My son han been killed in the Mons retreat,
Why is the lord afflicting me ?
Why are murder , pilage and arson
And rape allowed by the Deiry ?
I Will Write to the 'Times' . deriding our parson
Because my God ha, afflicted ine.

* * *

As was the sowing so the reaping
Is now and evermore shall be.
Thou art delivered to thine own keeping,
Only Thyself hath afflicted thee!

فتغالي صديقي الناقد — على ما أشرت الى ذلك — هو الذي يجعله يتصور ان الروح الخلقية تعارض الفن في قصيدة وصفية للطبيعة مصرية الصبغة « كفتاة الريف » (ص ٣٥٣) متغاضياً عما فيها من وصف دقيق غير مسبوق اليه ومن حنان جم للحياة الريفية الجميلة المحتقرة في مصر ، وقس على ذلك بقية ما ذكره وما لم يذكره من قصائد لم ترق لديه حينما راقت لدى شعراء مصريين . فحسبي أن أترك كل ذلك لاطلاع القارىء وتحليله وحكمه .

(٣) الشاعر موسيقيٌ حسّاس بعيد النظر قوي التعبير . هذا مسلّمٌ به على ما أظن ولكن هل هذا كلّ شأنه ؟ وبعبارة أخرى : ما هي وظيفة الشاعر وأثره في الحياة ؟ يقول لامرتين (Lamartine) إنّ الشعراء والأبطال من نوعٍ واحد ، وان الأخيرين يحققون ما يتصوره الأولون ، ويعـــزز دزرائيلي (Disraeli) ذلك بقوله إنّ الشعراء هم مشترعو العالم لم يعترف بهم ، ثم يزيد إمرصن (Emerson) ذلك شرحاً بقوله : إنّ الشعر هو الحق الوحيد — هو تعبير العقل السّليم المتحدث عن المثل الأعلى لاعن الظاهر . فهل الشاعر الأسمى بعد ذلك من يقتصر شعره على تعبيراته الفردية ؟ لا أظن ذلك ! إني لن أجحد شاعريته ما دامت قويةً مطبوعةً بل أوفيها حقها من التقدير كنوع من الفن حتى ولو بث شراً نسبياً ، ولكن الشاعر الأسمى الذي ينال تبجيلي الأوفى هو النبي الفنّان الذي يعيش لنوعه لالذاته ، فيرتفع بذلك فوق الجميع كما يقـــول هازلت (Hazlitt) والذي يحسّ في دخيلة نفسه بأنّ الشعر عقيدة على رأي إمرصن . والواقع أنّ الشاعر الأسمى مفطور مطبوع يتأثر مزاجه بثقافته وبيئته

وعالمه تأثيراً عظيماً فيلهمه كلّ ذلك — إن صح هذا التعبير — ما يلهمه من إسعادٍ لنوعه في أوصافه وأخيلته وأحلامه ودعوته ، وحينئذ يكون الشعر محاولة لجعل الحياة منسجمة كما يقول كارليل (Carlyle) . فلا عجب بعد ذلك اذا ظهــر إلى جانب شعر العاطفة شعر العقيدة الانسانية العليا سواء في السياسة أو الاجتماع أو غير ذلك . وقد أصبحت المجلات والصحف الأدبية والشعبية في الغرب مزدحمة بنماذج هذا الشعر الذي دعت اليه ثقافة هذا القرن وأمياله . صار الشاعر المتعدد نواحي الفكر مشترعاً غير رسمي على حد قول دزرائيلي . فهو لسان وجدانه ، ثم هو لسان بيئته فوطنه ، ثم هو لسان الانسانية عامة بل الكون بأسره . وأعود إلى ذكر شاعر الامبراطورية الانجليزية رديارد كبلنج ثم أقول إنك تجد كلّ هذه النواحي في شعره، وإن غلب بعضها على البعض الآخر . وإن أنس لاأنس تأثير قصيدته السياسية الوطنية البليغة التي نشرتها صحيفة « التيمس » في أول الحرب العالمية ، فقد كان لها من الأثر النفساني العظيم ما لايقل عن نظيره لبيان رئيس الوزارة المستر اسكويث ، بل لعلّ تأثيرها جاوز تأثير ذلك البيان في البيئات العالية . وكبلنج يحسّ بمسؤليته هذه وتتجلى في شعره ، وبرنامجه الفكري النفسي يفوق برنامج رئيس وزارة ، فهو النبي الشاعر للانجليز السكسونيين ، وهو فوق ذلك في نفسه المجلّية في شعره . فالاعتراض على كلامي المجمل عن الغرض من الشعر وتدوينه (ص ٤٢ — ٤٤) لايقوم على أساس من الحقيقة في هذا العصر عند الشعوب المثقفة الناهضة . ومن العجيب أنّ الشاعر العربيّ قديماً كان ذا منزلة عظيمة في القيادة الفكرية لا في التعبير

فاذا بالشاعر الغربيّ بعد هذه القرون يبلغ نظيرة تلك المنزلة كما هو شأن كبلنج الانجليزي ، وييتس الأرلندي ، ودانتزيو الايطالي ، وغيرهم بينما تنعكس الآية عندنا ولانتصور للشاعر إلاّ مهمة التعبير الفردي ، أي أنه لسان نفسه فقط لايعرف غير همها ، ولاتفاعل بينه وبين بيئته وعالمه ، ولاشعور بمسؤولية كبرى يهزّ وجدانه فيبعث أقوى الألحان الناشرة رسالته العظمى . ونشأ بيننا من يعد هذه الرسالة الدافعة الممتلئة بالحياة معاديةً لروح الفن وقاضيةً عليه !

* * *

(٤) ولكن ما هو الفن ؟ — سؤال لامفرّ منه منه ما دمنا قد اتّهمنا بالاساءة اليه ومخالفة أصوله ! !

وقبل أن أجيب على هذا السؤال أحيل القاريء على قصيدتيّ « ما هو الفنّ » (ص ١٠٤٨) و« ما هو الحسن ؟ » (ص ١٠٨٧) ، مكتفياً بهما من نظمي ، ثم إلى الفكرة الفلسفية الشاسعة وهي أنّ الفنّ هو التعبير ، أو على حد قول جيتي (Goethe) : « الفنّ وسيط المغلــق (Art is the mediatrix of the unspeakable وبعد ذلك أقول في غير تردد إنّ الفن عندي ليس هو التعبير وحده : أي ليس قاصراً على البيان والافصاح ، بل ليس من الضروري أن يتصل بالبيان والفصاحة المألوفة . وقد يوجد التعبير أو البيان والفصاحة التامة ولايوجد الفن ! أما الفن عندي في أرقى صوره « فهو البلاغة الرمزية الجميلة » التي تفسح أمامك مجال التأمل وتنقلك إلى جوّ النفوس العبقرية حيث ترى في الدقائق العظائم ، وفي الحرّية الألوهة ،

وفي أبسط الاشارات أكبر الذكريات ، وفي مظاهر الفنّ رسولاً يهديها إلى سعادة الاندماج في الابدية . هذا عندي هو الفن في أرقى صوره موفقاً ما بين المثل الأدنى – وهو حياتنا العادية – والمثل الاعلى – وهو قبلة الانسانية الروحية ، ولا أراه شعوراً يناقض حكم جيتي بأن الفنّ يعتمد على نوع من الشعور الديني أي على اهتمامٍ عميقٍ ثابت ، ولهذا السبب يندمج الفنّ في الدين بسهولة . »

فأول أسس الفن اذن هو « البلاغة » ، بل قل هذا هو الاساس الذي لاغنىً عنه مطلقاً . وإني أعذر الذين يخلطون ما بين « الفصاحة » و « البلاغة » لان أساتذتهم أنفسهم يخلطون في التعريف لهما والتفرقة بينهما . ولاتعني « الفصاحة » عندي سوى البيان الوافي بأسلوب منتقىً مصفىً كامل الدلالة ، وأما « البلاغة » فهي في تعريفي التأثير وحده : أي بلوغ نفس السامع والقاريء بلوغاً تاماً .

فاذا اتفقنا على هذا التعريف والتفريق فسوف يظهر لك جلياً أنّ « البلاغة » مسألةٌ نسبيةٌ ، ونتيجة تفاعل بين الأثر الفني ودارسه . فهي في الشعر مثلا مسألة ذوق وشاعريةٍ واستعدادٍ ذهني ، ولها اتصال بعوامل شتى من ثقافة وبيئةٍ وغير ذلك . فلا غرابة اذا كان ما أعده بليغاً لايعتبر كذلك عندك ، ولاغرابة أيضاً اذا نحن اتفقنا في الحكم ، لأن الاشتراك في التأثر بالفن والاختلاف في ذلك أمرٌ مرتبطٌ بعوامل شتى كما قدمت ، بعضها شخصي وبعضها عامٌ . وننتقل من هذا إلى القول بأن « البلاغة » قد تستغني عن « الفصاحة » حيث تقوم الاشارة البسيطة المضمرة المعنى مقام البيان الطويل ، وقد توجد « البلاغة » وتتأثر بها دون أن تعرف بيان ذلك ما لم تكن فلسفي

الذهن تنقب عن العلل والأسباب ، وقد تفشل برغم ذلك في معرفة البيان الصحيح والتعليل الصادق لتأثرك ، ولكن التأثر كائن موجود برغم فشلك في تعليل أسبابه الاصيلة من وجهةٍ نفسيةٍ فلسفيةٍ .

وكثيراً ما راقبت إحساسي وإحساس سواي وقارنت واستنتجت ناجحاً مرة وفاشلاً مرات ، إلى أن أهتديت في نفسي إلى التفسير الذي ارتحت اليه : وهو أنه كلما سما الفن كان رمزياً في بلاغته ، لأنه الرمز يثير التفكير والتأمل ، ويثير عواطف شتى مكنونة ، ويحيي ذكريات ، ويكون علاقات ذهنية ونفسية متنوعة بين صور الحياة ، وشعرت بأنّ هذا الاتساق الجامع المتعدد الالهام هو الجمال ، وكلما كان شاذاً في قوته عد نادر الجمال ،،، و ان الفنّ والجمال توأمان يربطان — باتجاههما — الحاضر بالماضي والمستقبل ، سواء وعينا ذلك أم لم نعه ، بل غالباً لانعيه ، لأن كل هذا متصلٌ بعقلنا الغافي أو الباطن (Subconscious Mind) إلى أن نحـاول تحليله ودرسه .

وتبعاً لهذا الرأي أعدّ كل عمل بليغ ترتاح اليه النفس متأثرة به نوعاً من الفن ، ولا أعد مجرد البيان المنمق وبسط التعبير فناً . واذا حكمت فأني لاأتشبث أولاً بمثلي الأعلى في الفن ، وانما افتش عن الشرط الاساسي وهو شرط البلاغة القوية ، دون أن أتحنبل : فلا أحتم أن لايكون غير فني لسواي ما لا أحس أنا ببلاغته ، وبعبارة أخرى أقرر أن الفن مسألة نسبيةٌ ، وليس حقيقة مطلقة . وعلى سبيل المثل أعد قصيدة اسماعيل باشا صبري « تمثال جمال » وقصيدة أحمد شوقي بك في « أنس الوجود » وقصيدة أحمد افندي محرم في « أبي العلاء المعري » وقصيدة حافظ بك ابراهيم في « زلزال مسينا » وقصيدة

خليل بك مطران في « تمثال رعمسيس الثاني » وقصيدة عبد الرحمن أفندي شكري في « الشلال » وقصيدة عباس أفندي محمود العقاد في « الزهرة » وقصيدة ابراهيم أفندي عبد القادر المازني في « الشاعر المحتضر » وقصيدة محمود عماد في « الجمال الذاهب » بين ما أعده من الشعر الفني العصري لأنه بليغ الأثر في نفسي ، ولكن من الجائز أن لايوافقني كثيرون على ذلك . وان أتهم من يخالفني بالقصور الذهني ، فهذه مسألة روحية متشعبة الأسباب ، وللنفوس قابليات متنوعة للتأثر وادراك البلاغة .

فاذا كان الاختلاف في الشرط الاساسي للفنّ وهو « البلاغة » جائزاً إلى هذه الدرجة ، فما بالك برموز التعبير ، وما بالك باستكناه الجمال الظاهر والمستتر فيه ؟ !

وعندي أنّ الشاعر المطبوع فنّانٌ بفطرته فمن العبث أن تحدثه عن قواعد الفن الموهومة ولاعن قواعد العروض ، وانما عليك ياسيدي الناقد أن تدرس أنت أساليبه وأوزانهونغماته وتطبّق قواعدك عليها ، أو تعدل تلك القواعد ، أو تضيف اليها إن شئت !

واذا أردت أن أضرب لك مثلاً « البلاغة » المضمرة الرموز — أي التي هي خلوٌ من الفصاحة المعروفة — فدونك هذه المقطوعة « اللذة الجديدة » لجبران خليل جبران من كتاب (المجنون — أمثاله وأشعاره) . قال :

(اخترعت في ليلتي الماضية لذةً جديدة . وبينما كنت أتمتع بها للمرة الأولى رأيت ملاكاً وشيطاناً قد وقفا ببابي يتخاصمان ويتناقشان

وقول أبي نصر سهل بن المرزبان في وصف البدر :

كـــــم ليـــلة أحييتهــا ومؤانســي
طرف الحديــث وطيب حــث الأكؤس
شبهـــــــت بـــدر سمائها لمــا دنت
منـــــه الثريا في قميص سندسـي
ملكــــــاً مهيبـــاً قاعداً في روضة
حيـّاه بعض الزائرين بنـــرجس !

فهذا كلام فصيح موزون له استعاراته وتشابيهه ، ولكنه لا يؤثر في نفسي ، وأراه صناعة تقليدية ميته فلا منزلة له فيما أشعر فهو لذلك غير بليغ عندي ، ولكنه قد يكون بليغاً عند سواي ، بعكس المقطوعة الآتية الموسومة « شباك الغناء » للشاعرة الانجليزية (هلدا كنكلنج — Hilda Conkling) ، فهي فن مرنح لي :

SONG NETS

Song nets ,
Iweave you with all my love.
You glitter like pearls and rubies,
In you I catch songs like butterflies .
You go past my reaching hand
With a thin gauzy floating,
And the songs are caught
Before they fade away.
Last night
My hand caught a song

على تعريف المدني . فكان الأول يصرخ بأعلى صوته قائلا : « إنها خطيئة مميتة ! » فيعارضه الثاني قائلا بصوت أشد من صوته : « لا لعمري ، انها فضيلة » !

فالاضمار في هذه المقطوعة كثير، وليس ما فيها من بيان الا جزء من كل للنفس الشاعرة التي تقدر ما فيها من تهكم ، ومن تأمل فلسفي في الخير والشر ، ومن إقرار الانسان بحاجته إلى تنويع عزائه في الحياة ، إلى غير ذلك من المعاني التي يوحيها هذا النمط الشعري كلما زدته تأملاً وتبعته تخيلاً . ولكن كثيرون من الادباء لايرون في هذا الأسلوب الا السخافة ، ويرون أنه لايليق الا بالبله ، ولهم العذر : ذلك لأن هذا الاسلوب القصصي الرمزي غير بليغ لاحساسهم ، ففصاحته غير مبسوطة لأذهانهم ، بعكس حال غيرهم ، فهم إذن لايستمتعون به ولايعدونه من الفن في شيء .

وقد يكون الشعر فصيحاً مبسوط البيان ولكن لا بلاغة له ، أي لا تأثير له في نفس قارئه ، فهو المذلك غير فني عند ذلك القارئ ، لان التأثير لا يترتب على الفصاحة وحدها ، بل له كل الارتباط بدقائق المعاني ووحيها في أجزاء التعبير .

مثال ذلك قول صفي الدين الحلي يرثي غريقاً :

أصفيح ماء أم أديم سماء
فيه تغور كواكب الجوزاء؟!
ما كنت أعلم قبل موتك موقناً
ان البدور غروبها في الماء !

Of pines and quiet rivers :

I shall keep it forever .

وأرى أن لك كل الحق في سؤالي : كيف يمكن إذن الحكم الصادق على القيمة الفنية للشعر ، وهل يوجد قضاة عدول يمكن التعويل على أذواقهم وآرائهم ؟ وجوابي انه وإن يكن الفن الشعري أمراً نسبياً في تقديره عند طبقة من الناس وأخرى ، الا أنه يصح القول اجمالاً أن الناقد الشعري بفطرته أو الشاعر الحقيقي — اذا استطاع التجرد من الغرض وحسد المنافسة — هو خير من يستطيع الحكم المعقول على ماهية الشعر فنياً . ولكن بالرغم من كل ذلك يبقى حكمه متأثراً بالمزاج والثقافة والبيئة فلن يؤمن فيه الزلل . وهذا سر تناقض الأحكام الشعرية في العصر الواحد ، فضلاً عن اتفاقها أو تباينها بين جيل وجيل .

وقد أشرت إلى أهمية « الرمز » في البلاغة الفنية ، وهذا الرمز هو من لغة (الطبيعة) التي تؤثر هذا النوع من التعبير ،ولذلك يفتن به من تفتحت جوانب نفسه لوحي الطبيعة .ومن أجل ذلك أميل الى التعبير الرمزي وأعتبره أرقى الأساليب الفنية على أن نظم الشاعر تفاعل بين نفسه وروح بيئته ثم روح عالمه ، فليس هذا التعبير الرمزي مما يوافق كل زمان ومكان ، ومن أجل ذلك كثر الأسلوب الخبري التقريري في الشعر العربي ، لأن المجتمع العربي اكثر تأثراً بهذا النمط من الأسلوب ، وحل المجاز والاستعارة محل الرمز القصصي ، وهذا مثل لتعويض الجزء عن الكل في الفن ، كما أشرت الى ذلك سابقاً . والتجديد في الشعر الفني

يستدعي الحفاوة بالاساليب الرمزية البعيدة الغاية ، حتى يألفها جمهور الأدباء فتكون بليغة التأثير ، وتصير النسق الفني المعشوق .

وبعد هذا البيان أسأل سادتنا النقاد الأفاضل : كيف شوهت إذن الفن الشعري ؟ ألروحي الخلقية المتفائلة ؟ إن أصررتم على هذا الاتهام فدونكم رأي أحد ممدوحيكم أو أحد أعلام مدرستكم الأستاذ المازني ، فهو القائل في مقدمة الجزء الثاني لديوانه : « إن الشعر ديوان يقيد فيه أهل العقول الراجحة ما يجيش في خواطرهم في أسعد الساعات ، وهو الذي ينقذ من الفناء والعدم خواطر الالهام ، وهو يحلق بالمرء فوق الحياة ، ويرغمه أن يحس ما يرى وأن يرى ما يحس ، وأن يتخيل ما يعلم وأن يعلم ما يتخيل ، وهو يحيل القبيح جمالاً ويزيد الجمال نضرة وجلالاً ، ويفجر في النفس ينابيع الأمن والفزع والسرور والألم ، ويذهب مياه الموت المسمومة المتدفقة في عروق الحياة . فلا جرم كان الشاعر أحس الناس وأعمقهم حكمة وأجمعهم لخلال الخير وخصال الفضل — نقول الفضيلة والخير ولا نخشى أن يهز القراء رؤوسهم إنكاراً ، فان الشعر أساسه صحة الادراك الأخلاقي والأدبي ، ولست بواجد شعراً الا وفي مطاويه مبدأ أخلاقي أدبي صحيح ، وعلى قدر نصيب الشاعر من صحة هذا الادراك الأدبي تكون قيمة شعره » . وقد صدق في كل كلمة من كلماته . ولو صح حكمكم أنتم لبقيت مع ذلك حقيقة ناصعة لا ترد : وهي ان ما عبرت به من شعر عن حناني للطبيعة ووصفي إياها ووصفي لمظاهر الفن الشائقة من رقص ونحوه يتجاوز كثيراً نظم سواي ، ويفتح أبواباً فنية جديدة في الوصف الشعري ، فكيف تغمضون عيونكم ثم تجانبون المنطق السليم والعدل في أحكامكم ؟ !

عندكم في الرقص أمثلة متنوعة للبلاغة الرمزية ، وأمثلة شائقة للبلاغة المؤثرة التي قد يعجزنا ادراك فصاحتها وانما نتأثر بها على كل حال باعتبارها أنها فن صميم ، وهؤلاء شعراؤكم الذين يزعمون التجديد الكلي وهم أحياناً أنكى على الأدب من الرجعيين أنفسهم — هؤلاء شعراؤكم في حكم العجماوات لا يحسون بشيء من هذا ، ولا يعبرون عنه ، وكل همهم الجري وراء مقابح الفلسفة الالمانية دون حسناتها ، أو وراء الشذوذ المتدلي والنبوغ المنحط في الأدب الذي يمثله بوديلير (Baudelaire) وأضرابه مـــن عباد الخمر والأفيون والبغايا . فاذا قال بوديلير في « أزهار الشر — Fleurs du Mal » برغبته المعروفة في مخالفة كل مألوف ولو كان جميلاً — اذا قال مخاطباً معشوقته :

I advance to attack , I climb to assault ,
Like a choir of young Rorms at a corpse in the vault;
Thy coldness, oh cruel, implacable beast !
Yet heightens thy beauty , on Rich my eyes feast !

عد هذا القول آية فنية لا لسبب سوى غرابته المريضة ، وأي مرض نفسي أقبح في التعبير من تصويره لنهم نفسه ازاء حبيبته القاسية بنهم الدود الزاحف على الجثة الباردة ؟ ! ليست المسألة مسألة معالجة للشر أو للخير في الفن ، وانما هي مسألة ذوق في التناول والأداء حتى تهش نفوسنا الى الأثر الأدبي . وهذا ميسور باتقان وبلاغة دون الالتجاء الى هذه التعابير السقيمة القبيحة الداعية الى الاشمئزاز . فليست الحرية في التعبير بالتي تسوغ القبح . على أني برغم هذا الاشمئزاز الذي يعتريني مبدئياً أتصور أخيراً شعور هذا الرجل المريض النفس وأقدر ان هذا هو احساسه الصادق ، فيساعدني تصور نفسيته على ادراك بلاغته وإتقانه

فلا أنكر عليه فنه . ولكن إحساسه هذا لا يعني أن أخادع نفسي فأزعم ان هذا الفن المريض هو المثل الأعلى لأدبي ، وعندي في سواه الغنية التي تلائم عواطفي واحساسي ونفسيتي .

فهذا التهور في الميل الى الشذوذ المريض الذي ابتلينا به أخيراً سوف يفسد أذواقنا بدل اصلاحها ، ولن يخدم الأدب مثقال ذرة .

وبديهي أنّ الأداء أو التناول عاملٌ هامٌ في تكييف الفنّ أي في تأثير بلاغته . فهل أنا الذي قضيت على هذه البلاغة ؟ ! وهل حقيقي أنّ لي أسلوباً علمياً ضيقاً في شعري ؟ ! لقد سمعت أنّ أحد الزملاء الشعراء ينظم ملحمة في « البول السّكري » سوف تخلّد تخليد ألفية ابن مالك في النحو ! ولكنّي لا أعرف أنّ لي شرف هذا الطبع ، أو أني أقدر على نظم بيتٍ واحد من هذا النوع ، وغاية علاقتي بالعلم أن استوعبه في شعري استيعاباً على ما يرى القارىء في قصيدة « نقطة دم » (ص ٢٦٦) وقصيدة « أشعة الظلام » (ص ٢٣١) وقصيدة « حياتي » (ص ٤٦٥) . فهل هذا الشعر الوجداني من العلم الجاف في شيء ؟ ! وبعبارة أخرى هل أرضخت شعري للعلم أم استوعبت العلم في شعري فصار من صميم عاطفتي وايماني ؟ ! وأقول في غير غرور إن ذنب هذا النمط الذي يتفق وثقافة هذا الجيل هو أنه غير مسبوق اليه ، لاأكثر ولا أقل ، دع عنك أنّ صاحبه مصريّ وليس شاعراً جرمانياً مثلاً ! وهذا المستر تريفليان (R. C. Trevelyan) صاحب كتاب (**تاميرس** — Thamyris) الذي يتساءل فيه عن مستقبل الشعر يحثّ على التجديد الجريء وتناول حتى الهندسة والطبّ والاقتصاديات ونحوها في الشعر (راجع ص ٦٣ — ٦٤ من الطبعة

الأولى الكتابه) باسلوب فنيٍ . ولا أراني فعلت غير ذلك من تلقاء نفسي في قصائدي التي استوعبت فيها شيئاً من العلم على البداهة وفي غير كلفة . فهل هذا ما أستحق الانتقاص من أجله بدل التقدير ؟ !

اذا صحّ التعويل على قرينةٍ واحدةٍ للحكم العام فاذن تكفي قصيدتي « السعادة وفلسفة سقراط » (ص ٣٠٧) ليقال إني سقراطيٌ في جميع شعري ، وتكفي أبياتي عن « شعراء العلم » (ص ٢٤٣) أو قصيدتي عن المجهر الموسومة « رفيقي الكشاف » (ص ٣٥٦) ليقال إنّ أسلوبي علميٌ محدد ، ولكن ما هكذا يكون الحكم الشامل ! فعوامل شعري كثيرة ونماذجه متعددةٌ ومادته وفيرة ، والتحديد العلمي بالمعنى المفهوم لايمكن أن أستسيغه بل هو مكروهٌ عندي . فهل وفرة العواطف وصدق النظرات وكثرة الموضوعات الوجدانية والنفسيّة والوصفية وتعابير الحياة التي أتأثر بها سواء اجتماعياً أو سياسياً أو أدبياً — هل ذخيرة كل ذلك المتجليّة في آلاف الأبيات بهذا الديوان وفي دواويني السابقة يمكن أن تكون من أسباب اساءتي إلى الفنّ ؟ !

قال صاحب (تاريخ الفلاسفة) (١) : « ومن العجائب أنّ (سقراط) الذي دائماً يحثّ الناس على العبادة ويعظ الشبّان ويأمرهم بالتباعد عن اللذات والشهوات يحكم عليه بالموت بدعوى أنه كافرٌ بآلهة أثينا مفسدٌ لأهاليها ! لكن لاعجب حيث كان الوقت وقت اختلال في الدولة وكثرة الظلمة الحاكمين بها ولنذكر لك ذلك فنقول :

---

(١) طبعة الجوائب ١٣٠٢ هـ ، ص ٨٠

كان أعظم هؤلاء الظلمة تلميذ سقراط المسمّى (اقرسياس) كما كان (ألقبياده) من تلاملمته ، فزهدا في الفلسفة لما بها من المواعظ غير المناسبة لطعمهما وانهماكهما في اللذات فتركاه ، فأما (اقرسياس) فصار أكبر أعدائه بسبب تشديده عليه في اللوم على سوء السير والظلم فلما صار من جملة الثلاثين لم يتمنّ إلا إعدام (سقراط) ، خصوصاً وسقراط كان اذا بلغه ظلمهم وعتوهم تكلم فيهم وشنّع عليهم .... ولما رأى هؤلاء الظلمة ما اشتهر به سقراط عند الناس من الفضائل أحبّوا أن يمهدوا للانتقام منه بتبغيض الأهالي فيه أولاً ، فأمروا رجلاً يقال له (أرطفان) بذلك ، فاخترع لهم حكاية طويلة سمّاها بالسّحاب (١) ، وهي كناية عن أمثال في تقبيح من يظهر خلاف باطنه . فلّما اجتمعت الأهالي في ملعب عمومي صار ينزل هذه الأمثال القبيحة على سقراط بسماع الأهالي ... فانتدب عند ذلك (ميليطوس) وعرض نفسه وقال : إنّ ذنب (سقراط) كبيرٌ محتوٍ على ذنوب ، وذلك لأنه لايعتقد بآلهة « أثينا ، واخترع آلهة غرباء ، ولم يكفه ذلك بل صار يعلم الشبّان احتقار أهاليهم وحكامهم فهو يستحق القتل » . بمثل هذه المغالطة التي أملاها الحسد وحبّ الاساءة وعشق السفسطة شوهت سمعة رجل عظيم كسقراط وأذيق كأس الموت ، ولكن هذا الضلال لم يدم وان جاء على أيدي أدباء يعزّزهم الأقوياء . فأنا الصغير لايضيرني في النهاية نظير هذا التشويه لسمعتي الفنية : فصحائف شعري ناطقةٌ بأني لا أنظر إلى الاخلاق

---

(١) The Clouds – راجع plays ' Aristophanes ترجمة Hookham Frere ص ١١٣ – ١٧٤ .

نظرة الفقيه أو الواعظ الضرير كجزء من مثلي الأعلى للانسانية المستقبلة ، وأني أميل إلى الاعتدال وأنفر من الغلوّ ، ومذهبي الفنيّ موفق بين آراء الكماليين (idealists) وآراء الواقعيين (realists) .

وهذا ما عرضته في قصيدتي « واجب الفنّ » (ص ١٧٨) ليكون هدىً واضحاً لمن يسيرون معي في نهجي الأدبي ، فلا أنا من يرى أن الفن محصورٌ في التقليد الصرف للطبيعة ، ولا أنا من يعتبره خصماً للأمثلة العليا الانسانية كيفما كانت ألوانها ، ولا أنا من يقول إنّ الفنّ اذا خالف علم الأخلاق لم يكن فنّاً ، بل كلّ ما أقوله انه لا يكون فناً ساميا لمثلي ، وهذا لاينفي أن يكون فنّاً عظيماً لمن يتأثر به ، ولا أنكر « أنّ الجمال ليس معنىً في الشيء نفسه بل معنى يوجده احساسنا وحواسنا » (١) . بهذا الشعور الجامع أنظر إلى الجمال والفن ، وأعبر عن احساسي في شعري تعبير من يرى أنّ الحقيقة موزعةٌ وليست محصورة في شيء واحد يقول به سقراط أو أفلاطون أو نيتشه أو رسكن أو شوبنهاور أو غيرهم . فيقال لي بعد ذلك إني مفسدٌ للفن ! ! أليس هذا الحكم على حد إفساد سقراط للأخلاق ؟ !

إن الحقيقة والجمال لمثلي ليسا بالمحدودين لا في الأشياء ولا في الأشخاص ولا في المذاهب . وقد يكون هذا الشعور خطأً ، ولكن هذا شعوري القويّ وكفى . وقد تكون كتابة ونظم شوقي ومطران

---

(١) راجع ، مبادىء الفلسفة ، للدكتور رابورت وترجمة احمد بك امين ، وكتاب

R.G. Collingwood تأليف (Outlines of a philosophy of Art) وكتاب (Selected Essays) لشوبنهاور ، وكتاب (Beyond Good& Evil) لنيتشه .

والعقاد وحافظ ابراهيم ومحب الدين الخطيب وأحمد الشايب وسلامة سعيد وعبد الحميد سالم واسماعيل مظهر وعلي أدهم من الكتاب والنقاد والشعراء المعروفين أدبيات متنافرة داعية إلى خلق الأحزاب ، ولكنّها لمثلي ليست كذلك ، لأني أتلقى منها جميعها ما يوافق نفسي وهواي من جمال وفن ، ولاأنظر اليها نظرة التعصب الأعمى . واذا انتقدت بعضها — ولو انتقاداً مراً — فهذا لايعني أني ضرير ازاء ما فيها من جمال وفن ، لأني لاأعرف الحصر والتحديد في مثل ذلك . فهل يصبح أن يكون هذا إفساداً للفنّ ؟ !

* * *

(٥) لا أظن أن أحداً ينكر أن شكوى الزمان — وهي نوع من التشاؤم — متفشية في الشعر العربي ، فما رفعت هذا النوع من الشعر اذا كان غثاً في ذاته ، كما أن شعر التفاؤل المفعم بالاخلاص البالغ لم يعبه عائب لمجرد اصطباغه بالرضى ما دام قوياً في فنه.وهذا معاصرنا تاجور لم يقل ناقد كبير عنه انه شعرور بسبب تفاؤله وبسبب إنسانيته المتألهة (Godly humanism) ، بل هو معدودٌ من أكبر شعراء العالم . ولم يقل أحدٌ بأنّ الشاعر المبتدع يجب أن يتقيّد بأمثلة سابقة لشعراء كبارٍ أو صغار ، بل كلّ ما يطلب منه أن يقدّم لنا من عمق إحساسه ومن دقة نظراته ومن حرارة عواطفه غذاءً لألبابنا ، وليس علينا أن نحاسبه على المادة التي تغذّى هو بها : أكانت أدباً أم علماً أم فلسفةً ، فالذي يهمّنا أن يزّف الينا هديته في صورة جذّابة شهية وإن لم نضمن له أنها سوف تروق لنا جميعاً ، لأن للذوق

صلةً كبرى بالتأثر وهذا الذوق مختلف لدينا ، وحين ينعدم التأثر ينعدم كذلك تقدير الفن . ولا أظن أن حكماً معتدلاً يقول بأن إبيقيورس (Epicurus) أساء إلى الشعر بملحمته الكبرى « عن طبيعة الاشياء » (De Rerum Natura) (١) الجامعة للمبادىء الخلقية الجليلة فضلاً عن تناولها مذهب ديمقريتس (Democritus) في الذرّات . وقد أشاد بذكره — كشاعر وكانسان ومفكرٍ — الدكتور ولدون كار (H. Wildon Carr) في كتابه القيّم عن النسبيّة (The General Principle of Relativity) — راجع ص ٧٣ — ٧٤ من الطبعة الثانية . وما أنسب حديث رجل كولدون كّار عنه ، فحديثه يذكرنا بالنسبية وحقيقتها في أحكام الحياة وفي أحكام الفنّ وفي كل شيء ، فهي ألصق بمنطق هذه الدنيا من الغلوّ الذي لاينظر إلاّ إلى وجهةٍ واحدةٍ ، ولا يقبل إلاّ حلاً واحداً أو حكماً واحداً . فالنسبية في النقد جديرةٌ بأن تكون مذهباً محترماً فنأمن زللاً كثيراً في الأحكام الأدبية والفنية من جزمنا بقواعد ليست في الواقع ما ينبغي وحده أن يتبّع .

ومن قبيل هذا التغالي أن نتصور أن الحياة لو خلت من الشر والهموم لما بقي للشاعر الوجداني متسع للشعر ، لأن الحياة لو خلت من كل هم وشر وتسفل لما حرمت الانسانية الأطماع العالية النبيلة والهموم الجليلة لفتوحاتها السعيدة المرجوة ، ولما بخلت عليها بالأخيلة الجريئة لهناءة أتم ، فتستمر هذه الأخيلة دون انتهاء ، وتتبعها كذلك

---

(١) راجع ترجمتها النظمية الانكليزية لوليم الري ليونارد طبعة Everyman

الفتوحات دون سكون على مر الأحقاب وكر الأجيال ، وحيثما بقيت الحياة بقي الشعر كيفما كان نوعه متأثراً بظروف بيئته . ومن العبث أن نكتفي بتعاليلنا الفلسفية فنقول إن الحرب العالمية مثلا نتيجة لازمة للطبيعة البشرية ولا نسترشد بتعاليل أخرى كما توصينا نظرية النسبية ، وهذه التعاليل نستخرجها من علم النفس ، فلا يشق علينا حينئذ أن نتصور كيف يكون مآل البشرية اذا ألقيت زمام أمورها في أيدي رجال المال وأصحاب معامل الحرب (كما هو الواقع غالباً) بدل أن تكون بأيدي العلماء الاختصاصيين الذين يبثون روح الحق والتآخي الانساني لا الحذر والخوف والعداوة والانانية الحيوانية (كما نرجو في المستقبل القريب) . وليس هذا حديث خرافة ، كما أنه ليس بالوهم ان روح الثقافة العملية تقضي حقاً على الإجرام قضاء كبيراً كما هو مشاهد في سويسرا مثلاً .

* * *

(٦) اذا أنت صاحبتني مطمئناً مخلصاً في مناقشتنا السابقة واقتنعت بصحة نظري لم يصعب عليك أن تقدرّ كيف ينبغي لمثلي أن يتناول الجوانب المظلمة في الحياة . فاذا لم تكن مقتنعاً فحسبي أن أوجه نظرك إلى أني لم أغفل أبداً هذه الجوانب ، إذ لايوجد شاعر مصري دافع عن الفلاح البائس الذي يكوّن أغلبية الشعب كما دافعت عنه من نواحٍ شتى سواء في هذا الديوان أو في غيره ، ولي في ذلك مئات من الابيات ، وقد تناولت كذلك صوراً أخرى من بؤس الحياة وهمومها . كما أني لا أظن أن من « السقراطية » ولا من التفاؤل في شيء مرثيتي للعلامة الدكتور صروف (ص ١١٠١ — ١١٢٠) ،

على أني أعدهما من مظاهر ضعفي النفساني في وقتٍ شاذٍ . وأرى أنّ خير وسيلة لتناول هذه الجوانب إنما يكون عن طريق الدرامات والمآسي ، أي على لسان الغير لا على لسان نفسي التي اطمأنت إلى نوع من السعادة بتفاؤلها وبارتياحها إلى مستقبل الانسانية ، وبتمجيدها للطبيعة الحكيمة ، التي تضع مصلحة النوع فوق مصلحة الفرد والرجل الذي تصاحبه الأحزان والمآسي في جميع أدوار حياته فينوء تحتها زمناً ثم يتغلب عليها اخيراً لايمكن أن تكون روح المأساة عنده ضعيفة ، وانما المعقول هو أنه حرّر وجدانه وأسعده بفلسفة نفسية ألهم اليها ، فرأى ذلك إكسير سعادته وأحب أن يهبه لغيره أيضاً . وهذه هي حقيقة حالي . فلو أني أردت التعبير عن أحزاني تعبيراً مباشراً (كما أفعل نادراً) لما عجزت — وهذا ما يشهد به صديقي الناقد الاستاذ سعيد إبراهيم — ولكن ما أعرفه كطبيب هو أنّ استمراري على ذلك سيعيدني حتماً إلى انحطاطي العصبي الذي عانيته قبيل رحيلي إلى انجلترا فلماذا أقهر نفسي بدل أن أقهر الحوادث والهموم ؟ ولماذا أضيع اكسير سعادتي النفسية من يدي وأبث السوداوية في نفوس هي أحوج إلى بلسم العزاء ؟ ولماذا أنشر روح الخوف والحذر والتشاؤم والبغضاء والسخط على الدنيا وأهلها ؟ إنّ هذا هو ما أقدرّه كنتيجة للأسلوب المباشر في أمثال هذه المواضيع . وما أراه أحجى وأسلم هو الاسلوب الروائي وعلى الأخص الشكسبيري التمثيلي ، تاركاً للنظارة أو للقراء التأثر الايحائي بالخير ، والنفور من الشر ، والميل إلى إسعاد الانسانية الشقية . وأما ذلك التصوير للجوانب المظلمة في الحياة الذي لامعنى له سوى تصوير ابن آدم في صورة الذئب الذي لايمكن أن يؤمن إلا اذا كان ضعيفاً وعليلاً ، فلا شأن لي به ، لأنه يخالف إيماني العلمي

بحاضر الانسانية ومستقبلها ، كما يخالف اعتقادي في أنّ معظم الصاخبين قصيرو النظر أنانيون ، لايدركون حكمة الطبيعة وشغفها بالنوع قبل الفرد وسعيها الدائم إلى الترقية والتجميل .

وفي الحياة من الدروس ما يغني عن كلّ أمثلة مدرسية مسطورة . وما المآسي الأغريقية وبالمآسي الحقة على ما نفهمها في هذا العصر، فتأثر الشعب الأغريقي بها يرجع أولا لبلاغتها الموسيقية ، ولأن فرص تمثيلها كانت في الواقع فرص عبادة عجيبة للشهوة سلطان عليها فلم يكن المقصود من تلك المآسي بث الحزن قدر اثارة الروع والرحمة كما هو شأن العبادات والدرامات الهندوية (Hindo dramas) ، ولكنّ هذا لم يكن الا قصداً ثانوياً ، وأما الغرض الأول فالغناء الديني الصرف الذي يرتاح اليه النظارة ثم ان فكرة القدر متسلطة جداً على العقل اليوناني المؤلف ، ونحن لايرضينا مجاراة ذلك في هذا العصر ، بل نؤثر ان ننسب عيوبنا إلى أخطائنا ولو كانت صغيرة ، فهذا أصلح لنا وأنفع من التعلق بالقدر وحده ولومه دون أنفسنا على نتائج غلطاتنا . ولهذا أرى أن هذه المآسي الاغريقية ليست حجة ضدي فهي قطع أخلاقية شبيهة بالاوبرات يمتزج فيها الشعر بالموسيقى والرقص والغناء كعبادةٍ دينيةٍ ، فاذا كانت قد نفعت قدماء الأغريق فليس ذلك لما فيها من روح المأساة النسبية ، وانما لأنها بثت جمالا فنياً كواجب ديني فهي اذن « أوبرات مقدسة » وليست تراجيديات ، فكانت بذلك وليمة ذهنية فاخرة لشعب مثقف في أوج حضارته الاولى . وأني أعلم أن لبعض النقاد الالمانيين آراء غير هذه في المآسي الاغريقية وأظن أنّ مترجم إسكيليس إلى الانجليزية المستر جون

أستوارت بــلاكي (John Stuart Blackie) لم يخطــيء في تعريف هذه الآثار بأنها تحف فنية اذا روعيت ظروفها ونشأتها ، ولكنها لاتفضل على آثار شكسبير مثلاً . وما يهمني أنا في هذا المقام هو : (١) تبيان إجلالي للتأليف التراجيدي واعتباره خير وسيلة لاظهار جوانب الحياة دون التصنّع ودون التعبير عن غير إحساس فيما لو اتبع المؤلف الاسلوب المباشر الصادر عن نفسه . (٢) تقرير ميلي إلى هذا النوع من التأليف ، وان سكوتي الحاضر بل انصرافي المؤقت إلى سواه ليس معناه عزوفي عنه . (٣) تقرير حقيقة المآسي الاغريقية التي لا اعتبرها مثلاً أعلى للتأليف التراجيدي ، خصوصاً وأني لاأرى أنّ روح الثقافة العصرية تستدعي التشبث بالقدر والتغالي في تصوير دوره في الحياة . (٤) إظهار احترامي في الوقت ذاته للنبوغ الفني اليوناني في التمثيل الشعري ، وأخص بالذكر إسكيليس وروايته « أغاممنون » .

* * *

(٧) بديهي أنّ شعر السخط والغضب والثورة له من اللهجة غير ما لشعر الهدوء والسّلام والمحبة ، ولن يسمي الأول قوياً والثاني ضعيفاً الاّ من يفقد حاسة التناسب (Sense of proportion) فالواجب علينا أن نحذر هذا الزال في أحكامنا ، لأن لكل فنٍ قوةً ظاهرة أو مستورة تناسب موضوعه . وهذا يدعوني إلى كلمة عن الديباجة والاسلوب اللغوي ، فأقول إني لم أُحْرَمْ من يحمدون لي أسلوبي إلى جانب من ينتقدونه . وبين الناقدين من لايفهمون مطلقاً المقطوعات الشعرية الرمزية التي في هذا الديوان ، أو قد يفهمونها

حسب ظاهرها دون روحها الفنيّة . وهذا الفريق بين الأدباء كثير العدد في مصر للأسف ، وهوما يدعو إلى التريث في التجديد ، حتى لايكون الغذاء الطريف عسر الهضم لأذهان كثيرة. تُنْتَقَدُ علي مراعاتي للذوق المصري في تعابيري ، فدعني أقول في غير تردد إنّ هذا الذوق المصري هو أكثر الأذواق أثراً في صقل العربية العصرية ، وأقول غير مدافع أنّ الذوق المصري الذي أنجب البهاء زهير وابن الفارض ومصطفى نجيب واسماعيل صبري وأحمد شوقي وغيرهم من الشعراء المصريين المخلصين لروح بيئتهم هو روح الرقة في التعبير غالباً لاروح الجزالة التي تمت بصلة أوثق إلى العراقيين والشآميين . هذه الرقة تجدها في شعر البهاء زهير وفي شعر ابن الفارض وفي شعر شوقي المطبوع الذي لم يتطرق اليه التصنع اللغوي أو تكلف الغرض ، وتجد السلاسة على الأقل في شعر حافظ بك ابراهيم المطبوع ، بينما تجد الجزالة والمتانة اللغوية القوية في نثر (البؤساء) المصنوع المتكلف بمهارة . وقد تتناسب الجزالة مع شيء من سلاسة الاسلوب في الشعر الوطني وفي المراثي ونحو ذلك. وهذا ما أقرّ لي به غير قليلٍ من أساتذة الأدب العربي في مصر . وقد أخطأ من قال إني أقلّد مطراناً في أسلوبى فالواقع أني لا أقلد أحداً . وأنّ تأثري بمطران شبيهٌ بتأثر غيري من المجددين به — وإن حاول بعضهم إنكار فضله عليهم — وأعني بذلك حرية تعبيره واهتمامه بوحدة القصيدة . فهذه الحرية في النظم هي خير تعليم وخير تراثٍ وهبه لنا مطران . وأما عن موسيقية النظم فقد تأثرت فيها بنظم شوقي بك الذي أعدّه — حينما يترك نفسه على سجيتها — أعظم شعرائنا الليريكيين ، ولن أبخسه حقه هذا من التقدير مهما اضطررت إلى انتقاد ذبذبته الفكرية وتقلبه السياسي وجبنه الأدبي

وغير ذلك من مظاهر ضعفه النفساني في مجال التأثير على شعره . وإني لاأنكر أنّ حافظ بك إبراهيم شاعر كبير بل أقدر شعراء الفكاهة والسخر في مصر اذا شاء ، كما لا أنكر أنه شاعر البيان التام ولكني أنكر أن البيان هو دائماً البلاغة وخصوصاً البلاغة الفنيّة ، وأنكر أن البهرج اللفظي عنوان الاتقان الفني والشاعرية بل أعده غالباً عنوان الفقر النفسي ، ولذلك أرى أن حافظ بك هو آخر من ينبغي له أن يتعرض لبلاغة مطران الفنيّة ، فانه لن يساويها ببيانه ولن يقرب منها في أي نوع من أنواع شعره . وهذا الاستاذ أحمد محرم (الذي يقدمه حافظ بك على نفسه والذي يعدّ اسلوبه آية في الجزالة والمتانة العربية) يعجب ايما اعجاب بقوة مطران الفنيّة ، ويقدّر ما في أسلوب مطران من تجديد شائق وبيانٍ جميل وإن خالف المألوف .

ليس الشاعر مؤلف معجم إذ بآلاف قليلة من الكلمات يستطيع أيّ شاعر مطبوع جريء أن ينظم القصص والملاحم الشعرية الفاتنة ، وليست السهولة في التعبير معناها الضعف والركاكة فان هذه السهولة كما شهدت بذلك نابغة شواعر الانجليز المس إديث ستول (Miss Edith Sitwell) — نتيجة جهدٍ فكري طويل في ذهن الشاعر الناضج وهذه السهولة والبساطة المتناهية في التعبير وتجنب الحذلقة وعرض بضاعة المترادفات اللغوية مما يتوخاه شعراء الانجليز الناهضون وفي طليعتهم سيجفرد ساسون (Siegfried Sasson) صاحب « سياحة القلب — The Heart's Journey) وغيرها من الروائع الشعرية البليغة . ولكن هذا المذهب لن يرضي أصحابنا المغالين الذين يغالبون الذوق المصري ويحلو لهم أن يقولوا لنا « ما أحيلى ! » ،

ويبهجم أن يتحفونا بأمثال هذه المفردات : شماريخ ، يلملم ، هيثم ، مسبكر ، قشاعم ، تامور ، سحالة ، وذيلة ، مزؤد ، يحور ، الجديس ، الفيح ، الحنوط ، يطبي ، يموق ، الدحول ، التأطر ، البوغاء ، السمادير ، اللفق ، الشبابة ، الجؤار ، الرجم ، الاواذي ، الشطون ، المصرد ، المصطلم . ونحن لانعارض في احياء هذه الالفاظ وغيرها في الشعر اذا دعت الضرورة البيانية ، بل نعد ذلك خدمة مشكورة للغة ، ولكننا نعارض في اعتبار ذلك غرضاً أساسياً للشاعر ، ونعارض التصنع المؤدي إلى مخالفة ذوقنا الشعبي المحبوب ، وننكر القول بأن السهل الممتنع ضعف وغثاثة ، وان للكلمات الجوفاء الرنانة والالفاظ الغريبة جمالاً وقوة لانظير لها ولا أسر لغيرها ، ونصرح بعد ذلك بأن لكل مقام أسلوباً ومقالاً ، وان الشاعر الفنان يميل بفطرته إلى التنويع ،فالتنويع من مظاهر الفن . وكما أنه غلو غير محمود أن تحكم بوأد قصيدة لكلمة أو بيت لايعجبك فيها ناسياً الوحدة النظمية ، وأن تحكم بفساد ديوان لأن جزءاً منه لايوافق ميولك في الأغراض والاساليب ناسياً أيضاً وحدة التأليف الذي بين يديك ، فكذلك من الخطل الكبير أن تحكم على شاعر بالموت الادبي لان أحد دواوينه لم يرق لديك ، متناسياً وحدة نفسيته وأدبه المتمثلة في مجموع تآليفه ! ! فان انت نسيتها فهذا لن يقضي عليها ، بل هي التي تزجيه إلى التنويع بحيث تتناسب تآليفه المختلفة فتكون وحدة منوعة مقبولة . وكيف تحكم على شاعر بالعجز في الشعر الغنائي مثلاً وتحسب حكمك عادلاً لمجرد اطلاعك على اشعار مرسلة له وجهلك ما عداها في دواوينه الاخرى ؟ !

أن الأسلوب عندي هو نتيجة تفاعل فكري وروحي وذوقي بين الشاعر وبيئته ، وليس كل أسلوب فني يفهم ، ولاسيما القصائد الرمزية التي للاضمار والتقدير نصيب فيها ، وللثقافة عونٌ على تفسيرها ، فقد تكون هذه القصائد آياتٌ فنية ولكن لايفهمها إلاّ القليلون ويرمي صاحبها بالغباوة أو التنطع ! وإخواننا المحافظون يقابلون عندنا فريق الحنابلة اللغويين عند الاوروبيين (Puritans) ، وهؤلاء يميلون إلى استعمال الكلمات حسب معانيها الأصلية فتكون نتيجة ذلك إهمال الكثير من ظلال المعاني العصرية أوالعجز عند التعبير . ولكن بينما صوت هؤلاء ضعيف في الغرب ، نجد نظراءهم عندنا يحاولون التأثير على جمهور الأدباء بحجة الغيرة على « لغة القرآن » التي يسيئون هم اليها بجمودهم أضعاف ما نخدمها نحن بحريتنا المعقولة وتجديدنا . ولو تدبر هؤلاء النقاد لأدركوا أنّ أعظم المشترعين في اللغة أثراً هم الشعراء والشعب ، لاالمجامع اللغوية والخاصة إلاّ في العمليات العويصة . ولو أنك درست (المخصص) لابن سيدة لوجدت آلاف كلماته مصدرها دهماء العرب وأصحاب الحرف والصناعات والأعمال ، وما من تعبير جديد للحياة إلا ويبدأ به العامة غالباً ثم يصقله الخاصة بعض الصقل . وسرّ ذلك أنَ العامة يعبرون بفطرتهم وبحريتهم الكاملة عن شعورهم ، بعيدين عن كلّ تصنع . وكذ حال الشعراء إلا في نزوعهم للفظ الموسيقى وصقلهم إياه من تلقاء أنفسهم اذا كان عاميّ الأصل أو دخيلاً ، ولذلك كان الواجب أن تؤخذ المفردات والتعابير الجديدة التي يوجدها التطور والحاجة عن المجدّدين من الشعراء ، لا أن تملى عليهم من أصحاب القواعد والفتاوى التي لايعرفون تطبيقها ، لذلك كانت خدمة تيمور باشا

وسقراط سبيروبك بجمعها الكثير من الألفاظ والتعابير العامية خدمةً لغوية جليلة القدر لمن يعرفون الانتفاع بها من الخاصة .

واني اذا عذرت من لا يقدرون قيمة الشعر المرسل والشعر الحر وتنويع الأوزان والابتداع فيها ، وأثر كل ذلك في تحرير التعابير الحر وتنويع الأوزان والابتداع فيها ، وأثر كل ذلك في تحرير التعابير الشعرية من القيود الثقيلة ، ودفعها حرة لتكون للأدب العربي شعراً دراميا قوياً بعد أن حرم ذلك طويلا في ماضيه إذا عذرت هؤلاء فاني لا أعذر من يجازفون بأحكامهم تبعاً للمحبة والكراهة (antipathy) لذات الشاعر . وكم من الناس يتولد عندهم النفور لا لسبب إلا عداوة أصيلة في طباعهم لكل رجل جهير ، حاسدينه لظهوره في عمله ، وإن لم تكن لهم صلة بذلك العمل ولا قدرة على منافستهم إياه في مجاله ! ! فأمثال هؤلاء ليست لأحكامهم قيمة عندي : أليس من بينهم من عدوا مرثيتي للعلامة صروف (ص ١١٠٦ — ١١٢٠) إفساداً للغة والأذهان الأدبية حينما عدها الشاعر الناثر الأستاذ أحمد الشايب معجزة أدبية ، ووصفها إمام اللغة المتشدد الأب الكرملي بقوله(١) : « انك لا ترى في جميع أبياتها خيالاً كاذباً ، أو تصويراً وهمياً بل تلفي الحقيقة مبثوثة في ثنايا كلمها بثا عجيباً » ، وحينما وصفها الأستاذ لطفي جمعه « بأنها من آيات الشعر العربي الحديث » ! ! أليس اولئك المتحذلقون المغرضون هم الذين وصموا الأستاذ عبد الرحمن شكري بالجهل بعد مدح سابق عند ما بلغهم انه اعجب بقصيدتي « في حضن الريف » (ص ٩٢٦) ووصفها بأنها « شعر صاف — pure poetry) ؟ !

(١) مجلة (لغة العرب) م٥ ج٥ ص ٢٨٢ .

وابوا إلا أن يقرروا ان هذا الشعر الوجداني المتصل بالطبيعة « دردرة فارغة » ! فهل امثال هؤلاء يقام لهم في النقد الأدبي وزن حتى يشار اليهم في معرض الآراء ؟ !

لو صح ان الأسلوب العربي القوي قوي في كل وقت لوجب مثلا ان نحتفي بكل ماوعته (مختارات ابن الشجري) و (ديوان الحماسة) و (جمهرة أشعار العرب) ، وأمثالها من التصانيف لمختار شعر العرب المأثور ، ولكن الواقع ان حفاوتنا مقتصرة على ما ناسب ذوقنا منها لفظاً ومعنى ومرمى. وسيختلف حتماً مبلغ هذه الحفاوة من جيل الى جيل .

قال المستشرق الشهير الأستاذ ادورد هنري بلمر ناقل البهاء زهير إلى الانجليزية في تصديره للديوان (سنة ١٨٧٦ م) : « . . . لكن نظم البهاء زهير ليس في البدهيات والأمثال فقط يشابه أشعار شعراء أوروبا ، بل أكثر أفكاره تحاذي أفكار شعرائنا الانجليزيين في القرن السابع عشر بعد المسيح حتى لا يكاد أحد من الافرنج يصدق أنها من مؤلفات شاعر مسلم من أيام بني أيوب . والظاهر أن أكثر أشعار المشرق — ولا سيما أشعار الفرس — لا تخلو من التصنع في الاستعارة ، والمبالغة في المدح والذم ، والبهرجة في العبارة ، وهذا كله عند أهل أوروبا غير مرغوب فيه ، بل يعدونه من أقبح العيوب . وأما نظم بهاء الدين زهير فانك لاترى فيه غير البساطة الطبعية والايجاز ، على ما فيه من حسن الاستعارة والمجاز الذي يذكر بغزليات هيرك الشاعر الانجليزي المعروف . وأما المقاطيع الرقيقة والنكات الدقيقة التي كان شعراء الانجليز في أيام رجع دولة آل استورت مولعين بها ، فالبهاء مالك زمام صناعتها ، كما يشهد لذلك قوله :

ويخفـــــق حين يبصـــره فؤادي
ولا عجـــــب اذا رقـــص الطروب

وان كان المعنى مطروقا كالموت عشقاً ووصف العاشق بالشهادة فترى صاحب الديوان يزينه بأسلوب جديد ويأتي بنكتة زائدة كقوله:

فخـــــذ مرة روحي نرحني ، وإن أكن
أمـــوت مراراً في النهار وأبعــث

وكقوله في موضع آخر :

أنـــــت روحي وقد تملكت روحـــي
وحيـــــاتي وقـــد سلبـــت حياتي

مـــــت شوقاً فأحينـــي بوصال
أخبـــــر الناس كيف طعم الممات ! !

فزاد هذا الكلام حسناً ، وكساه رونقاً جديداً ، وقال جداً مالم يقله غيره الا هزلاً . ثم في قرب الهرم وظهور الشيب أبدع في المعنى وأغرب في الكلام حيث قال :

فقـــــد انجلى ليــــل الشباب
وقـــــد بدا صبـــح المشيـــب

ورأيـــــت في أنـــواره
ما كان يخفـــى مـــن عيوبي ؟ »

هذا شيء من رأي الأستاذ بلمر في شاعرنا المصري التربية الذي يمثل ذوقنا الأدبي الأصيل أصدق تمثيل . وهو رأي شاركه فيه كثيرون من النقاد النافذي البصر في الأدب من عرب ومستشرقين .

وحسبك شهادة من نوابغ شعراء العصر لأسلوبه السهل الخلاب ولديباجته السحرية ما قاله شوقي بك فيه من مدح بمقدمة الطبعة الأولى من ديوانه (الشوقيات) ، حيث وصفه بأنه « سيد من ضحك في القول وبكى ، وأفصح من عتب على الأحبة واشتكى ، وحسبك انه لو اجتمع ألف شاعر يعززهم ألف ناثر على أن يحلوا شعر البها أو يأتوا بنثر في سهولته لا نصرفوا عنه وهو كما هو ! ! » .

هذا الشاعر العظيم المصري النشأة والروح والديباجة هو مثلنا الأعلى في حسن الصياغة والتحرر في التعبير . وهو المبدع القائل :

بروحـــــي من أسميها « بستي »(١) فتنظر لي النحاة بعيــن مقـــــت

يــــرون بأنني قد قلت لحنـاً وكيـــــف واننـــي لزهير وقتي ! ؟

ولكـــن عادة ملكت جهاتي فــــلا لــحــن اذا ما قلت « ستي » ! !

فهذا الشاعر الفنان الذي يؤثر الرقة على الألفاظ الضخمة الرنانة هو — في نظر اخواننا الحنابلة — رب الغثاثة والركاكة والضعف والعامية وسوء الصنعة وما شئت أن تحصيه من عيوب ! وإني أوثر أن أشارك البها زهير في روحه فأنال ذمهم على التنطع اللغوي في اسلوبي لأنال رضاءهم وتصفيقهم ! !

* * *

(١) بسيدتي .

(٨) وأخيراً لابد لي في ختام هذه العجالة (التي ليست كل ما يسمح الفراغ ولا الوقت بأن يقال في موضوعاتها) من الاشارة الى الرأي القائل بأن أدب الأديب غير شخصه ، وهو رأي خالفته دائماً وانتقدت من أجل هذه المخالفة ، فأقول انه يصح طبعاً من وجهة نظرية قبول مدح الفضيلة من الشرير وتقدير الغنى من الفقير ، ففي الحالة الأخيرة يكون الفقير بأخيلته في بيئة الغني ، وفي الحالة الأولى يكون الشرير بندامته متقمصاً نفسية الخير والملك يكون أدبهما الوصفي غير مصنوع وله قوة التأثير ، وهذه أحوال شاذة وليس فيها ما يناقض رأيي. ولكن الأغلب أن يجيد الشاعر الفقير بحرارة وألم وصف الفقر ، وأن يجيد الشاعر الشرير وصف وتحبيذ ما نعده شراً ، وهكذا يبرز لنا كل منهما نوعاً من الفن لمن يستملحه ولمن يرى فيه البلاغة والاتقان . ولكن هيهات أن يكون هذا الاتقان المؤثر في الأدب بغير اخلاص أصيل عند صاحبه :

لا خيـــــر في أدب لمن لم يتخـــــذ
مــــــن طبعـــه طبعـــاً ومنه أصولا

ونحن اذا احترمنا أدب اسكار وايلد (Oscar Wilde) مثلاً فلشعورنا بأنه مخلص في شذوذه ، ولأن أدبه صورة نفسه الحقة ، فيساعد هذا الاعتبار السيكولوجي على احداث تأثرنا الفني . فشخصية الشاعر جزء من شعره أعظم من البحر والروي ، والاعجاب بأثر الشاعر اعجابٌ بشخصه أيضاً كما يتخيله القارىء في شعره ، فاذا ضاع هذا التخيل الجميل عند افتضاح حقيقة نفسية الشاعر ضاع التأثير غالباً . ولذلك يحرص بعض الناشرين على ترك القراء في أوهامهم

منخدعين بالصناعة إلى جانب تأثرهم بالحقيقة ، ويأبون حتى اذاعة صور المؤلفين حتى يبقى تأثر القراء بالصور الخيالية التي في أذهانهم ! !

وتبعاً لنظرية « أنّ أدب الأديب غير شخصه ، وانّ الفنّ مرآةٌ متحيزة » ، يسيغون للأديب ما لا يجوز لنا به مستعلٍ من الرياء السياسي والأساليب المكيافيلية . وعندي أنّ الأديب يجب أن يكون فوق سفسطة وأكاذيب المداهنات السياسية والخداع والدّجل . وإلاّ كان تاجر ألفاظ ومغالطات ، كما يجب عليه أن يعدّ نفسه مؤتمناً على الجمال الفني قواماً عليه ، سواء خصّ هذا الجمال شخصه أو غيره ، وهيهات أن أوافق على أنّ حياة الأديب كفاحٌ ذاتي أي تنازعٌ في سبيل الظهور ، بدل البحث عن أنواع الجمال ووصلها ببعضها . فهذا التناحر الحيواني في سبيل ما يسمى « بقاء الاصلح » تناحرٌ لايليق بأهل الثقافة والأدب العالي الذين ينبغي عليهم إبراز أحاسنهم ، تاركين لقانون الاختيار أن يفعل فعله مع الزمن في غير قتال . والقول بأن ما لايستطيع أن يقاوم الحملات غير أهل للحياة مقارنة مع الفارق . وليت شعري كيف كنا نحكم على الاسبانيين لو أنهم قضوا قضاءً تاماً على آثار العرب الفنيّة في الاندلس ، وعلى البولشفيين لو أنهم قضوا الآن على الآثار الفنيّة التي تخص الرأسماليين بحجة أنها غير أهل للحياة ما دامت لاتستطيع مقاومتهم ؟ ! !

وبا للّه متى كانت حياة الفنان متوقفةً عدلاً على قدرته على ردّ دهاء خصومه وألاعيبهم الشيطانية لاسيما اذا كان رجلاً حيياً رقيق الاحساس عظيم التأثر ؟ !

أما أنّ الفنّ مرآة غير متحيزة فخطلٌ آخر ، لأن هذا جانبٌ

من الفن وليس كلّ الفنّ ، وإلا فلدينا إذن فنّ الواقع نصيب المقلد أو المرآة ، وفن الخيال — أي المثل العالي — نصيب الخالق المبتدع ، ولاشك أنّ الفنان الخالق (كيفما كان لون مثله الأعلى) أعظم من الفنان المرآة ! إذ شتان بين ذلك الذي يكتفي بتصوير الحياة بما فيها من خير وشر ، وبين ذلك الذي يخلق إلى جانب هذا أو قبله مثلاً عالياً مسعداً ملهماً من تفكيره وإحساسه ، وان يكن خيالاً في خيال !

* * *

« الفن هو طريق الخالق الى عمله » .
(امر صن — Emerson)

« الشعر نفس المعرفة كلها وروحها الرقيق ، فهو التعبير الحار الذي يحلو العلم »
(وردزورث — Wordsworth)

« يجب أن يكتب النقد للجمهور لا للفنان . »
وليم ونتر — (Wm. Winter)

فصـل ختـامي

بـين اليـوم والغـد

بقلـم الناشـر

أريد بهذا الفصل أن أختم الديوان مستعرضاً صفحاته كما يستعرض الشريط الفضي (شريط السينما) — في غير تباطؤ ممل — لفائدة المتأمل الناقد ، ولعلك توافقني على أنه لاغني عن هذا الاستعراض الختامي لمثل هذا التأليف الضخم استثماراً لثروة .

يقع شعر هذا الديوان (أي ما خصّ صاحبه) في نيف وستين وسبعماثة وثمانية آلاف من الأبيات ، تضمنتها ثمان وسبعون واربعمائة قصيدة ومطوعة جامعة لفنون شتى من الشعر . وقد صدرته بمقدمات ثلاث ، وأتبعت القسم الشعري بنظرات وملاحظات حرّة للأساتذة المجددين : أحمد الشايب ، ومحمد سعيد ابراهيم ، وسلامة موسى ، فتألف من ذلك ديوان شعر ونقد وأدب عام متنوع المضامين ، متماسك الأجزاء ، مستقلّ الصورة والنزعة .

والغرض من هذه الابحاث التحليلية التي يقدرها عارفو الأدب الأوروبي والمستشرقون هو تنبيه الأذهان إلى الدراسة الشعرية النقدية ، والحث على التجديد الصادق والاصلاح الأدبي ، والاعتبار بتاريخ

الشعر العصري في مصر على الأخص ، وبما أصابه من تقلبّات ، بحكم الدوافع الشخصية التي لم تبال بخدمة الشعر ذاته قدر خدمة المجد الشخصي . فهذه الأبحاث المفيدة إذن مجموعة أدبٍ حرٍ ونقدٍ متصلة الأجزاء ، وغايتها خير الأدب والفن الصراح .

وقد أشرت — رداً على تحامل الحسد والجحود وسفاف المغرضين — إلى أنّ ما تضمنته هذه المجموعة الشعرية النفسية من ذخيرة أدبية كافية وحدها لوضع الشاعر في الطبقة الأولى من شعراء العصر ، لو لم يجن عليه تفرده أو شذوذه جناية نظيره على ابن الرومي في زمنه ، فان شوقي بك وحافظ بك ابراهيم وأحمد أفندي محرم وغيرهم من مشاهير الشعراء الذين يعدون في المرتبة الأولى بين شعراء العربية ما بلغوا سابقاً تلك المنزلة الا بأقل من هذا الانتاج العظيم في القدر والمقدار .

بيد أنّ شاعرنا لايزال في منتصف العقد الرابع من عمره ، وإن كانت مرانته الشعرية ترجع إلى أكثر من عشرين عاماً بحكم طبعه الشعري الأصيل الموروث . وأجمل ما في خلقه أنه — وهو المعتد الواثق بنفسه — غير راضٍ عن إنتاجه الحاضر ، وكثير النقد لنفسه بنفسه مع احترام كليٍ للنقد الشريف ، وهذه صفةٌ طيبة وعلامةٌ حسنة ، لأنها ستبقى — لامحالة — دافعة له إلى العمل وزيادة الأجادة حباً في بلوغ أسمى ما يستطاع من كمال في إنتاجه المتجدد المطبوع . ولولا الاعتداد بالنفس لما أقدم أيّ نابغة على عمل شاق عظيم ، كما انه لولا حب الاتقان والانتقال من الحسن إلى الأحسن ولولا عدم الرّضاء بالحاضر لما كان للمستقبل أملٌ . وشتان بين الاعتداد بالنفس لدى الطامح إلى « المثل الأعلى » وبين الأباطيل والغرور ، فانّ الفرد

المغرور بذاته — بخلاف المعتدّ بنفسه المجد — ويتوهم غالباً أنه في غنىً عن جهدٍ آخر ، وأنّ فتوحاته — على قلتها أو كثرتها — لم تترك مجالاً لفتح جديد ! وكثيراً ما صرحّ لي شاعرنا بأنه لاينتظر أن يرضى عن نفسه قبل سنوات ، وربما لم يكن رضاؤه كاملاً وقتئذ ، لأن مجال العمل والاتقان في نظره واسعٌ ، وهو لايشعر بأنه أدى الفرض الواجب عليه ، وإن افتخر سواه بما هو دون آثاره بكثير ... وأخص مجالٍ للعمل والاصلاح تدعو الحاجة إلى توجيه الجهود الشعرية اليه الآن إنما هو المسرح المصري ، أي إلى الدرامات والمآسي الشعرية والأوبرات ، فضلاً عن القصص العصري الاجتماعي .

— ٢ —

وما أحسبني مبالغاً في اعتقادي أنّ الدكتور أبا شادي أكثر شعرائنا تحصناً أو مناعةً من هجمات النقد المغرض لانه — وهو الجم الخصب الذهبي ، المبدع المنجب الكثير الانتاج ، بل الذي لايبز في قوى الوصف والتخيل والتحليل والقصص الشعري — لايقبل أن يعيش على ذكرى آثاره الماضية ، وانما يعبأ بآمال المستقبل فقط ، وكلما ازداد علماً زاد شعوره بعجزه وتطلعه إلى المثل الأصلح ، فاذا أشار إلى ماضي آثاره فلانها صورٌ عزيزة من شبابه ، واذا تحدث عنها أو افتخر قائماً في موقف الدفاع فقط عن جهده أمام حملات المغرضين (وان عدّه في أقصى ضميره جهد المقل العامل) ، وفي موقف الدفاع عن حسن طويته وشرف مقصده ، وعن تمانيه في حبّ وطنه وعلمه ومن كانت له هذه العقلية الحصينة فمن الصعب جداً أن ينال منه التحامل والتجريح والتشهير مهما أنفق حاسدوه في هذا السبيل بمناوراتهم

ودسائسهم من مال وجهد ، بل قد يشجعه القدح أضعاف ما يشجعه المدح ... ! فلا محل إذن للعجب اذا لم تثبط المعارضة همته بل كانت داعياً إلى شحذها ، ولاغرابة اذا كان مثله أول من يستفيد من النقد الصحيح ويرحب به ، بينما كثيرون غيره يفزعون من النقد الشريف ويعتبرون الناقد النزيه خصماً لهم ! ! وقد شبهت شاعرنا مرةً بالجندي التركي الذي ليست له وقائع هجوم ولا يميل إلى التحرش بأحد ، ولكن له مواقف دفاع لاتنسى ... فشاعرنا من يعشق الادباء ومجالس الأدباء ، ومن يفتش عن حسناتهم ويذيعها لشغفه الدائم بالحق والجمال ، ومن يقترح ويشجع ويساعد بكل تسامح واخلاص وغيرة ، ومن لاتأسره النعرة الدينية أو المذهبية أو السياسية ، بل يقدس الاخاء الانساني تقديسه للعقل والجمال وشرف الذهن والحرية ويحب الأدب والادباء حباً جماً ، كما يحب العلم والعلماء ، وكأنهم جميعاً اخوانٌ في الماسونية التي ينتسب اليها ... ولكنه اذا هوجم بعنف وتحاملٍ فهو سيد من يسدد القلم حاذقاً ماهراً إلى رؤوس ناقديه المتحاملين وإلى صدورهم تسديداً علمياً فتاكاً بأسلوب محكم قدير ، وخيرٌ من يرتجل خطبة نقدية ردا عليهم تنبئك انّ صاحبها الشاعر استاذٌ أيضاً في النقد الادبي لايشق له غبار ، بل إمامٌ ضليعٌ في طريقته النقدية التحليلية التي لاتترك كبيرة ولا صغيرة دون فحصٍ وتشخيصٍ . فاذا ارتد أمام رده أشد ناقديه تعنتاً فليس في ذلك ما يعيبهم وإن كان فيه ما يشرفه ، لأن الرجوع إلى الحق فضيلة ، ولولا هذا الجحود وهذا التحاسد المتفشي بين الأدباء في مصر بحيث لايكاد يغنم الا من كان متصنعاً للعظمة والتعالي ، أو صاحب مال أو سطوة أو نفوذ اجتماعي ، أو كاتباً مهوباً في صحيفة من الصحف — لولا هذه

المقاومة التي تجعل الأديب النابغة المتواري غريباً في وطنه مساءً إليه لما احتجنا إلى كلمة ردّ أو دفاع أو تقدير نرى أنّ شاعرنا أسمى منها قدراً . ولكن أصدقائي الأدباء على كل حال أظهروا ارتياحهم العظيم إلى هذه الدراسات التحليلية المفيدة سواء خصت نفسية الشاعر أو نظمه لأنها طريفة في أدبنا العصري وقد شحذت اذهان التفكير والبحث الجدي المنتج . ومن قبيل الرجوع إلى الحق ما كتبه الناقد المعروف « قدامة » في صحيفة (النواب) بالعدد الثاني من المجلد الأول في موضع المقارنة بين أبي شادي والزهاوي . قال : « وأنا لنرانا مطالبين بالاعتذار إلى ولدنا الدكتور أحمد زكي أبي شادي ابن صديقنا المرحوم الاستاذ محمد بك أبي شادي عما غمزناه به في إعداد (السياسة الأسبوعية) في كفاءته الشعرية وفكرته الفلسفية ، فانه وايم الحق لاحلى شاعرية وأقدم فلسفة من ذلك الذي لايستحي أن يهذي ويهذر حيث نبغ حماد وبشار ، وعلى كثبٍ من قبر الشريف الرضي ومهيار » ...

وكان بودنا او أنّ هذا الاعتذار من حضرة « قدامة » لم يكن على حساب الزّهاوي الذي نرى أنه لاينكر أدبه وفضله وتعمقه الفلسفي هذا الانكار في حقٍ وعدلٍ .

— ٣ —

وبهذه المناسبة أصرح مرة أخرى بترحيبي الكلي وبترحيب الشاعر بالنقد الأدبي البريء الذي يرمي صاحبه في غير محاباةٍ ولامواربةٍ إلى خدمة الأدب ذاته ؛ وإلى ارشاد الشاعر إلى بلوغ مرتبة أرقى من

الشاعرية والبيان لا إلى وضع العرقيل في طريقه . وأما قلب الحقائق أو القدح المغرض الذميم الداعي إلى الهدم أو التشدق بأبجدية النقد إسفافاً وافلاساً من الناقد العاجز فاما أن يكون مآله التحقير والاغفال منا أو تلقين صاحبه درساً شريفاً لاينسى في واجب الأديب الناقد، وإلقاءه في الهوة التي حفرها هو ليقبر فيها عاثراً فضل الشاعر . ولاعتب علينا في سلوك هذا المنهج لنضع حداً للفوضى الأدبية الحاضرة في مصر ، ولعبث فريق من الأدعياء بفنّ النقد الأدبي ، ولتأجير أقلامهم لمن يدفعهم الحسد للنيل من كرامات أخيار الرجال . أصرح كذلك بأن كلّ ما دونته في هذا الكتاب من نقد سواء لنا أو علينا لايعني أننا نحتم أن يكون الحق في جانبنا دائماً . وانما يعني رغبتنا الصادقة في خدمة الحق بالنقد الحرّ والتحليل الشامل ، حافلين بالمبادىء لا بالأشخاص إلا حيثما اندمج الأشخاص اندماجاً في مباحث النقد .

— ٤ —

يمتاز شعر الدكتور أبي شادي بين مميزات كثيرة (أهمّها أنه شعرٌ انساني عام) بترتيب الفكر وقوة الخيال نتيجة بحثٍ وتأملٍ ثم تنسيقٍ ، ولعله اقتبس ذلك من صحبة استاذه الجليل مطران على الأخص ومن تربيته العلمية ومن اطلاعه الواسع على الأدب الأوروبي . ويمتاز كذلك بجرأةٍ في التعبير ولطفٍ في الاشارات وحلاوةٍ في الأداء وهي ميزة ثانوية عندي ، ولعلّه أشرب ذلك من روح خاله الشاعر الثائر الفنان المرحوم مصطفى بك نجيب فضلاً عن عصرية مزاجه الحساس ويمتاز بالصراحة والاخلاص والشجاعة الأدبية التي لاتعرف المجاملة في الحق مع أقرب الناس اليه ومع أساتذته وأصدقائه . ويمتاز بجديد

المعاني والمباني الكثيرة وبالنكهة العصرية الجميلة وإن لم يقدر ذلك المحافظون وأشباه المحافظين . ويمتاز بالثقة النفسية الهادية التي يوحيها الامام المرشد إلى مريديه ، وبالأمل البسّام الذي هو رسول الاصلاح والعمل وتقديس الواجب . وهذا — وأقل من هذا — داعٍ كبير لحفاوتي وتقديري لشعر أبي شادي — ذلك التقدير الذي تشاركني فيه جمهرة عظيمة من الأدباء الصادقين المستقلين الذين يفهمون روح العصر ومعنى الجمال الفني ويردّدون معي قوله الذي يؤمن به ويطبقه :

وما كان شعري في نظيـــم أصوغـــه
ولكـــنّ شعري أن أكون أنا الشعـــرا !

— ٥ —

وفي الوقت الذي انتشرت الأنانية وقوي سلطانها ودسائسها واختال الجاحدون للفضل لاترى الدكتور أبا شادي الاّ في طليعة المقدرين المذيعين لمفاخر غيره في غير مجاملة ولامحاباةٍ ، وهو الذي تشبّث بانصاف الشاعر العبقري الاستاذ عبد الرحمن شكري حينما خذله أصدقاؤه المنافسون . وهذا شوقي بك ذاته — رغم تقلباته المشهورة ، ورغم اساءاته الكثيرة للادب والادباء ، ورغم محاربته لكل نابغة بواسطة أذنابه المأجورين — لم تؤثر طباعه وتصرفاته هذه في اعتراف الدكتور أبي شادي بنبوغه العظيم ، وكثيراً ما دافع عن مواهبه وأطراها أمام من يغالون في نقده وإصغاره ، وأراد مراراً حصر عيوبه في دائرة معينة محاولاً تقويمها . وبمثل هذا الشعور النبيل يذكر شاعرنا أدباء الجيل السّابق وكبار شعرائه ، لانه يعدهم اساتذة له ولغيره ،

ومن حقهم واجب الاحترام والتقدير لفضلهم ، وإن أصبحت لشاعريته الناضجة « شخصيةٌ » وأساليب وفلسفة وآراء ومناهج خاصةٌ به . وهو وإن تشبث باعتبار شوقي بك الزعيم لكبار الشعراء المحافظين في مصر على الاخص أو « أمير » الشعراء كما يقال ، ونوه كثيراً بأسلوبه الموسيقي ، فهو كثير الحرص على استثناء خليل بك مطران من جملتهم ، ويعتبر عد الناس اياه شاعراً محافظاً من قبيل الوهم الشائع ، فهو في عرفه سيد المجددين ومعلمهم الأول المتواضع الكريم ، ولشاعرية مطران عنده منزلة من السمو لاتعلو عليها منزلة شاعر عربي آخر بين المعاصرين . وهو الذي خصه بقوله (ص ٩١) :

لــو دنــت في أدبي لألف مــؤدبٍ
فأعــز غالي الشعــر من (مطــران)

وهذه صفةٌ كريمةٌ أخرى ينهد أمامها النقد المغرض ، اذ انه من المستحيل اتّهامه عدلاً ببناء شهرته على أنقاض غيره أو على حساب سواه ، بينما سيرته الأدبية كلها تسامحٌ وتعاونٌ ، وخدمات كثيرة للأدباء ، وتضحية ماديةٌ من جانبه ، وكرم أخلاق مجسم ، ونبوغ حق . ولذلك لم يسعني ولم يسع عارفي فضل الدكتور إلاّ الضحك — برغم الأسف — مما يوجه اليه من تحامل واختلاقٍ وتهديدٍ ، ومن محاولة الاصغار من فضله في صحيفة (الكشكول) وفي غيرها بمثل هذا الاتهام المنقوض من أساسه، وبمثل هذه الطريقة السمجة ، ولكن هو الغرض يعمي ويصم ....

ولقد مرّ الزمن الذي كان فيه الفرد الممتاز هو كل شيء ، وأصبحنا في عهد الديمقراطية الذي فيه لكلّ مذهب « مدرسة » وأنصار ، فليس بمستغرب اذا حفّ بالدكتور أبي شادي كثيرون من أنصاره ومحبيه من الأدباء ، فدافعوا عنه ونشروا فضله في غير مجاملة كاذبة ، لاسيما وقد حاول المحافظون زمناً حصر نفوذه في دائرة ضيقة بل حاولوا دفنه ، فلا عيب إذن في ذلك التّعاون ، بل لمثل هذا الوفاء التقدير والاحترام ، وانما العيب في الاسلوب الأناني المخجل ، كأن يخصص مثل شوقي بك جانباً من دخله الطائل المتنوع لمحاربة مناظريه من كبار الشعراء بالأقلام المأجورة حينما هم يقابلونه بالتسامح الكثير ، بل وبالاكرام في المناسبات العامة . وكان الاخلق بمثله أن يتعفف عن ذلك ، وأن يكون مثال التعاون الادبي لا رجل التنابذ والحسد وحب الظهور المتواصل على حساب غيره ، وعابدا التطبيل والتزمير والطنطنة التي لانهاية لها ولاغاية مفيدة للادب ، فان مثل هذا التصرف الغريب مما يزري به بل مما يزري بكثيرين من الشعراء المحافظين الذين قبلوا زعامته (١) ، وهذا طبعاً لايرضينا حباً في

(١) بهذه المناسبة يعجبني تحليل الكاتب المصلح الاجتماعي الشهير ه . ج . ولز لصفات الزعامة الحقة في قصته (البحث العظيم) حيث برهن ان قوة الزعامة مستمدة من هذه الصفات : (١) تجنب الخوف ، (٢) تجنب الحسد ، (٣) تجنب التعصب ، (٤) تجنب الانغماس . وهذه صفات لا أرى لها أثراً للأسف في « أمير شعرائنا » المتشبث « بأمارته » ولا فيمن ينافسونه في هذه الامارة ويغالون في اصغاره حسداً ، ولا بد من حث صفوة شبابنا الناهض من الادباء والعلماء على التطبع بها ، والا فلا رجاء لنا في زعامة المستقبل ، وان تقوم لنا قائمة صادقة . بيد أننا لو أغضينا النظر عن كل ذلك لما ترددنا في النصح الى شوقي بك بانه يخدم نفسه والادب العربي الخدمة الحقة لو أنه تفرغ

الادب وكرامة له . وما كنّا لنشير إلى هذه الحوادث في جهادنا الادبي لولا ما وجه الينا من التحدي والتحامل المتكرر ومالايزال يوجه إلينا حتى يومنا هذا ، ولولا أنها قد غدت سراً غير مكتتم ، وتحدثت عنها معنفة في حقٍ أكثر من واحدة من الصحف الادبية المعروفة . وما أشرنا اليها الاّ متضرعين إلى شوقي بك أن يحاول جهده التخلي عن هذه النقائص والسفاسف والصبيانيات ليكون أهلاً للقيادة الادبية ، وأن يثق بأنّ أشد ناقديه المصلحين أكثر غيرةً على مصلحته الادبية من أكثر الناس غلواً في مدحه وممن يشتري منهم بماله وبغير ماله قصائد اطرائه وحفلات تكريمه العجيبة ، لأنه بطبيعة الحال شاعرٌ مصريٌ عظيم وإن عده بعض حساده شعروراً ، وما يصيب سمعته من سوء يمس سمعة الادب المصري عامة للدرجةِ ما كما نخشى أن يغدو قدوة سيئة لغيره من الشعراء ، بل قد أصبح فعلاً تلك القدوة السيئة . والله يشهد أننّا ما أصبنا ولا أصاب

=

مثلا الى ترجمة (الاوديسة) شعراً كما ترجم المرحوم العلامة البستاني (الالياذة) ، فان هذا العمل أجدى وأصلح من الاعلانات الموعز بها ومن حفلات التكريم المصطنعة ، وان سندها الباشوات والاعيان الذين قاسموه نعمة الخديوي السابق ، وان تحايلوا على مجاملة الأدباء لتمثيل تلك المهازل التي تخفض في الواقع قدرنا الأدبي بدل رفعه . ومثل ذلك الأثر اكرم مراراً من التحايل على وزارة المعارف لتقرير شعره في مدارسها مقابل جزاء مالي بينما المستر برنارد شو الذي ليست له ثروة شوقي بل ولا جزء محسوس منها يرفض جائزة (نوبل) لنفعه الشخصي ويطلب توجيهها الى نفع أدبي عام . وهكذا أخلاق كبار الأدباء في الغرب ، وهذا هو مقياس الفرق بين مصر وأوروبا . . .

شاعرنا (١) من ورائه أدنى مغنمٍ لامادياً ولا أدبياً حتى نهبه المدح

(١) كثيرون يعرفون أن شاعرنا نصف عصامي في نشأته ، فانه لم يعتمد على ثروة والده في تعليمه الا الى حد محدود . فقضى اعتداده بنفسه وعزتها أن يعول على نفسه ، وأن لا يتقدم في مضمار العمل الا بعرق جبينه وجهده الشريف ، حتى أكد لي أحد أدباء مصر المعروفين ان ما أنفقه والده عليه طول حياته لم يتجاوز ايراد مكتبه العظيم عن نصف سنة ، مع انه كان – رحمة الله عليه – سيد كرماء مصر في وقته . . . فاذا كان هذا موقف الدكتور أبي شادي من نفس المرحوم والده المحب له البار به ، وإذا كان المشهور عنه أنه لا يختلط بالناس مهما عظمت طبقاتهم ويؤثر العزلة ، وانه كبير الشمم طاهر الذمة قوي المبدأ لم يطأطيء رأسه لا حد ، واذا كان مثله لم يتملق حتى دولة سعد زغلول باشا – وان كانت له ولوالده المرحوم منزلة خاصة في « بيت الأمة » – فمن باب أولى هو أرفع من أن يتعلق أحمد شوقي بك بكلمة اطراء بوجهها اليه . فما عززه يوماً الا باعتباره استاذاً من أساتذته ، والمتصدر لا ن يكون شاعر مصر الوطني فكان عليه واجب اكباره ونصرته ، فلما رأى تذبذبه الخبيث نحو النهضة الدستورية والحركة الا ستقلا لية وجه اليه في رفق قصيدته « الكوكب التائه » المنشورة في ديوان (أنين ورنين) فسخط شوقي بك سخطاً عظيماً ، ونسي مودة الدكتور أبي شادي له ، وعنايته بالدفاع عنه أثناء نفيه ، في الصحف الا نجليزية وفي غيرها ، ومبالغته في رفع منزلته ، معتبراً نفيه سبة لا دباء مصر جميعاً حتى قال من قصيدة :

ولـو بيدي وهبتك نصف عمري ... فمثلك عيشه نفـع محقـق
ومثلـك أمـة فـي ذات فـرد ... وعنوان لنهضتنـا ومرمـق
لئـن عـاداك من عادي وغالى ... فقد عادى العظائم فيك أحمق

ولكن شوقي بك أبى الا أن يكون هو الأحمق الذي يضيع بغروره صداقة الرجال ، فسلط على شاعرنا أذنابه الشتامين ، وخذل ثقة الدكتور أبي شادي به ، كما خذل فيما مضى جميع أدباء مصر الواحد بعد الآخر بدون استثناء ، حتى أولئك الذين يطاوعون – عن مجاملة أو توريط – شهوة الظهور المتشبع بها . . . وبلغت درجة سخط شوقي بك وحقده انه تجنب واجب العزاء العادي المألوف (ولو ببطاقة صغيرة) لا سرة المرحوم أبي شادي بك . وكم كان يتزلف الى نفوذه الأدبي ثم الى نفوذه « الوفدي » في حياته حتى أواخر أيامه ، وبذلك حكم على نفسه بنفسه حكماً صارما ، كما حكم على نفسه من من قبل أثر وفاة الأستاذ الشيخ المهدي والأستاذ المكباتي بك لا مثلة أخرى من هذه الحقارة النفسية فضلا عن حكم التاريخ عليه لتصرفه مع المرحوم الكواكبي . . . ومن كان هذا طبعه فالاولى به وبأصحابه أن يتواروا بدل اتهام أسيادهم في الاخلاق والفضائل والذمم بأنهم انما يمدحونه أو يذمونه طمعا في جاهه أو يأسا منه ! ! وهل يطمع في جاه شوقي – على ما هو عليه من الشح – الا أرباب الصحف الوضيعة التي جعلت نصف بضاعتها التمدح به بمناسبة وبغير مناسبة والا ساءة الى بقية أدباء مصر ! !

لحسناته المأثورة في الماضي أو الحاضر مغرضين ، وحتى يدفعنا إلى نقده أيّ دافع سوى غيرتنا على حسن سمعة الأدب المصري الذي ينادي شوقي بك ليل نهار بأنه امامه الوحيد بل امام الأدب العربي عامة ، ويبذل الغالي والنفيس في سبيل الاعلان الدائم عن ذلك في الأقطار العربية وفي اجتذاب المشايعين حتى دفعته الغيرة أخيراً إلى الايعاز بأقامة حفلة تكريمية له على مثال حفلة يوبيل « المقتطف » ولم يكفه انه قضى طول عمره في شراء حفلات التكريم !!

— ٧ —

ومن عوامل اغتباطي بنشر هذا الديوان وغيره من دواوين أبي شادي القضاء على عبادة الأصنام وعلى الزعامات المصطنعة في عصر الفكر هذا . لأنه من السخف أن يشتهر شاعر أو أكثر في في غفلة الزّمان بأبيات معدودة طلية منهوبة المعاني ثم يقف هو وأمثاله سداً في طريق كلّ تالٍ ولاحقٍ ، وان كان الأخير صاحب كفايةٍ وفضلٍ ونبلٍ . وهذا هو ديوان (الشفق الباكي) بين يدي القارىء مزدحمٌ بمبتكر التعابير الجريئة ، وبصنوف المعاني المبتدعة الجميلة التي تمليها العاطفة والفكر والفلسفة ، وبألطف الأخيلة والتصويرات ، وبأشرف الميول الانسانية أو القومية ، وبالنزعات السامية إلى « المثل الاعلى » ، مما تتضاءل بجانبه آثار شوقي بك أو غيره في مقابل سنّ شاعرنا بل فيما بعد ذلك بسنين . وحسبي هذا منبهاً للأذهان للانصراف عن عبادة الأشخاص والمراكز والظهور والثروة ، وإلى أنه لابدّ

من قياس الشعر بمقياس فني خالص لاشأن له بالزعامة المتكلفة أو بالصيت المستمد من عطف حاكم أو من قوة مال أو من نفوذ اجتماعي أو صحفي أو نحو ذلك ، ولتكن منزلة الأديب وكرامته مستمدتين من قوته النفسية وحدها (١)

أتاحت الظروف لشوقي باك مثل المرحوم الشيخ عبد الكريم سلمان ليطنب في غزله :

خدعوها بقولهم حسناء — والغواني يغرهن الثناء
ما تراها تناست اسمي لما — كثرت في غرامها الاسماء
إن رأتني تميل عني كأن لم — تك بيني وبينها أشياء
نظرةٌ فابتسامةٌ فسلامٌ — فكلامٌ فموعدٌ فلقاء

---

(١) بينما كان شوقي وأمثال شوقي يتزلفون الى الوزراء وكبار الاعيان كان أمثال المرحومين الشيخ علي الليثي وعبد الله نديم وعبد الله فكري القدوة الحسنة في المحافظة على الكرامة ورفع منزلة الأدباء عهدهم . يروى عن الشيخ علي الليثي كان واقفاً بباب الخديوي اسماعيل وخرج نوبار باشا ليوصل بعض السفراء ، فرأى الشيخ فحياه باحناء رأسه، فأشار اليه الشيخ بأصبعه علامة على عدم القبول، فضحك السفراء وعاد نوبار مغضبا إلى اسماعيل وقال : « يامولاي لقد اجترأ الشيخ علي الليثي علينا ، فقد حييته فأشار الي اشارة أخجلتني بين السفراء . . . » فأمر به ، فلما مثل بين يديه قال : « كيف لم ترد تحية الباشا » . . . قال : « وحياة رأس أفندينا ما سلم علي ، ولكنني فهمت من هزة رأسه انه يقول لي : تناطحني . . . فأشرت بأصبعي : كلا . . . لانني لست من طبقة ناظر النظار » . . . ! ! فضحك الخديوي وأمر له بجائزة ! قارن بين هذه النفس الكبيرة وبين نفس شوقي الصغيرة التي شرح صغائرها المدهشة من تاريخية وعصرية الأستاذ العقاد في كتابه (الديوان) وان تغالى في مواقف ، كما تحدث عنها أحد كبار الأدباء المؤرخين في مجلة (النواب) والأستاذ السندوبي في جريدته (الثمرات) بعد أن ساقه حسن الظن بشوقي ثم معاشرته اياه الى استكشاف عيوب وزلات له تكاد لا تصدق لولا تواتر الادلة على صحتها من كل جانب ، فأيقن حينئذ خطأه وانخداعه بمظاهر رجل كل همه بنيان مجده الشخصي كما انخدع غيره من قبل .

إلى آخر هذه الأبيات المفككة المسروقة المعاني ، وقال للأدباء الشيخ المرحوم (عفا الله عنه) أنّ بيت « نظرة فابتسامة ... » بيت رائعٌ لانه جمع درجات الحب بين شطريه ، كأنما هذه معجزة من المعجزات ، ولا أدري كم يسخر منّا أهل الأدب الأوروبي لو أننا ترجمنا لهم هذا الكلام التقريري الفارغ المسمّى شعراً ؟ ! واذا كان مثل هذا العبث معجزة أدبية، فماذا تعد أبيات شاعرنا في قصيدته « أمتع الانس » (ص ١٢٥) التي سبقت اشارتي اليها حيث يقول في لذة الحبّ المعنوي :

تسائلني عن أمتع الأنس لذةً
وما الأنس حقاً غير إيناس غانيه !
تنازلت طوعاً عن وعود بجنةٍ
لساعة صفوٍ منك بالحب غاليه !
جمالٌ وتحنانٌ وتيهٌ ورقةٌ
وعطفٌ وإحياءٌ لأحلى أمانيه
تفنّنت فيها عن غرامٍ وسكرةٍ
وأنعشت روحي من قطوفك دانيه
وما الحور والولدان في معرض الهوى
وأنت منال اللذة المتناهيه ؟!

أو قصيدته الشائقة « اذكريني » ، أو قصيدته « الزهر القتيل » ، أو قصيدته « النعمتان » ، ومثيلاتها في هذا الديوان وفي غيره من دواوينه السابقة ؟ ! واذا كان من الاعجاز قول شوقي بك (وهو الركن الآخر من الشعر الخبري الذي بنى عليه شهرته) :

وانمـا الأمـم الأخلاق ما بقيـت
فان همو ذهبـت أخلاقهـم ذهبـوا

وقوله أيضاً :

وليـس بعامر بنيـان قـوم
اذا أخـلاقهم كانـت خرابـا

ونحو ذلك من التقرير الخالي من الروح الشعري خلواً تاماً كأنما هو حديث عابر سبيل لم يعن بالتفكير أو الخيال الشعري قدر ما عني بالتسلية الكلامية قطعاً للوقت كيفما كان — اذا كان ذلك كذلك ، فماذا يعد قول الدكتور أبي شادي عن فلسفة الخلق في قصيدته « عماد الأمم » (ص ١٩١) :

ولم أر كالاخلاق مظهـر أمة
وجـوهرها المحيـي عزيز رجائها
ولا مبدع (١) الاخلاق كالحرة (٢) التي
تغـذي وتنمـي من طهور غذائها (٣)
ومـا العقل والعرفان في الأسر قـوة
اذا كانـت الأخـلاق صرعى بدائها

وما أحسب فخر الأدب بأمثال هذا الشعر التقريري الصرف ،

---

(١) مبدع : منجب ومنشيء .

(٢) أي كالامة الحرة .

(٣) أي الحرية . ولعل الشاعر يشير الى مثل الأمة الأنجليزية الحرة التي نمت دولتها دولتها العظمى بفضل الحرية الخلقية الناضجة قبل غيرها من القوى الأدبية ، وقد عاش بين ظهرانها زمناً طويلا .

وانما أراه ويراه صاحب الديوان أيضاً بالشعر الوصفي الفني وبالشعر التمثيلي الراقي المرجو . ومن العبث ملء اذهان طلبة المدارس بتلك المنظومات الخبرية الشوقية التي لاغذاء فيها للأرواح والألباب ولا تنبيه للأذهان . وانه لمن دواعي الأسف أن يكون خليل بك مطران وحده تقريباً المتفرد بهذا النوع من الشعر الفني بين زملائه الشعراء « الشيوخ » دون أن يناله زهو الغرور ، وقد تساوي مراراً احدى قصائده الفنية هذه جميع ما نظمه شوقي بك وسالكو نهجه من امداح مكذوبة « وحكم » ملفقة وأوصاف مكررة وأخيلة مبرقشة لا معنى لها ، وإن استغفرنا الأدب لهذه المقارنة وأرجو ان لا يعتبر صديقي الدكتور أو غيره من مريدي شوقي بك هذه الملاحظة غلوا مني ، فقد تبدل الزمن وتغيرت كثيراً مقاييس النقد الأدبي .

وإني في الواقع لأشفق على شوقي بك وأتألم لاضطراري الى تكرار الاشارة اليه بحكم المنزلة التي وضع نفسه فيها ، والتي لامفر من التعرض لها في مثل هذا الاستعراض ، حتى وإن شغل تلك المنزلة سواه ، إذ ليس شخصه هو المقصود بالذات كما لا يخفى ، بل إني أتمنى لشخصه كل سمو يقابل اخلاصه وجهده الأدبي الصادق اذا ما بذله . وما اشفاقي عليه الا لأنه يتأفف من هذه الملاحظات النقدية المعقولة حينما لا يبالي بتسليط نيران حسده أو غضبه بواسطة أعوانه على من لا ينالون عطفه أو يأبون أن يسيروا في ركابه سير الأعمى . فاذا ما دافعوا عدلا عن أنفسهم ولول واتهمهم بالغرور والدجل والسخف وشنع عليهم دفاعهم ! وحسبك أن تذكر إنكاره لفضل خليل بك مطران وتسميته « اخوانيات »

مطران وشعره الودي والعائلي الرشيق شعراً «تجارياً »(١) رغم تجلي الفن في كل منظوم مطران على تنوعه ، وكأنما نسي شوقي بك تعفف مطران ووفاءه وعزة نفسه ، حينما هو كان ولا يزال يدير لكل ريح غالبة شراعه ويتصيد المجاملات والمدائح وفرص الظهور كما فعل أخيراً

---

(١) على ذكر ما سماه شوقي بك « بالشعر التجاري » (ناسيا قول الشاعر الحكيم: ياأيها الرجل المعلم غيره . . .) انقل هذه الكلمة الفكاهية للا ديب « ابن البلد » عن جريدة (السياسة الأسبوعية) المؤرخة ٢ اكتوبر سنة ١٩٢٦ بعنوان « شاعر أم مشعور أم متشاعر » . قال الكاتب : « لم يترك علماء اللغة عندنا شيئاً عرفوه الا ضربوا فيه بسهم فبوبوا وفصلوا ونوعوا . ثم بالغوا فخصصوا وجعلوا لكل لفظ مقاما وفرقا . فهم اذا قالوا في الشعر مثلا جعلوا من لفظه مراتب وطبقات لكل منها مقامه وميزته ، لذلك يقولون في الشاعر المفلق خذيذ ، وفيمن دونه شاعر ، ثم شويعر ، ثم شعرور ، ثم متشاعر . والآن بين يدي ديوان – أعني ديوان شعر – اسمه (ديوان أبي النجاة) ، فبماذا يلقب صاحبه واذا كان الكتاب يقرأ من عنوانه ، كما يقولون ، فسأنقل اليك أبياتاً ثلا ثة وضعها صاحب الديوان نفسه – ومن شعره طبعا – تحت صورته الفوتوجرافية « نفسها » ، وأنا ضمين بعد ذلك انك لا تحتاج الى مجهود لكي تختار له لقبا من الألقاب الثلا ثة « رأس هذه الكلمة » . قال حفظه الله :

بلا دي بلا دي أحب بلا دي « طيب »
وادفع عنها العدو الألد « جدعنة »
أنا ابن لمصر ، وبر بأمي « فيك الخير »
فمن ذا يعنف هذا الولد . « أبداً ما فيش حد »
فكيف أروح ، وكيف أجيء « لا تروح ولا تجيء »
وأمي بأقسى القيود تشد « اقعد جنبها »

هذا ولا أريد أن أبخس حضرته حقه ، فان « لا مير الشعراء أحمد شوقي بك » في أول الديوان اثنى عشر بيتا من الشعر تقريظا للديوان . وأقل ما فيها هذا البيت يخاطب « صاحبنا » .

وديـــــوانـــــا جلـــــوت فكـــــان راحـــــي
فضضـــــت دنانـــــه قبـــــل السقـــــاة

واذا كانت الأبيات لشوقي بك حقيقة ، حق علينا أن نعرف الشعر بأنه معنى في بطن الشاعر ولا يعرفه الا امراؤه الا شعرون . . . ! !

على حساب تاجور . . . ! فأيهما صاحب الشعر « التجاري » ! ؟ وأيهما المتقلب الذي يأسره حطام الدنيا(١) ! ؟

(٨)

ويقيني أنه لولا شغف المصريين المشهور ومن نحا نحوهم بالحلاوة اللفظية وبالجرأة في المفاجآت لما استطاع شوقي بك أن يغر هذا الغرور بنفسه بينهم ، وأن يدعي أنه شاعر المشرقين معتمداً على ثروته غير المكتسبة ، وعلى خيلائه واعلانه المتواصل عن نفسه . . . وكان الأولى به أن يكتفي بما حكمت له به آثاره من منزلة بالنسبة لسابقيه ولكثير من معاصريه في طريقته التقريرية البسيطة التي لا أعدها من كيان الشعر الراقي الفذ ولا من روحه وانك لو فتشت مجموع شعره لما وجدت قصيدة فنية واحدة بالمعنى الكامل مثل قصيدة « مملكة إبليس » أو قصيدة « ممنون الفيلسوف » أو قصيدة « الربيع » أو قصيدة « الرؤيا » أو قصيدة « الموسيقى » ونحوها لشاعرنا ، حتى ولا مقطوعة صغيرة مثل أبيات أبي شادي في « إلهة الجمال » و « مامون » و « أوراق الخريف » و « الفنان » و « الراقصة » و « عرس الأصيل » ونحو ذلك ، وانما تجد أبهى ما عنده من نوع قوله :

إرفعـــــي الستر وحيـــــي بالجبيـــن
وأرينـــــا فلـــــق الصبح المبين!

(١) من أعجب أمثلة الأنانية والمادية سعي شوقي بك لدى وزارة المعارف لتقرر المختار من شعره على الطلبة بثمن معين تدفعه له ، دون المبالاة بغيره من أكابر شعراء مصر ، بينما « تاجور » شاعر الهند العظيم ينفق من ماله كثيراً على تهذيب أبناء وطنه وليس هو بأغنى من شوقي بك ! فتأمل !

مما فيه رنة موسيقية فقط ، أي مجردة من الخيال الفني المصور المجسم ومن المعاني العصرية المستحدثة . وبعد هذا ينتقد شوقي بك وأنصاره تفنن أبي شادي — عن طبع شعري مفطور — ويأخذون عليه حتى ما يبثه في شعره من ظلال المعاني الجديدة للمفردات القديمة أو أو ما يستحدثه من مفردات وتراكيب لها روح هذا العصر ورونقه ، ويصفون « بالحشو» هذا الابداع من شاعر فياض مطبوع ينافي طبعه الأصيل كل تكلف وحشو ، كما يتجاهلون اطلاع الدكتور اللغوي بل تعمقه المتواصل بدرجة شاذة في أديب تربى تربية أوربية ، ثم يبنون على هذا التجاهل أوهاماً سخيفة من النقد ! !

وقد تفشت نتائج هذه القدوة السيئة حتى بين من ينتسبون للتجديد وكنا نكبر آمالنا فيهم ، فاذا بنا الآن في عهد تنافس قبيح على الزعامات الفارغة ، وفي زمن تنافس غير شريف مبدؤه ان الغاية تبرر الوسيلة، وإن خسر الأدب ، فصار اللوم غير قاصر على شوقي بك وحده وان وان كان هو السبب الأصلي لهذه الفوضى .

ولا أدري ماذا يقول القارىء عند ما يقارن بين النظم الشوقي العذب الرنان الذي لا تجسم أوصافه شيئاً ، ولا تظهر لنا بواطنه ودقائقه ، وبين هذه الأبيات الوصفية الفنية البديعة لشاعر عربي قديم :

سقـــــى العلــم الفرد الذي في ظلاله
غـــزالان مكحـــولان مؤتلفـــان

اذا أمنـــا التفا بجيـــــدي تواصل
وعينـــاهما للريب مسترقـــان
أردتهمـــا ختـــلا فلم استطعهما
ورميـــاً ففاتـــاني وقد رميانـــي!

لقد تفنن المتقدمون في أساليب البلاغة والكلام الجامع وفي جعل اللغة والمفردات طوع ارادتهم في التعبير ، فقال أحدهم راثياً السلطة والعظمة :

قـــد خططنا للمعـــالي مضجعـــاً
ودفنـــا الدين والدنيـــا معـــا

فكان بيته هذا بمثابة قصيدة كاملة .

وقال آخر في ذم الشيخوخة ووصف مظهرها :

وأصبحـــت « كنتيـــاً » وأصبحت عاجناً
وشر حيـــاة المرء « كنت » وعاجـــن!

فاستعمل « كنتياً » بمعنى شيخ مسن (نسبة الى « كنت . . . !) وشبه انحناء ظهره من الشيخوخة بانحناء ظهر العاجن ، وعطف لفظ « عاجن » في آخر البيت على « كنت » وهكذا خالف قواعد اللغة ، ومع ذلك كانت هذه المخالفه من أسباب انشائه هذا البيت التصويري البديع ، بينما لدينا من المعاصرين من يقيم القيامة على ما دون ذلك بكثير من إباحات نظمية محسنة أو تراكيب مبتدعة ، وينسبها الى ضعف

الأدب(١) ويكيل جزافا الاتهام بالركاكة والغثاثة والقبح وافساد اللغة والشعر !

وقال أبو فراس :

ان زرت (خرشنـــــــة) أسيرا

فلقـــــــد أحطت بها مغيـــــرا !

فجاء بلفظ واحد هو كلمة « أحطت » لتصوير هيبته وجرأته التي كأنما تحاصر تلك المدينة ولو كان أسيراً فيها ! !

---

(١) لعل بعض سادتنا الجامدين يقتنع بان الابتداع في التركيب وفي استعمال الألفاظ قد يزيد البلاغة نصوعا وقوة أو ان فيه تنبيها خاصاً للاذهان لا غنى عنه اذا جئت لهم ببعض الشواهد من كتاب الله تعالى الذي نسترشد به وحسبي أن أنظر الى « سورة الشعراء » مثلا ، وهي ما اتفق ظهوره أمامي عند فتح القران الشريف ، وأن أنقل منها هذه الآيات الكريمة :

« لعلك باخع نفسك ألا يكونوا مؤمنين » — (باخع) هذا بمعنى قاتل ، ولكن في مخارج حروفها قوة ليست في كلمة (قاتل) . فما رأيهم في صيغة هذه الكلمة وفي استعمالها وفيما سيأتي ذكره .

(٢) « قالوا أرجه وأخاه وابعث في المدائن حاشرين » — أرجه بمعنى أرجئه أي أخره أو اسجنه ، وحاشرين بمعنى جامعين للناس .

(٣) « قالوا لا ضمير انا الى ربنا منقلبون » — منقلبون هنا بمعنى راجعين .

(٤) « وبرزت الجحيم للغاوين » — برزت أي كشفت .

(٥) « واتقوا الذي خلقكم والجبلة الأولين » أي وذوي الجبلة الأولين ، وهي بمعنى الخلقة والطبيعة .

(٦) « فيقولوا هل نحن منظرون » أي ممهلون .

فهذا الابتداع والاختيار الخاص للالفاظ واستعمالها بايجاز واكتفاء ومجاز هو من أسرار القوة في هذه الآيات الحكيمة ومن دواعي الالتفات اليها ، ولوفقه هؤلاء السادة الجامدون شيئاً من فلسفة اللغة لخففوا من غلوائهم كثيراً ، ولما أسرفوا في رمي سهامهم الطائشة . وقد نال هذا البحث اللغوي الانشائي كثيراً من عناية شاعرنا ، ولعله يوفق في المستقبل القريب الي نشر ارائه هذه عن شواهد القران الشريف في كتاب مستقل .

فماذا يطمح اليه شوقي بك وأمثاله من المحافظين وأشباههم المتمسحين بالتجديد ، المتقاتلين واياه على الزعامة ،من متابعة هذا إلا سلوب ؟ إنه في رأيي لم يأت بشيء جديد غالباً،وما يظن جديداً إن هو إلا سرقات يعرفها المطلعون ، وان انطلت حيلته على الغافلين من القراء ! وخير له ولنا ألف مرة أن يوجه جهوده بدل ذلك نحو الشعر التصويري والشعر القصصي الفني والشعر التمثيلي ، فضلاً عن الشعر الانساني العام ، كما يفعل شاعرنا وغيره من الشعراء المجددين في عالم الثقافة .

(٩)

نظم حافظ بك ابراهيم للأميرة نازلي بواسطة ابراهيم بك المويلحي هذا البيت لينسج على ستار خاص بخدرها أو غرفتها الخاصة :

نسجتنـــــي يـــد العفاف ودونـــي
عصمة في غنـى عن الأستـــــار !

فسرت به سروراً عظيماً هذه الأميرة الأديبة ، وأعطت المويلحي بك مائة جنيه جائزة سنية . ولكننا لا نعلم أن حافظ بك استمر على هذا الأسلوب الوصفي المبتكر ، وما ذلك الا لأنه تأثر برغبات المحافظين كما تأثر شوقي بك وغيرهما ، فكانت النتيجة أننا لا نزال محرومين من أمثلة كثيرة للشعر الفني الذي يقوم فيه الخيال المجسم مقام الحقيقة ويقترن بالوصف التحليلي ، لا أن يكتفي بوصف الحقيقة المجردة المحرومة من نفحة الفن . وشتان ما بين الشعر الشوقي المألوف وبين شعر مطران في قصيدته التي يمثل فيها تمثيلاً فنياً صورة « البراءة » (راجع صحيفة « النواب » المؤرخة ٣٠ سبتمبر سنة ١٩٢٦ م) قال حضرة الأديب الفاضل ناشر تلك القصيدة : « . . . وهناك ظاهرات أخرى

في شعر الخليل أحببنا أن تكون على حدة وقريبة من أمثلتها . من هذه الظاهرات قلة الاستعانة في التشبيه بآلات المعرفة ، وهذا هو المثل : قال في تخييل ما يحق أن يقام على قبر سري كريم قتل في قصره وتناولت ألسن السوء سيرته من بعده بالمفتريات الظالمة :

تلك البراءة فلتمثل في حلي
عذراء تزهو بالجمال الخالب

وعلى ضريحك فلتشيد صورة
من مرمر صاف لتلك الكاعب

الصبح طلعتها ، ومعدن حسنها
(عدن) ، وتاج الرأس عقد كواكب

للروح في قسماتها لطف يرى
والجسم طهر مفرغ في قالب

قد شارفتك فلطفت بتبسم
عذب مرارة دمعك المتساكب

وبأنملات كالأشعة أو مأت
تنفي ظنون السوء نفي غياهب

وبأخمص متثاقل داست على
منساب حيات سعت وعقارب

رمزا الى أهل السعايات الألى
فشلوا وباؤوا بالرجاء الخائب

فاذا استتمــــــت واستــوى تمثالها
ملء العيـــون بحسنه المتناســـب

كن ملتقـــى لأشعة من لحظهـــــا
تـــــرمي بها عن قوس أرأف حاجب

ولينــقشـــوا لك صـــورة يبـــدو بهـــا
ما كان من عجـــب بشأنك عاجـــب

نقشـــاً يلان له الصفا وبه ترى
فـــي شكل مظلوم أسيف شاحـــب

تحـــت الجراحات التي في جسمـــــه
أدمـــي جراحات الفؤاد الذائـــب

جاث على أقدامها ، بلغ الأســـى
منـــــه مبالغـــه وليس بغاضـــب

لا عمـــره المفقـــود علة بثـــه
كـــلا ، ولا نعمـــى الثراء الذاهب

بل جور قوم كان فيهم غرة
للمستعـــز وغنيـــة للطالب

أدروه مـــا لم يدر قبل ممـــــاته
مـــــن صد أحباب وبعد أقارب

لم يكفهـــــم أن مات حتى عكروا
بغبارهـــم جو الشهاب الغارب

وأشـــــد في التنكيل من كأس الأذى
وضـــع القذى في كأسه للشارب

يرى القارىء في هذه الأبيات صورة تامة حسية ومعنوية لتمثال تخييلي للبراءة في صورة عذراء طاهرة مبتسمة للمظلوم ، مغرية اياه ، مشيرة بيدها النورية الى نفي الظنون عنه ، دائسة بالأخمص المتثاقل — تثاقل الاحتقار والازدراء — حيات السعاية وعقارب المتقولين . ويرى القارىء حسا ومعنى عند أقدام هذه العذراء صورة المظلوم المقتول جاثية ، فيها جراحات الجسم ومن تحتها جراحات القلب ، وعلى الوجه الأسف والشحوب . فالأسف على جور قوم وغدر أهل كان فيهم عزة المستعز وغنية الطالب والشحوب لون المقتول الذي استنزف دمه وجرع كأس الأذى بل كأس الردى مشوبة بالقذى، فذاق النكالين : الشديد والأشد . ولكن تمثال البراءة يعزيه ويسري عنه لو أن التماثيل تعزي ، والعبرة تنطق من نواحي الصورتين لو أن الناس اعتبروا بالصور . . . على مركبات نقل الموتى بعض صور ملائكية تستنزل الرحمات ، ولكن الشاعر أبي الا تمثال البراءة وتمثال المظلوم وصورة أهل السعايات على القبر — والقبر المنزل الخالد ، والعبرة به أدوم من العبرة بتمثال (ملك) يبرأ ، أي على مركبة تقل الجثمان ساعته الى مقره الأخير . وصورة البراءة من المرمر الصافي ، ولكن الشاعر أبي إلا أن يكون لها الصبح طلعة ، و (عدن) لها معدن حسن ، والكواكب لها تاج رأس ، ثم أبى إلا أنه يرى الرأيي الروح لطيفاً في قسماتها ، وجمع وشمل وضم بعد ذلك فقال : « والجسم طهر مفرغ في قالب » ، وهذا هو الترتيب الطبيعي بعينه ، والواقع في تبين المرثيات يزري بتنبه المثال في استيفاء الصورتين المادية والمعنوية. ويلحظ معنا القارىء ان المقطوعة — وهي أوصاف وتشابيه — لم تتضمن غير كاف تشبيه واحدة ، فالصورة الشعرية من أولها الى آخرها مخلوقة

منظمة إذن في خاطر الشاعر من قبل أن يبرز منها شيئاً في أول بيت » ؟

— ١٠ —

إن الأدب السليم لا يعرف فوارق الجنسية ولا الدين ولا المهنة ولا السن ، ولا أشباهها ، وفي الحق لامفر لنا من أن نعترف بأن الشعر الذي يمثله أدب شوقي المصري المولد هو دون المرتبة الفنية التي بلغها شعر مطران السوري المتمصر ، وان بذل شوقي الكثير من جهده لتجسيم مزايا مصريته وتقبيح سورية مطران وفي الحق لابد لنا من أن نعترف بأن معظم الأدباء المصريين حتى بعض من ينتسبون الى التجديد مولع بالألفاظ ، وبالرنة الموسيقية الجوفاء ، وبالتقاليد وإن كانت خطأ في خطأ . ولذلك أكرر في هذا الاستعراض أننا ما لم نفقه تعريف الشعر الفني ، وما لم نطبق ذلك التعريف بأمانة تامة ، وما لم نعط كل ذي فضل حقه من التقدير ، وما لم نتخل عن الفكرة السخيفة من أن المفروض في الأديب أن لا يكون صاحب مهنة ولو كان في زمرة أهل الكوكايين والدعارة ، فسوف نبقى طويلا في موقف التقهقر أو التردد أو الانحطاط الذي لا يناسب حضارتنا وثقافتنا . والأولى بنا أن نعترف بأن الملكة الأدبية وراثية (وان لم تكن مباشرة) قبل أن تكون نتيجة الدرس والاطلاع ، وان مهنة الطب التي لم تحل دون نبوغ أمثال الدكتور أبي شادي والدكتور فياض والدكتور شدودي والدكتور رفعت والدكتور ناجي والدكتور علي الناصر في الشعر والأدب عامة ، والدكتور شميل في الفلسفة ، والدكتور سعيد نبيه والدكتور عبد الرحمن عمر في الخطابة ، والدكتور شرف والدكتور أحمد عيسى في الأدب اللغوي ، والدكتور حسين فوزي في التأليف القصصي ، والدكتور

صبري في الموسيقى ، ليست بحـال خصماً للنبوغ الفني ، بـل هي زميـل وفي معين بغض النظر عن الاستعداد الفطري والمواهب الوراثية لأولئك النابغين وها هي أمثلة ذلك في أوروبا وأمريكا تعد بالعشرات .

— ١١ —

وأملي أن يكون القارىء اللبيب قد اقتنع من تصفحه للديوان بأن صاحبه ليس من المتجردين غالباً وإن كان من المجددين تجديد الشاعر الانساني الحرّ المفكر ، فالتجديد غير التجريد ، وإن هو الا سنة كل أمة حية ، بينما التجريد في الغالب من مظاهر الأمة المقهورة ، أو التي لاتراث لها يعتد به . وما التجديد بالمعنى الصحيح من علامات الضعف كما يحسب بعض النقاد ، بل على العكس أراه من أمارات القوة والغيرة على المنزلة القوميّة الأدبيّة ، وقد يكون المجدّد محافظاً في مواقف ومناسبات ، بينما المحافظ المتعصب لن يكون مجدداً بل يؤدي به تعصبه لأن يكون رجعياً . وعلى كل حال فكما أن المجدد في مجموع صفاته غير المحافظ ، فكذلك المجرّد غير المجدّد ، ومن نزعات المجرد الهدم ، بينما نزعة المجدّد التعمير أو البناء بعد الهدم ، وقد يكون من فائدة الأدب تناظر هذه القوى الثلاث أحياناً . واذا كان القارىء في حاجة إلى برهان أضافي فليقرأ قصة (مها) لشاعرنا وليقارنها بقصته (**عبده بك**) ، فيراه المحافظ في الأولى نسبة ، المجدّد في الثانية ، وبينما هو يلجأ إلى السهل الممتنع في الثانية ترى أسلوبه الجزل ناصعاً في الأولى ، وترى أنه علا بلغتها علّواً كبيراً يتناسب مع ما في القصة من عواطف سامية ، ويتفق مع ما فيها من

عظات مؤلمة ، وكيف أنه أخضع نفسه لوزنٍ واحدٍ وقافيةٍ واحدةٍ في كل نشيد من أناشيدها ، فكان في ذلك إفحام لسادتنا الجامدين الذين يحسبون أنهم ألموا كلّ الالمام بأطراف الأدب ، ولم يتركوا شاردة ولا واردةً فيه الاّ وأحصوها ، وما دعاهم لذلك الاّ بلادةٌ وضعف عن التقدم أصيلٌ فيهم ! ولقد أجاد الاستاذ فؤاد الخطيب حين قال :

وفي بــلادة بعــض النــاس فلسفــة
فــلا تهمهــم الدنيــا وما فيهــا !

وهكذا أحسن شاعرنا صنعاً بمجاراة القوم بعض المجاراة ، فأسقط حجتهم ووضع حدّاً لغطرستهم،وطلع عليهم بدليل جديدٍ من ديباجته النقيّة ومن قوة أسلوبه وتضلعه اللغوي وجدة تشابهه الشائقة وتفكيره الانساني العميق . وهذا ما يحسن به كلّ ذي فطنة وشعور عند تصفح هذا الديوان ، بل كلّ من يشتهي تذوق الأدب الناضج بخواطره وأوصافه وعواطفه وتأملاته وفلسفته التي لن يملّها الأديب المطبوع .

ولعل من خير مواقف الشاعر دفاعاً عن أسلوبه ومجهوده وخطته قصائده البديعة « واجب الفنّ » و « نسب الشّعر » و « رسم الطبيعة » و « نقد الشّعر » و « جهد الاتقان » و « صداقة الأدب » و « الشعر والطب » و « شعر الثقافة » و « إلهام الشاعر » و « تأملات » و « الدنيا » و « جزائي » و « وفاء الدين » ونحوها ، فليراجعها القارىء ليرى كيف أنّ اعتداد الشاعر بنفسه ودفاعه عن آثاره متفقٌ مع طموحه إلى « المثل الأعلى » ومتفقٌ مع عدم قناعته بخدماته السابقة رغم

قدرها المأثور . وهذا مبدأ من أشرف مبادىء الرّفعة والتقدم ، خليقٌ بأن يستوعبه أدباؤنا على تباين طبقاتهم ، وضمينٌ بأن يقضي على عادة الموازنة المكذوبة والتحاسد والتذبذب والتنافر والكبرياء المصطنعة التي لم يربح الأدب من ورائها شيئاً مطلقاً . ومن يتعامى بعد ذلك عن هذه الحقائق الشريفة القمينة بالحمد فانما يحكم على نفسه بالمكابرة وانكار الفضل لغرضٍ في النفس مما لايليق بالأديب الناقد النزيه .

— ١٢ —

قلت إنّ شاعرنا رغم اعتداده بنفسه ورغم ثقته بمبادئه ورغم مجهوداته الكثيرة ليس بالقانع المتواني ، فهو يدعو إلى الشعر الفني الصادق وإلى التخلص من الأساليب التقريرية التقليدية التي لا تناسب الروح الفنيّة العصرية . وله أن يَ سخر من الموازنات السخيفة بين كبار المعاصرين وفحول المتقدمين من الشعراء ، لأنّ الموازنة يجب أن تكون بين شعرائنا ومعاصريهم من الأوروبيين ، فلكلّ زمنٍ رجاله ، ومن العبث المقابلة بين شوقي والمتنبي ، أو بين مطران وابن الرومي أو بين حافظ والبحتري مثلاً ، وانما الموازنة النافعة الصادقة تكون بينهم وبين نظرائهم الغربيين ، وحينئذ يظهر لكل ذي بصيرةٍ مبلغ شغفنا بالقشور قبل اللباب ، وكيف أنّ الشّعر الأوروبي العالي ليس عقوداً من بديع المعاني والألفاظ فقط ، بل أيضاً صوراً فنيّة مبتدعةً تجسيماً للحقيقة وإظهاراً لروحها وتقريباً لها نحو أفهامنا وأذواقنا وأخذاً بيد الانسانية . وقدرة الابتداع الفنيّة هذه تكاد تكون معدومة في الشعر العصري بين أبناء العربية . فهل يجوز أن نلام بعد ذلك اذا آخذنا مثل شوقي بك — وهو زعيم طائفةٍ كبيرة من الشعراء المحافظين

حتى جرت العادة وقضت الحفلات المصطنعة بتلقيبه « بأمير الشعراء » — على تشبثه (بالنسبة لروح عصرنا) بعتيق التراكيب والمعاني والأخيلة في معظم شعره ، وعلى ابتعاده عن الطريقة الأوروبية الفنيّة التي هي أحسن قالب لشعر القرن العشرين ، وربما لما بعده أيضاً ؟ من الوجهة الذوقية الروحية .

— ١٣ —

من العبث أن يتوهم اخواننا المحافظون أنّ الكلام الجامع من خصائصهم أو أنّ فيه الغنية للأدب ، وقد تحدث صديقي العلاّمة الأستاذ عاشور عن ذلك في ذيل قصة (**عبده بك**) وأتى بشواهد كثيرة من هذا الديوان اقتطفها في ساعة اطلاع ، ومع ذلك ففيه أمثلة أخرى كثيرة من هذا القبيل أذكر بعضها هنا للتأمل وللفائدة الدراسية التي يحرص عليها طلاب الأدب .

قال الشاعر :

مثـل الغبيّ اذا غـدوت دليلـه
مثـل الضريـر اذا استحـال بصيـرا

فكلاهمـا يجـد الظـلام نصيـره
ويعـاف من سبـل الضيـاء نصيـرا

ونظمـت شعـري من شعـور عبادتـي
(للحسن) ، فهو من (الحياة) أجـلّ !

الخيـر والشـر توأمـان
مـن خالـد الكـون والزّمـان

تفرّقــا ظاهــراً ولكــن
تلاقيــا عنــد كــلّ أنٍ
كلاهمــا هادمٌ لخلــقٍ
وهادم الخلــق بعــد بــان
ينفحــان ويصلحــان
ويفحصان ويهديــان !

أجيــزوا مــرّةً لومــي
فيــوم فخاركــم يومــي
وأكــرم أمــةٍ عرفــت
جلالــة مجدهــا القومــي
فــلا باللهــو تحفظــه
ولا بالتّــرك والنــوم
ولكــن مــن تشبثهــا
تشبــث حافــظ الصوّم !

هــل قيمــة النــاس في مــراءٍ
وفي مقــالٍ وفي رنيــن .
وقــد تخلّــوا بــلا حيــاء
عــن كــلّ صدقٍ وعــن حنيــن ؟ !
وقــد تمــادوا بــلا انتهــاء
تمــادي المجــرم اللعيــن ؟ !

جمــال الحيــاة حيــاة (الجمــال)
وفي الكــون مــا يشبــع المنطقــا

فـودع همـوم الغـرام الضريـر
ونـاج (السّنـا) الباسـم المونقـا
حياتك أولى بحسـن الخلـود
أضاء الوجـود ولـن يخلقـا

أقـول الحـق مغتبطـاً
ولـو أدى إلى الغـرم
وقـول الحـق قـد يصمـي
ونشـر الحـقّ قـد يدمـي !

شتـيم الخـلال وديعـةٌ وكريمـةٌ
مثـل الجبـال اذا انحـدرن سهـولا !
مثـل (الطبيعـة) في تبسّـط لطفهـا
نشرت على بسـط المروج غسـولا (١)
وما دام جرم (الأرض (يحفظ « نوعنـا »
فلسنـا وإن متنـا بمن صحـب الموتـا !
تصان بهـا أشلاؤنـا ونفوسنـا
موزّعـةٌ فيهـا ، منوعـةٌ شتـى
وما المـوت إلاّ في الفنـاء لأرضنـا

فان دامت الدّنيا فما غنـى الموتـى !
ليـرض النـاس مـا شـاءوا
مـن الأديـان والعلـم

(١) الغسول نبات مزهر كثير التبسط ، قرمزي الزهر أو بنفسجية .

ولكــن في تجردهــم
مــن الآداب والحــزم
نذيــر اليتيــم يتبعهــم
وأوّل مظهــر الصّيّــم

محــالٌ أن يســاد مــآل شعــبٍ
بــه حكــم العقيــدة مــا يســود
ومــا موتــى اليقيــن وإن تولــوا
بموتــى ، فالمآثــر مــا تقــود

وإننــي الرّجــل الحاني على وطنــي
فانّــه صورتي الكبــرى ووجــدان
وأفتديــه بروحــي مــن محبتــه
فــانّ قلبــي بهــذا الحــبّ مــلآن

لكــنّ غايــة أحلامــي وإن بعــدت
أن يشمل الارض باسم (الحب) سلطان
وأن أغالــب ما يوحــي الضلال بــه
للنــاس حيــث جموع النــاس عميــان
عقيــدةٌ لســت أدري كيــف يصغرهــا
مــن يدّعــي أنــه ســامٍ وانســان !

فــانّ الجســم للعقــل المعلــى
كــدارٍ لــن يصاحبهــا الخلــود
وأمّا المــرء فهــو قريــن فكــرٍ
يزيــد بقــاءه الأمــد المديــد

ونعم الفكر إن ضحى بجسمٍ
ولم ترهب جلالته اللحود

إنّ الممالك تحيا من ثقافتها
ولا تعيش بحدّ الصارم القاني

وللشعوب مقالٌ دون ساستها
يدعو إلى الحب لايدعو لعدوان

العلم يرشدها والفنّ يسعدها
ومجدها رفيع عرفانٍ بعرفان

تبقى المآثر في جلالتها
بينا المثالب حولها صرعى

ليس التحاسد ما يحقرها
أقسى التحاسد زادها رفعاً !

ولكم تحكم جاهل أو عابثٌ
ومن المصائب أن نطيع كليلا

و (الجهل) في دست الزعامة نكبةٌ
لاتنمحي عذراً ولا تأويلا

ما أجمل الشورى ، ولكن أهلها
أهل الرجاجة لاجموع رجال

ليسوا بعدّ بل بقيمتهم هدىً
وبما لهم من نبل رأي عال

والفخر كل الفخر في يومٍ به
تغدو العقول معاقل الآمال

ليس الأديب فتى يراعته
والخالب الألباب والسّمعا
بل من يخلّد في براعته
مجداً ، ويورث قومه النّفعا
ويكون عنوان الحياة كما
ترضى الفضيلة عنه إذ يدعى

وما الحياة سوى حب نديـن لـه
بالسعي والجهد والاسعاد والمنن
فـان مضى الحب في تحقير مطلعه
فما غنى الورى في البعد عنه غني !

إنّ الرجاء لأمة (١) لاينتهي
جهدٌ لها إلاّ ويبعث قائد !

لا خير في أدبٍ لمن لم يتّخذ
من طبعه طبعاً ومنه أصولا

وأبلغ الحس في تقدير مفخرةٍ
حسٌ يردّده للدهر شبّان

ليست صروف الرّدى
تكفي لسحق العظيم
لكمّا يأسه
يودي به كالهشيم !

---

(١) أي واف لامة . . .

ليست الألحان من حنجرة
بل حياةٌ عمرها كالأبد !
تنصت الدنيا لها كاسبةً
مثل كسبي من معاني الرّغد !
وتفيني من شفاء قبل ما
أشتفي من فضل طبٍّ في يدي !

الشّعب في غفلةٍ عن فنه كفتى
كزّ اليدين غريبٌ عنه إحسان
كلاهما في ظلامٍ لايحس به
لكنّ عقباه إشقاء وحرمان
إن الفنون غذاءٌ للنفوس ، وكم
تصحّ بعد نفوس الناس أبدان
والنّابه الفحل في شعبٍ يضيّعه
مثل اللواء بعيدٌ عنه شجعان
هذا يضلل مخذولا بعشوته
وذاك أهون ما يرجوه خذلان !

في خطاب سعد باشا بذكرى ١٣ نوفمبر :

(النيل) عدّاً بالمصرو (سعدها)
عدّ الكفيل لها على الأيام
علم البطولة والجهاد : حياته
أبقى وأثمن من على (الأهرام)

أيها أبا الأحرار يومك فخرة
ما كان مفتقراً إلى الأعلام
سير البطولة شعرها آثارها
وهوى البنوة ليس عذب كلام

إنا بعصرٍ نوره في حكمةٍ
وله من العقل السليم نجار
وجميع ما يأبه علم سيدٌ
زورٌ ، وغاية أمره أوزار

المرأة عنوان الرّجل
كالزهرة للنبت الحالي
تبقى مرآة حقيقته
وضمان الخلد لاجيال
وتجود بشهدٍ منتهبٍ
للكون وسحرٍ فعال
فاذا امتهنت واذا شقيت
شقيا بذبول الآمال

فانّ حياة الوغى في سباقٍ
إلى الشرّ موتٌ قبيحٌ لزام

العلم (للاسلام) من جنباته
ما فيه منبوذٌ ولا مختار
فجميع ما توحي الحضارة باسمه
ركنٌ من الاسلام لاينهار

والمسلمــون هم الذيــن تــآزروا
في الصالحــات وللمفاخــر ساروا

مــن يروم الحيــاة لن يعــدم العيـ
ـش ، ومن خاف مــات موت المهانــة !

لايرفــع المعتلــي
الاّ علــى نفســه
فــان هــوى مــن عــل
فالمــوت في يأســه !

تحيــا الشعوب على الكرامة إن غــدت
ترعــى كرامــة مجدهــا وتغــار
والجاحــدون لعصرهــم فمآلهــم
بيــد الهــوان مصائــبٌ ودمــار

ومــن المدامــع ظاهرٌ ومحجــبٌ
مــا كــلّ وجــه نائــح مبلــولا
تجــري الدمــوع الخافيــات بخاطري
وبكــلّ احساسي هوىً مبــذولا
وتفيــض من قلمــي فأنظــم هكــذا
هــذا التنظيم عواطفــاً متبــولا

ما الخلق ؟ ما هذه الدنيــا ومنشؤهــا ؟
ما الفكر ؟ ما الجوهر الباقي ؟ وما العدم ؟
مسائــلٌ هي للأحقــاب باقيــةٌ
كما سيبقى الردى والشك والألــم

أجلْ فرضٍ لهـا وهـمٌ ، وأيسـرة

وهـمٌ ، وقد يستوي الدهماء والعلـم !

أرثي (الخلود) .... وما (الخلود) بدائم

في صورة بـل يتبـع التعديـلا

ما بيـن ايمـانٍ بـه وبضده

كم نتعـب التفسيـر والتعليـلا !

أرثي وأبكي ، والانـام جميعهـم

كالنبـت يهضمـه الزمـان أكـولا

الفيلسـوف كجاهـل ، وكلاهمـا

يفنـى ، وما عرف (الممات) ذهـولا !

هكـذا زورة (الربيـع) أفاني

ن حيـاةٍ ورحمـةٍ وابتسامـهْ

حسنـه طبعـه السفـور ... فهـل تغ

ضي اذا الحسن صار يأبـى اثامـه ؟ !

إني الصغيـر وانّمـا أدبـي

منظـوم مـا تزهـى به رأسـي

مـن نـور انسانـي ومـن تعبـي

بحثـاً ، ومن غرسي ومن قبسـي

أرضى (الطبيعـة) حاكمـاً عـدلا

جنـب (الحجى (وعلى بني جنسـي

و (عوالمـاً) ناجيتهـا طربـاً

ونظمـت ما أوحتـه في همـس !

وعددت نفسي بعضها . فأنا
حيٌّ بها في العيش والرَّمْس !

إنّا بعهدٍ غدا نفع الانام به
أدنى من الفخر والانساب للآه

للناس في « الرأي الأصح » خرافة
محبوكة الأوهام للأوهام

هو ما يردد ، حينما ترديده
خاو من الأصداء والأحلام

(عمر) يقول و (بكر) يذكر قوله
كمقاله و (بخيت) بوق كلام

حتى يجيئك (خالد) بهرائهم
لتراه أنت نهاية الأحكام

ان الشهيد مضرجاً بدمائه
فوق الأثيم بدا عليه الغار !

المرأة الحاكم الغلاب في عظم
فان تهن فمصير الشعب للاحن

فما لغير سواها دان غابره
وإن بنا في غد مجداً لها يدن

أجمل بها فتنة غناء سامية
ترد عنه عوادي الدهر والفتن !

والشعـــــب لن يرقـى الى آماله
إن روعتـــــه بطعنهـــا الأقدار
ومــــن المصائـب قوة وجلادة
ومن المصائــــب للأباة فخـــار
ومــع التماسك في الكوارث رحمة
كالصلــــب ردت عن حماه النار!
غمم الحــوادث لن تــدوم وانما
يبقـــى الحجـى والعــزم والاوطار

ليتنـــي ما خلقـــت في الناس حتى
لا أرى غايـــة (العظـــائم) موتا!
و (الجنان) الذي تألـــق وحيـاً
بيـــن عمر مقيد ليس يحيـــا!
و (البنـــان) الــذي ينضــد درا
زينــــة (الفكر) ليس يشغل فكرا!
و (الحكيـــم) الذي يناضـــل جيـــلا
ناصــــر (العقل) قــد تردى قتيلا!
قتلتـــه (الأيام) رغـم انتباه
رغـــم طـــب ورغم مال وجاه
وتركنـــا نرى (الحياة) السخافـــة
ونـــرى (الموت) بعدها كالخرافة!

مـــــن عاش عيشة مفتون بقوتـــه
ينبـــــث من عصف أحقاد له ضرم
سيان والقائـــد الخـــداع أمتـــه
كـــــلاهمـــا عابثـــاً أولى به العدم!
ومـــــع اليقيـــن رباح كل كرامة
ومـــــع التشكك والبكـــاء خسار
وذخيــــــرة الأمم المبادىء حينما
أمـــــم تساء ببأسها وتضار(١)
ياأيهـــــا الناس اتقـــوا ربكـــم
ياأيهـــــا الناس احفلـــوا بالحيـــاه
اصغرتـــم العقـــل بأوهامكـــم
واختـــــرتم الوهم لديـــن الإله
والديـــــن ما كان سوى سعيكم
للخيـــــر لا ذلا لهـــــذي الجباه
مـــــن عاش في دنياه أعمى الحجى
لـــــم يغنـــم الدنيا ولا منتهاه!
والعلـــــم ليس له حـــدود ممالك
لا يرتجـــــى داراً ولا ديارا
كالديـــــن حرمته ولكـــن حظـــه
أغنـــــى وأوفـــر نعمة ويســـــارا

(١) مخففة من تضار بتشديد الراء .

خضعــــــت له الأمـــم الكبار وسودت

أمـــم بـــه كانت تعد صغارا

أعـــود اليــك أستشفي مــراراً

وقــد يغلــو الطبيب اذا استطبا

ولكنـــي العليم بســر دائـــي

خلقــت لكي أحــب وكي أحبا !

لكنمـــا العزة الشماء باقيــة

للعبقـــرية في ذكر ونسيـــان

جـــلالها فوق شارات وأوسمـــة

ولا تـــدين لسلطـــان بسلطـــان

الكون مســـرحها ، والفن ينفحهـــا

برتبـــة الخلد لا شارات بهتـــان !

ترعى بحرمة إجلال لنعمتهـــا

برا يفكـــر وتكوينـــاً لوجـــدان

وكـــم منازل للجهال قـــد خلقــت

جهـــلاً لترعـــى كما ترعى لأوثان !

والحســـن ما لـــم يكن بالحب مجتمعاً

فلـــن يكـــون على الوجدان سلطانا

الشـــاعر الفنـــي ينـــهـ

ـل مـــن حنـــان لا يغيب

فـــي روحـــه وحـــي الجما

ل ووحيـــه روح أذيـــب !

والنجـــــم لـــو يفقه الراؤون نشـــأته

خـــــروا لــــه سجداً من ثورة العجب !

وكـــــم لبيـــب جهول سر قـــوته

فــــــي نظرة منه لم ينصف ولم يصب

واليأس أقبـــح من موت النؤوم ، فكـــم

يستعبــــد اليأس ما قد عز من فطن !

ليســـــت أنانيـــة الحياة جميلــــة

كـــــلا ولا عجز الضرير الواني

واذا تأملـــت الخـــلاف وجـــدته

يحـــــوي بذور الحــــق للانسان

فقــــد مضـــى الوهم مقتولاً بلا نـــدم

وقـــد غدا العقل منصوراً على الحســـب

إنـــا لفـــي زمـــن حصن اليقين به

هــــــو المــــلاذ لدى الأخطار والنوب

ولـــن يذال عظيم في مــآثره

مهمـــــا تقلب دهر أي منقلـــب

لا روح في أدب يعيــــش بغابـــر

ويتيــــــه مزهواً بحس كاذب

والعلـــم والأدب الصميم كلاهمـــا

معنــــــى من الكون العظيم الجاذب

وكـــــم تسمو العروش بلا ملــــوك

فتفنـــــى دون مللـــك للبيـــب

وليس الخلـــد ما يشـــرى بمـــال

ولكـــــن غاية العقل النجيـــب

تبســـم للحياة وكن سبــــوحاً

على غـــدرانها مثل (السقي (١)

وكـــن (كاللوتس)(٢) الضاحي هنيئاً

وإن لـــم ينـــم في ماء نقـــي

تعـــود حظـــه وأضـــاء زهـــراً

وعاش بنعمـــة الحـــر التقـــي

فتعشقـــــه العيون بلا سكـــون(٣)

ويقنـــــع بالحنين المشـــرقي(٤)

وما سر الحياة ســـوى احتمـــال

ســــواء للهنـــي وللشقـــي

لا تحسبـــن اذا ترددت المنـــى

لهــــواً عليك بأنك الفعــــال

إن القديـــر هو المجـــد ويكتفي

بالنقـــــد ذاك العاجز المكسال

شـــتـــان بيـــن أسير حلم خـــاذل

ومحـــرر أحـــلامه الأعمـــال

---

(١) السقي : هو نبات البردي المعروف (Papyrus). قال امرؤ القيس في معلقته .

وكشح لطيف كالجديـــل مخصر وساق كأنبوب الســـقي المـــذلل

(٢) اللوتس : النيلوفر .

(٢) سكون : انقطاع .

(٤) اشارة الى شروق الشمس .

الشعر بالحس السري النائي

أبـــدا يفتش عـــن خفي سعادة
ويطـــــوف في الدنيا طواف ضياء

ويصـــور الأشيـــاء مـــن أصباغـــه
تصـــوير مـــا تلقاه في الأشيـــاء

ويلقـــن الإحســـان في آياتـــه
وروائـــع العلمـــاء والحكماء

ويبـــث من أسمى الشعور مسـددآ
يـــرمي جيـــوش الظلم والجهـــلاء

فلكـــم بيـــان (العرب) ان شئتـــم ولي
هـــذا البيـــان الحسن فهو رجائي

لغتـــي الذي يوحيه ذوقي والـــذي
لبـــى به الأدب الحديـــث نـــدائي

فبكـــل لفظ مشرق لعواطفي
وبكـــل معنى لي نجوم سمـــاء

قلبـــي الخفوق مصاحبآ أنفـــاس
شعـــري ، وما شعري سوى إحساسي

هـــو من أنفاسي وفي مجرى دمـــي
كالحـــب ، فاتحدا مع الأنفاس

مـــن عاش في أسر التصنع هازئآ
بالنـــاس لم يغنيـــم أقـــل جـــلال

تفنـــى الصغائر ، والعظائم وحـــدها
تبقـــى برغم دسائس وضـــلال
ومـــآل هذي الأرض حسن دائـــب
ومـــآل شر الأرض شر مـــآل

اذا جاء (باخوس) العظيـــم مبشـــراً
بأنســـي متى طأطأت في حبـــل رأسي
فانـــي أرد الكأس غير هنيئـــة
فمـــا لذتـــي في الكأس إن صغرت نفسي

يكـــاد يعـــد مع الأنبيـــاء
رجـــال العلوم وأهـــل الذكـــاء
ففـــي كل يوم لهم بـــدعـــة
تهـــز الثرى وتناجي السمـــاء

ولكـــن أوفـــى الورى للورى
وأولـــى الورى بالعلـــي والرجاء
عظـــام يصونون خلق الأنام
ويحيـــون فيهم معاني الإخاء

إن عدت الحرب جرماً والسجون ردى
فضيعـــة الفكر أنكى في مدى التهم

الخلـــق بنيـــان مجـــد
الخلـــق شـــيء عظيـــم

تمضـــــي شعوب ، ويبقـى
بالخلـــق شعـب قـــويم

الضعـــــف ذل ، ولــكـن
الجبـــن مـــوت ذميــــم

ليــس الفخـــار بفـرد
إن الفخـــار العميـــم

اذا تـــذكرت نبـــل جـــرح
لفارس الكـــــر والنـــزال

فـــرب فقر حكـاه نبــــلا
لمحســــن باذج الفعـــال

خيـــر لمثـــلي أن ينسى اذا اقترنت
ذكـــراه بالحقـــد حيث الحقد مأتمها

إن لم أعش لجمـــال الحب في عظمـــي
فـــلا سموت بنفس ضاع أكرمها

فمظـــاهر الدنيا اذا هي عولجـــت
لم تلـــف غير عـــوارض ومظاهر

عـــريــت عن الحسن الأجـــل وإن بدت
حسنـــاء للغـــر الجهول الخائر

ما الناس بيـــن ملوكهم وجموعهم
الا مثـــال تحـــول لعناصـــر

ديـــن الفنـــاء من الزمان مصاحب
لجميعهم ، وجميعهم لتنـــــــاحر
والأسلـــم الأبقـــى العقيدة ، إنها
للنفس أي غنـــى ومجد وافـــر

والشعــــر من صور الحياة لخاطري
والحـــب في جسمي كراح الكاس
فالكاس دون الراح غيـــر عزيزة
وكـــذاك خالي الناس بين الناس

المـــدفع المرهوب يصدأ للبلى
والعلـــم لا يمشي اليه العـــار
وتزول دولات الفتـــوح وتنقضـــي
ظلمـــاً ، ويبقى العلم وهو نهـــار
وتردد اللعنــــات عن حرب مضـــت
أمـــم لمغنمـــها الجدود أغاروا
بينا حرب العلم تبقى للورى
شـــرفاً تشع(١) حياله الأنوار

قـــواده(٢) ملء الزمان ، وعمر هم
أمـــدٌ يـــزيد وكوكـــب دوار
بينـــا جبابرة الحروب حياتهـــم
مثـــل الهشيـــم سطـــت عليه النار

(١) تشع : تتفرق .
(٢) أي قواد العلم .

فـــرد من العلماء فوق مقامهم
جمعـــاً ، وتعلـــن حمده الأدهار
مـــا العيـــش الا الهوى
واللهـــو جنـــب العبـــاده
وأن يجـــد الفتـــى
فيستطيـــب اجتهـــاده
يصـــف الطبيب من العلاج أجلـــه
خطـــراً عليه لكي يغيث مريضـــاً
والطـــب تضحية ، فان هو لم يكن
لم يرتفـــع شرفاً وكان مهيضاً
مـــواهب الانسان من ميـــراثـــه
مهمـــا تبـــدل حظه الأطوار
والجاحـــد الفضـــل الأصيل مثاله
واهـــي البناء مزلزلا ينهـــار
عصـــر به الجبار مال سيـــد
وتســـود أرقام الوغـــي الأرقام
لرنينـــه صوت المدافع في الوغي
إن شاء ، أو لحفيفـــه الأنغـــام
لا الحرب قائمة بغير قوامـــه
والسلـــم ليس له سواه قوام

والعلـــــم والدنيـــا بأنفس ما وعـــت
المــال ســواس لهـــا وإمـــــام

أنـــا من يفتش عن محاسن ناقـــدي
فــأذيعهـــا كمحاســنٍ لجنــاني
حــــب الجمال أراه فوق خصومـة
وأرى الجمال موزع الاحســـان
وأرى الحقيقة لا تحد فمـــا لـــنـا
نهـوى التعصـب في غرور جان ؟ !

مـــن عاش في كنـــف الجمود فعلمه
جهل ، وليس لذهنـــه استثمـــار
إن (السبرمان)(١) ـــ الـــذي حلمت به
أحــــلامنـــا المستبسل المغوار
الدارس الدنيـــا دراســة مبـــدع
لا الأرض تكفيه ولا الأقمـــار

مــــرت مـــلايـــن السنين
والكيـــون مـــا زال الجنيـــن
فلــــم التشـــاؤم (والحيـــاة)
منـــآلهـــا الصيح المبيــــــن؟!

---

(١) هو الانسان الأسمى ، الذي حلم به الفيلسوف الألماني نيتشه وتلا ميذه .

لا خيـــــــر في أدب يســـو
ق النـــــاس ســـوق اليائسيـــن
ســـن (الطبيعة) أن تهيـّــ
ـيء للصـــــلاح وأن تعيـــن

ان الجــــــذور هي الحياة وان تكـــن
فـــــي الترب ناميـــة بغير تسام

ومعـــاهـــد البحث الصحيـــح جلالها
لا المـــــدح ينصفه ولا الا يثـــار
هـــــي مهـــد مرجو الحياة لقابل
فيــــــه يعز جناحهـــا الطيـــار
هـــــي شعلـــة مخبوءة من بعضهـــا
تتناسخ الآمـــــال والأعمـــــار

أكرم بمن أبقوا كـــذاك سناءهـــــا
وعلى العقـــــول بها كذاك أشاروا!!

تناحـــــر النـــــاس حباً في الظهور وما
نالـــوا سوى جثة قدر شهم دمهـــا!!
قد شوهوهـــــا فماتـــت من أسنتهم
وعانقـــوهـــا فلم ينبس لهم فمها!
وكلهـــــم بين مطعـــون ومقتتـــل
كأنمــــا غنمهم هـــذا ومغنمهـــا!

* * *

فهذا الشعر الخلقي الوجداني ، وهذا الشعر الاجتماعي الأدبي ، وهذا الشعر الفلسفي المطبوع ، مع جودته فناً ومعنىً وخيالاً ولفظاً — وأمثلته كثيرةٌ في الديوان — ليس في نظر صاحبه نفسه المثل الأعلى الذي تتفق والرّوح الفنيّة التي يتطلع اليها ! واذن فهو يدأب في سبيل تحقيق أمنيته الشريفة ، حينما معظم المشاهير بيننا يتكالبون على الزّعامة والشهرة الزائلة التي لافائدة للأدب ذاته من ورائها وينظرون اليها كغاية لاكوسيلة نافعة لخدمة الأدب والمجتمع ، ولايتعففون عن الاساءة إلى زملائهم وعن انكار فضلهم ، مدفوعين بشهوة هذه الشهرة المرذولة التي لاتخدم النبوغ أقلّ خدمةٍ .

ولابدّ من الاشارة في ختام هذا الاستعراض إلى تباين الأذواق في الحكم على الشاعرية ، ولكن اذا اتبع حكم الناقد الدليل العلمي الفني من تقدير معين لمبلغ القوة الفنيّة والخيال والمعاني وقوّة السبك أمكن الوصول إلى نتيجة منصفة للحقيقة ، وتقاربت بذلك أحكام الناقدين بدل التّضارب العجيب الذي نقرؤه في كثير من الأحوال وأقرب الشواهد على ذلك ما قيل عن الأستاذ عبد القادر المازني ، فقد اتهمه كلٌ من الاستاذين عبد الرحمن شكري وعبد المجيد حلمي بالسرقة وشبّه شعره الاستاذ حسين شفيق المصري « باوحول في طريق العميان » وقال إن ديوانه « كلّه ركاكةٌ وأغلاطٌ بلا طائلٍ من معنى حسنٍ أو غرض ذي شأن » بينما أطنب فيه أمثال الاساتذة عباس محمود العقاد وعبد الرحمن البرقوقي وأحمد شاكر الكرمي وغيرهم ، كما أنشدنا الاستاذ محمود رمزي نظيم :

قد روى (المازنيّ) غلة نفسٍ
ما شفاها مرور عامٍ فعام

(١) يقال : روى القوم أي استقى لهم .

وطوى شعره قريض (ابن هاني)
وطوى بعده (أبا تمام) !

واذا بالمازني يعرض أمثلة من شعره الفني الحق (١) ، كما يعرض علينا هذا الشعر الوجداني الرقيق في « الوردة الذابلة » :

أرجٌ كأنفاس الحبيـ
ـبة حين تدني منك فاها
وغلائل بات الغما
م يجودها حتى رواها
ذبلت وأخلق حسنُها
يا ليت شعري ما دهاها ؟
رويتها بمدامعي
لو كان يحيها حياها(٢)
وضممتها ضم الحبيـ
ـب عسى يعود لها صباها
وزفرت عل زوافري
تجدي فزادت في ذواها(٣)
فرميتها وبرغم أنـ
ـفي أنني من قد رماها

(١) راجع القسم الأول من كتاب « مشاهير شعراء العصر » للاستاذ أحمد عبيد .
(٢) حياها : مطرها .
(٣) الزوافر : الضلوع ، يشير الى جهد الضلوع في الوفير وتأثيره الذي يتخيله . وذواها : مصدر وضعي لضرورة النظم من ذوي بمعنى ذبل .

ولـو استطعـت حنيـت أضـ
لاعـي عـلى ذواي سناهـا
وجعلـت صـدري قبـرهـا
وجعلـت أحشـائـي ثـراهـا !

وفي رأيي أنه من الضروري — خدمة للادب وانصافاً للنبوغ — التباعد عن الاسراف في الاحكام تجنباً لامثال هذه المتناقضات ، وتشجيعاً لمن يستحق التشجيع ،وصيانة لحقوق الادباء.وأملي أن تكون صفحات هذا الديوان بما جمعت من ذخيرة أدبية فنية خير معوان على نشر المبادىء الوطنية والنزعات الانسانية الشريفة ، وتهذيب النفوس والأذواق ، والقضاء على التقاليد الرثة ، وترقية المستوى الشعري في أدبنا المصري الحديث .

حسن صالح الجداوى

* * *

المصدر : كل الدراسات السابقة هي مقدمات وتعليقات على ديوان : الشفق الباكي — أحمد زكي أبو شادي مصر ١٩٢٦ .

مقدمـــات

— ١ —

المقدمة

بقلم الكاتب الأديب الأستاذ سامي الكيالي

١٨٩٨ — ١٩٧٢

— ١ —

. . كم في هذا العالم من قلوب معذبة أضناها الألم ، ونفوس باكية ارمضها الابتئاس ، تئن وتشكو في عالم الوحدة الفسيح فلا يسمع أنينها أحد ولاينصت لشكواها انسان ؛ وتظل غارقة في بحار الأسى غير قادرة أن تسمع شكاتها وانينها سائر القلوب ، وما تزال في وحشتها المؤلمة وكربتها المضنية حتى يقيض الله لها نفساً حساسة تسكن في هيكل شاعر يشجيه ما يشجي تلك القلوب فيبكي في هيكل شاعر يشجيه ما يشجي تلك القلوب فيبكي بكاءها وينثر دموعاً مخضلة هي آلام الحب المبددة ودموع الغرام المسفوحة عند البعض وقصائد مرصوفة من الشعر المؤثر المشجي عند الآخرين .

-وكأني بصديقي علي الناصر ، وقد برأه الله « احساساً والماً » كأني به وقد استمع في سكون الليل وفي هداءته إلى شكاة العشاق وبكاء المغرمين ، — هذه الانات التي زادت بكاءه بكاء — أحب أن ينفث عنهم بعض ما هم فيه وان يصعد تلك الزفرات المحرقة من

جوانب القلوب فكتب هذه القصة التي ان دعاها « قصة قلب » فأحر بها في نظري ان تدعى « قصة قلوب » .

نعم ؛ هي قصة مشجية من تلك القصص التي تمثل لوناً من الوان الابتئاس الذي يخيم على بعض القلوب الشاعرة التي لاتجد هناءها وبريق سعادتها المبدد الا في شرب الكأس حتى ثمالته وفي امتصاص الشيء حتى نهايته . ولقد قدر لصديقنا الشاعر ان يحب — ومن يعلم فقد يكون حبه افلاطونياً ؟ — وان يمر بشبه من تلك الحالات التي مرت بعمر ابي ربيعة ، وبالفريددي موسه ، وان يخلق صلات بريئة طاهرة مع سرب من ذوات الخدور اللواتي لم يبخلن عليه بالنظرات التي كانت تزيد قلبه ضراماً ونفسه اشتعالاً ؛ هذه النظرات التي ترسل اليأس والأمل خيوطاً تتصل بالقلب فتوقف خفقانه تارة وتحييه تارة أخرى ؛ هذه النظرات هي التي انضجت شاعرية صديقنا الشاعر وسكبت على مخيلته فيض الالهام ، وهذا الذي جعله ان لا يترك هذه العناصر تمر بدون ان يغتنمها فاغتنمها وما زال حتى وقف قلبه عند هذه الفتاة اللعوب التي لم ترع الذمام — وحسناً ما فعلت — فجمع دموعه المتناثرة في هـــذه القصة التي لا اعلم مـــا سيكون وقعها عند — ربة هذا الشعر — التي لها دون غيرها فضل صوغـــه بهذه اللغة السهلة التي هي لغة القلوب الصامتة وكفى ! . .

— ٢ —

في المقدمة التي كتبها الاستاذ سارو ليا استاذ التاريخ الحديث في كلية الاداب بالجامعة المصرية لمجموعة من الشعر الأفرنسي اسمها

(Petite Anthologie des poetes Francais » نظرات صادقة في تحديد اتجاه الشعر الحديث أحب أن انقل منها هذه الكلمة :

« نستطيع أن نؤكد كمبدء عام أن الفن الحديث وضع بين الشعر والنثر فاصلاً أشد تحديداً لم يضع مثله الفن الكلاسيكي .

١ — فلقد افتتح الشعر الحديث . وهذا أول ما نلاحظه — ميداناً لم يعرفه الشعر من قبل فهو كشقيق لما وراء المادة وللدين ، ينتقل إلى أقطار الفكرة والخيال والحلم ، يهجر الشواطىء المحدودة التي يسبح بجوارها وجودنا الضعيف ، ليكشف محيط الاسرار الذي يكتنفنا في كل مكان ، يأمل أن يفسر غير القابل للتفسير ، وان يعرف غير القابل للمعرفة ، يرغب ان يشعرنا رعشة الشيء المجهول وان يفهم أو يحذر ما عساه تكون القوى الخفية الاولى التي توجه الحياة الانسانية ، أنه يعمل قبل كل شيء ان يجعل من نفسه سيد القوى من عاطفة إلى غريزة إلى وراثة ، وزيادة على الحياة المحسوسة يسعى ان ينفذ إلى الميدان الغامض الشاسع حيث غير المحسوس ، يتغذى من المشاهد العظمى للطبيعة تلك التي لايراها عبثاً بل يراها « الالماماتر » صاحب الوحي والالهام .

فالشعر عند شللي أو ماترلنك يريد ان يفجأ الوشائج الرقيقة والصلات المعماة التي تربط الحياة الانسانية بالحياة الكونية ، ويجهد أن يعرف المعاني المخبأة لالاف الاصوات التي تنبجس من الهيولى .

٢ — وللدخول إلى هذا العالم السحري يستعمل الشاعر الحديث وسائل وملكات غير العقل الجاف فان الملكة الشعرية تهرب من التحليل وسواءً اسميناها الهاماً أم شيطاناً أم وهماً أم معرفة مباشرة أم حماسة

أم قداسة ، فان خطواتها لاتشابه في شيء ما خطوات العقل المتعقل الجاف . فبالخيال يعطي الشاعر جسماً لأحلامه ويجعل من الفكرة المجردة رمزاً محسوساً ، وبالموسيقى اللفظية والوزن ينال غرضين لما يحققهما علم الجمال تحقيقاً مرضياً . فمن جهة يوقظ الوزن الشعور ومن جهة أخرى يخمد تغير الايقاعات تغيراً على وتيرة واحدة التقدير وينومه كما يهزهزنا المحيط ثم يهدئنا بمده وجزره ، ويترك العقل لجاف ليهدأ ويقاع عن أن يقدم للخيال والشعور مسائل متعبة ليغرق هو في مطالعه الجمال (١) الخ » . في هذا الاتجاه الذي حدده الاستاذ سارو ليا للشعر .

– عناصر نريد من جماعة « المحافظين » في الأدب أن تكون موضع دراستهم وهم في عزلة من عصبيتهم الحمقاء التي ترجع بهم قروناً إلى الوراء بينما الفكر يسير بسرعة البرق إلى الامام ، نريدهم ان يخرجوا من محيطهم الضيق وأفقهم المحدود وان يهجروا تلك الشواطىء التي الفوا العيش بجوارها ، إلى محيط يكشف انا مالا يزال مجهولا عنا ، وينزع عن أعيننا الغشاء أو تلك النظارات الملونة التي ترينا كل شيء بغير اونه الحقيقي؛إلى محيط يصلنا بالمحيط الانساني العام الذي تتقارب الفكرات وتلتقي عند مصبه مختلف الميول .

– ٣ –

وفي هذه المجموعة الشعرية التي تقدم بها صديقنا الطبيب علي الناصر الذي أراد أن يهجر تلك الطريقة القديمة في وصف الطلول والخربات الصم بينما لاطلول ولاخربات صم بل عيش في ظلال

(١) ترجمة الصديق عبده الزيات .

المدينة الوارف ، والذي دشّن حبه الحقيقي بهذه « البواكير » آلتي تصور نزوات نفس كئيبة امضها الألم وقلب مشوق انحله العذاب صورة من الشعر الحسي الذي يريها صدق العاطفة ؛ بل الصورة الصادقة لوحدته وألمه ويأسه وحبه وابتسامه وغضبه والكثير من هذه الحالات النفسية التي كانت تهز منه الفؤاد وتحرك من نفسه الشعور الحساس الذي تترقرق خيوطه على هذه الصفحات ..

سامي الكيالي

المصدر : مقدمة : قصة قلب

مقطوعات شعرية بقلم الدكتور علي الناصر .

مطبعة الشهباء . حلب . ١٩٢٨ .

— ٢ —

مقدمــة

لديوان الدكتور علي الناصر (*)

امين الريحـاني
١٨٧٦ — ١٩٤٠

هذا ديوان طبيب شاعر ، بل طبيب عاشق لا يطيق الحجب والستور. يخلع عذاره كما فعل الفارض صوفياً ، وكما فعل أبو النواس خمرياً ، ويلبس اعتذاره الخلاعة . الطبيعة أمه ، والعقل اخوه ، والحس دليله . طبيب شاعر ، عاشق ، مشرح ، محلل — وللك في التحليل الوجهان — بعشق ، اذا ما تبل القلب ، نقش عشقه ، ويهيم بعد المعشوق بالشك والتسآل .

علي الناصر مدني صحراوي الدم والاديم . بلغ من المدنية ، بطريق حلب فالاستانه فباريس منزلة استقرت بها النفس منه ، وما أمن لها العقل ولا استكان .

وهو عربي بما تقدم حلب من نزوح ، وبما في العروبة من شمم زهرتها تميم ، ومن جرية مهدها البادية واخوانها البدو . غريزة بدوية ، في عقلية علمية ، في روح مدنية — هو ذا علي الناصر الشاعر الطبيب .

(*) ديوان « أنا » .

وان أفق شعره ليحيط بنزعات متعددة ، متباينة وبأساليب هي عنوان الفتوه متنوعة البذور ، منها زاهر ، ومنها ما لا يزال في البراعم والاكمام .

ان الديوان مجموعة نموذجات لا تغرب أسبابها ، ولا تخفى حلقات اتصالها ، اذا ما ذكرنا المدنية والبادية ، وذكرنا كذلك ان نسمة مسيحية تغلغلت في فؤاد الناصر من سلف لأمه .

فمن البادية الى الآستانة الى باريس ، ومن دار العيادة الى الدير الى الكنيسة تخشن الصناعة وتدق ، وتغلظ الألفاظ وتلين ، ويظل هناك ما يحتاج الى شيء من الصقل أو الابداع .

ولكن الناصر صادق اللهجة في كل حال . وهو في صدقه قاسٍ لا يرثي حتى لحاله .

« لا استقـــر على شيء تلامســـــه
يــــدي ، وتجذبنـــي كـــذابة الشفق »

وهو فوق ذلك قويم الجادة ، حاد المزاج ، سريع المفاجأة ، مدني الاشارة آنا وآنا بدويها ، يهمس ويصيح ، ويجابه ويشيح ، ويحنو للحقيقة ويحن اليها قبل كل شيء ، روحه تارة :

« مخفوضة الرأس ايماناً بسؤددها »

وطوراً :

« رقشـــــاء قد زانها جلد يزركشـــه
زاهي الضياء وذوب التبر والصـــدف»

هي ذي الحقيقة من قلمه له وعليه . وهاك الادلة :

فأن له نهمات فظيعة (١) ونفحات شذاؤها من البنفسج والياسمين (٢) ومن العجيب ان الذئب والغزال يرعيان في قلبه ولا يتعدى الواحد غابه أو حماه .

ومن نموذجات هذا الديوان ما هو قديم كقصيدتي «

« الربيع » و « الغيرة » . فقد تقدم الناصر فيهما الف شاعر وشاعر ، وما علا على المألوف المبتذل ، وبرز صناعة وفكراً وشعوراً ، غير افراد منهم في الشرق وفي الغرب ولا اظن الناصر يعيد أو يكثر النسيج على هذا المنوال . أما قيمة الديوان الحقيقية فهي تنحصر ، على ما ارى ، في ما يصح ان يدعى شعر الاقتضاب . لا أريد بذلك ما هو متعارف كالارتجال أو كالهجوم على المديح بعد الغزل بل هو الهجوم على الموضوع بسهم ينفذ الى قلبه ، وبما لا يخلو من شبه الارتجال.هو الشعر الجديد نظماً وتقطيعاً ولهجة . فيتناسق وروح هذا العصر السريع التنفس والسير ، القليل الصبر على المسافات الفنية والتمهيدات الشعرية . قل قولك بكلمة وجيزة ، بليغة وامش مسرعاً إلى غرضك.هي روح هذا الشعر الجديد . وهو قلما يطرب وقلما في الجيد منه ، يصرد سهمه . ومن قصائد الديوان البارزة في هذا الفن اخص بالذكر « النتيجة » و « ميسلون » و « الموت أهون عندي » و « هنئوني » فانك بعد قراءتها ،

---

(١) « الاحتراص » و « اذا مت »

(٢) « بنفسجتي » و « أمي الطبيعة » و « عواصف قلب »

وان لم تطرب لها ، تعجب بتأثيرها البليغ في النفس وترى انه من الحشو والفضول ان يزاد اليها كلمة واحدة . أما القوالب ، ومن ضمنها الألفاظ والصيغ والتقطيع فان فيها مجالاً للتحسين وللزيادة في الابداع وسيتوفق علي الناصر الى ذلك في مستقبل فنه ان شاء الله .

الفريكة لبنان في ١٥ ايلول سنة ١٩٣١ أمين الريحاني

* * *

— ٣ —

ـ أنـا ـ

علي النـاصر

مرت الأيام وأنا أنظم من الاحلام والابتسامات والاخيلة والزهور والأضواء ، تيجاناً مغرية لاقدمها الى انانيتي .

هذا دأبي وهذا ما حبب لي الحياة .

مرت الأيام وأنا أجمع من الشره والطموح والبغض والانتقام والغيرة والشهوة اشواكاً تصمي قلبي .

هذا دأبي وهذا ما حبب لي الحياة .

مد وجزر في خضم العمر .

أما الآن فأنا كأرملة غجرية تجر بجانبيها مسخين ، شعشاء تعصف الريح العاتية بأطمارها البالية وتهزها كبقايا علم بعد معركة دامية ، ولكن عينيها الملهبتين في وكري جبينها العالي ، معلقتان بالأفق البعيد ، تنظر إلى الامام وإلى الامام .

حلب في ١٠ تشرين الثاني ١٩٣١ ع . ن .

(علي الناصر)

المصدر : الظمأ مقطوعات شعرية
حلب مطبعة المعارف . نجيب كنيدر .
حلب ١٩٣١

— ٣ —

بين يدي الديوان

مقدمة في اللغة والشعر

أمين ناصر الدين

— ١٩٥٣

اللغة في هذا العصر

يرى فريق من المتأدبين ان اللغة العربية في هذا العصر قد استعادت المنزلة التي كانت لها في صدر الاسلام او كادت. ويحاول اثبات رأيه ببراهين لا تلبث أن تنقض عليه وحجج ٌ تثبت على الجدل . وحسبك اذا اردت تزييف براهينه ودحض حججه أن تورد له ما في معظم الجرائد والمجلات والمؤلفات العصرية من كلام سخيف فشت فيه المغالظ وتعاوره الضعف . واساليب تتنزه عنها العربية الفصحى .

والذي عليه ذوو النظر أن العربية في هذا العصر آخذة في التأخر عاماً فعاماً . ولولا افراد احاطوا باصولها وفروعها . وانقطعوا للذود عن حياضها لحطت الى الدرك الأسفل .

الأسلوب العربي

يعلم كل ذي تمييز واطلاع أن لكل لغة اسلوباً تتميز به ومصطلحات لا تستعمل في غيرها . فاذا لم يراع اسلوبها ومصطلحاتها في كل ماينشأ

ويؤلف أصبحت لغة فاسدة مختلة الأداء مضطربة المباني . وهذه حال اللغة العربية في هذا العصر . فان معظم المنشئين فيها اهملوا اسلوبها ولم يحذقوا قواعدها . ولا استجلوا غوامضها . ولا وقفوا على دقائقها . ولكنهم اكتفوا بمعرفة ان الكلمة ثلاثة اقسام . وان انواع الأعراب اربعة. ثم عكفوا على اللغات الأعجمية فاستبطنوا دخائلها . واستعاروا اساليبها ومصطلحاتها لما يكتبونه في العربية فاصبحت هذه كما ترى .

الأسلوب من اللغة بمنزلة الركن من البناء ، بل هو بمنزلة الروح من الجسد ، فمهما يتأنق الكاتب فيما يكتب والشاعر فيما ينظم ، ولم يراعيا الأسلوب العربي فكانهما لم يصنعا شيئاً .

ومما يدلك على كون الاسلوب في كل لغة أجدر مافيها بالمراعاة أن فتى كان يتلقى الانكليزيه عن استاذ حاذق فعرض عليه يوماً قطعة انشأها ليصلح له ما فيها من خطأ . فلما نظر الأستاذ فيها ضحك وقال للفتى : أما الانشاء فصحيح ولكن اسلوبه عربي . ولن تعد متضلعاً من الانكليزية حتى لتخذ اسلوبها وتعابيرها فيما تنشيء . والا فلا قيمة لما تكتبه فيها .

فهل يعي كتاب العربية قول ذلك الأستاذ فيراعوا اسلوب لغتهم وتعابيرها ويدعوا الاساليب الأعجمية .

حتى الأزهريون

الازهر المعمور قبلة الطلبة من العرب . يؤمونه من اقاصي البلدان لورود شرعته . وهو حصن اللغة الحصين . فيه تستقري دقائقها . وتمحص حقائقها . ويحمي ذمارها . ويذاد عن حياضها .

وكنت جد معتقد أن ابخل الناس واصلدهم زنداً قد يزدري الذهب الوهاج قبل ان يزدري العالم الازهري العربي لصميم اساليب لغته وتعابيرها ويستبدل بها اساليب الفرنجة وتعابيرهم . وما زال ذلك معتقدي حتى قرأت مقالات لبعض الأزهريين . خاضوا فيها مع الخائضين . فقالوا فالكتاب المتفرنجين « أسفت وأسفت كثيراً » بدل « اسفت جداً » أو « أسفت جدا الأسف » و فلان برح وطنه من أجلك ومن أجلك فقط » بزيادة (من أجلك) الثانية بلا فائدة . و « انه رجل بكل معنى الكلمة » بدل « انه رجل أي رجل » و « هو شخصية بارزة (بدل هو (رجل وجيه أو عين) الى غير ذلك من التعابير الباردة التي لم يأت بها عربي يغار على لغة قومه ويضن بها ان تزدري وان لم يكن من الأزهريين

الفصيح والمبتذل

ومن اغرب ما في الأمر انك قد تقرأ مقالة لأحد مشهوري المنشئين المتضلعين من اللغة . أو قصيدة لشاعر من رواض القوافي وزعماء القول . فيأخذك العجب حين ترى اللفظة الفصيحة بازاء اللفظة المبتذلة التي انما تجري على السنة العامة . ومن المعلوم ان شرط الحسن التناسب فاذا لم يكن تناسب فلا حسن . الست ترى أن العقد من اللؤلؤ الرطب اذا كانت فيه خرزات قللت من قيمته وحسنه .

انظر فيما كتبه المعري وعبد الحميدوابن المقفع وغيرهم من قدماء المنشئين وفيما نظمه فحول الشعراء الماضين فلا تقع عينك على لفظة مبتذلة تجاور لفظة فصيحة . بل تجد الكلام متناسباً من اوله الى آخره . مفرغاً في أحسن قوالب الفصاحة . ولا اثر فيه للابتذال .

المترجمون

الذين حذقوا العربية من العصريين واستطلعوا خفاياها ووقفوا على اغراضها هم من القلة بحيث تعلم . أمـــا الذيـــن تضلعوا مـــن اللغات الأعجمية كالفرنسية والانكليزية وقيدوا أوابدها واكتفوا من لغتهم العربية بشيء من جزئياتها فحدث عن كثرتهم ولا حرج .

وقد عكف هؤلاء على ترجمة الكتب والأقاصيص الى العربية وأخرجوها للناس في لغة مضحكة وتعابير غريبة واسلوب مستهجن .

وأنت تعلم ان الترجمة لا يمكن ان تأتي فصيحة جيدة السبك انيقة العبارة الا اذا كان المترجم متبحراً في اللغة المترجم اليها اكثر من تبحره في اللغة المترجم عنها والا كانت الترجمة رثة الألفاظ سخيفة التراكيب ومما يجب على المترجم أن يتفهم معنى الفصل مما يريد نقلة الى العربية ثم يفرغه في قالب عربي لا أثر فيه للعجمة ولا يستطيع ذلك الا المتضلع من العربية العليم بأساليبها الأنشائية .

عرب ابن المقفـــع كتاب كليلة ودمنة عن اللغـــة البهلويـــة فجاءت الترجمة من ابلغ ما كتب في العربية وأصبحت مثالاً يحتذيه كل من اراد ان يبلغ من البراعة في الانشاء أمداً قصياً . ولو لم يكن ابن المقفع من جهابذة اللغة واكابر المنشئين لكان كتاب كليلة ودمنة شبيهاً بما يعربه المترجمون في هذه الأيام .

وقد رسخت الملكة الأعجمية في اذهان اولئك المترجمين رسوخاً عجيباً حتى ان الواحد منهم لو انشأ مقالة أو وضع رواية من عند نفسه لجاءت اعجمية الأسلوب والتعابير لا تختلف في شيء عما يترجم .

خطباء الحفلات

الخطباء ألسنة الامم في كل زمن لمصاقعهم منزلة ٌ سامية وشهرة مترامية وكان الخطيب من الاولين اذا رقي فوق المنبر يرتجل الخطبة غير متلجلجٍ ولا متلعثم . ولا لاحنٍ ولامتكلف . فيخيل إلى سامعه أنه يقرأ خطبته في كتاب لسلامتها من اللغو واللحن وخلوها من الهفوات .

كذلك كان الخطباء ايام كانت العربية عزيزة الجانب منيعة الحرز لاتشوب اساليبها عجمة . ولايعتور الفاظها ابتذال . اما الخطباء في يومنا هذا فمعظمهم ليسوا بمتضلعين من اللغة وقواعدها ولا ذوي عناية بمراعاة احكامها ودقائقها . فشأنهم ان يفهموا الناس ما يقولون من غير ان يبالوا باصول اللغة وقواعد الاعراب . فاذا وقف احدهم ليخطب سمعت كلاماً ان كان صحيح المعنى فهو فاسد اللفظ قلق التركيب لاتخلو منه فقرة من لحن ولاتسلم لفظة ٌ من ابتذال .

شهدت مرة ً احدى الحفلات وكان الخطباء فيها بضعة ً وعشرين خطيباً . وفي جملتهم نفر ٌ من الكتاب الذين انصرفوا إلى الانشاء منذ كانوا في ريعان الصبى . وفي يد كل منهم خطابه مكتوباً فلما شرعوا يخطبون متعاقبين على المنبر أخذني العجب الشديد اذ لم يحكم التلاوة منهم الا اثنان . فكانت حركات الاعراب يحلّ بعضها محلّ بعضٍ ولو انهم ارتجلوا الكلام ارتجالاً لكان لهم بعض العذر . ولكن بم يعتذرون وخطبهم مكتوبة .

الصحفيون واللغة

بين منشئي الجرائد والمجلات العربية فئة لم يعورها شيء من الذكاء والألمعية ولم يعدها التفنن وجودة السليقة يكتب الواحد منها المقال في غرض من الاغراض فيدل على خاطر حافل ومادة غزيرة ، وبراعة في الاداء ، ولكنك اذا انعمت فيه النظر من الجهة اللغوية ، تكشف لك عن مواضع للنقد ، وعن الفاظ مبتذلة قد أخذ بعضها برقاب بعض ، واسلوب غير عربي شانه اللحن ، فتأسف على سليقة لو ردفتها لغة فصيحة لازدانت باياتها المهارق . وعلى ذكاء متوقد وخاطر فياض لو سلما من معرة الخطأ لكان نتاجهما اثمن من القلائد في نحور العواتق .

وأغرب ما في أمر هذه الفئة أنها لاتقر بضعفها اللغوي ولاتحاول ان تقيم ما في كلامها من أود بنسجها على منوال قرح الكتاب . وبانصرافها بعض الشيء إلى استجلاء غوامض اللغة والوقوف على دقائقها . ولكنها بدل ذلك تنعى على المتضلعين من العربية شدة تدقيقهم واختيارهم الاساليب الفخمة والالفاظ الجزلة ، زاعمة أن ذلك مناف للذوق العصري السليم غير مألوف في هذه الأيام التي أصبح كل شيء فيها افرنجياً حتى العربية .

الصحفيون من جميع الامم متبحرون في اللغات اللاءيكتبون بها جرائدهم ومجلاتهم ، بالغون من معرفة الاصول والدقائق اللغوية مبلغاً يأمنون به اللحن والخطأ فيما ينشئون ، اما نحن الصحفيين العرب فمعظمنا مكتف من العربية بما في (الاجرومية) و (بحث المطالب) فلا بدع ان يكتب بعضنا (الرجال الثقاة) والصواب (الثقات) و (الفتياة) وصوابها (الفتيات) .

المعلمون واللغة

ليس من المبالغة ان تقول انّ معظم المعلمين الذين يتلقى عنهم الطلبة قواعد العربية في هذه الايام لاشد حاجة من اولئك الطلبة إلى معلمين يلقونهم قواعد الصرف والنحو وأصول اللغة ، ففي لبنان لاتستطيع ان تستثني من هذا الحكم الا نفراً من المعلمين في الكلية الاسلامية ومدرسة الحكمة المارونية وبعض المدارس الوطنية .

واذا كنت ممن حذقوا العربية وباحثت بعض المعلمين في قواعدها واصولها لاتلبث ان تقول اذا كان المعلمون في هذه الغاية من الجهل فكيف ينشأ الطلبة الذين يتخرجون عليهم . واذا كان الاستاذ لايحسن ان يتلو سطراً من كتاب تلاوةً بلا لحن فماذا يستفيد التلميذ من الدرس عليه .

المدارس الأجنبية واللغة

لم ينزل باللغة العربية من ذلك اليفاع إلى هذا الحضيض الاّ المدارس الاجنبية : فقد كانت وما تزال تعلم الطلبة العرب احتقار لغتهم . وتوهمهم أنها لغةٌ لاتستحق أن يخلى لها الذرع ، ويبذل في سبيل التضلع منها ما في الوسع . وأنها صعبة المنال . مشكلة القواعد . تنبو عنها الافهام وتحار فيها المدارك . فينشأ اولئك الطلبة وقد شربت قلوبهم مقت العربية . وفي اعتقادهم أنها لاتعود على من ينقطع لتحصيلها بفائدة . وأنّ الخير كله في التضلع من اللغات الاعجمية . فمن استطاع أن يرطن بأحداها كاشفته السعادة بأسرارها . وترادفت عليه النعم في آصال الايام وأسحارها .

ومرّ ردحٌ من الدهر والمدارس الاجنبية في سورية ولبنان تخرج لهما تلاميذ يجهلون العربية جهل الاعاجم اياها . ولولا من تخرجوا في أثناء ذلك على بعض علماء المسلمين . وعلى الشيخ ابراهيم اليازجي في المدرسة البطريركية والشيخ عبد الله البستاني في مدرسة الحكمة المارونية . والشيخ ابراهيم الحوراني في الكلية الاماركية في اوائل عهدها ولولا من حذقوا العربية بالمطالعة والبحث والتنقيب . لما وقعت عينك في سورية على متعلم يستطيع ان يكتب جملة عربية بلا خطأ أو يقرأ سطراً بلا لحن .

ومن البلية ان الوطنيين على علمهم ان المدارس الاجنبية قد جنت على اللغة العربية تلك الجناية العظمى حتى اوشكت ان تصبح اثراً بعد عين وانها مع ذلك تفسد على فريق من الطلبة عقائدهم . وتعودهم غير عاداتهم ما يزالون يؤمونها زرافات ليتعلموا فيها احتقار لغتهم وازدراء عاداتهم وتقاليدهم ولينفقوا اموالهم من غير حساب . ولله في خلقه شؤون .

* * *

لم يبق من شك في أنّ اللغة العربية في هذا العصر جدّ متأخرة . وقد اوردنا من البراهين على تأخرها ما لايجادل فيه الا المكابر في الواقع . فاذا استمرت على حالها هذه يسومها الكثيرون من منشئي الجرائد والمجلات خسفاً ويراوحها معظم معربي الكتب والروايات ويغادونها بما يجتث أصولها ويهدم مبانيها . وتبالغ المدارس الاجنبية في امتهانها . وتنشئة الطلبة على ازدرائها واهمالها . وتكتفي المدارس الوطنية بمعلمين معظمهم في حاجة إلى من يعلمهم قواعدها . فمصيرها

بلا ريب مصير اللغات اللاء لم يبق منهن الا الاشارة اليهن في التاريخ القديم .

اما المنشئون الذين يتوهمون انهم يكتبون كلاماً عربياً وما هم بكاتبيه والادباء الذين يحسبون انفسهم بالغين من الادب العربي مبلغاً جليلاً وليسوا في الحقيقة ببالغيه . فاما ان يقفوا على اللغة والادب جهدهم حتى يحذقوهما ويمحصوا حقائقهما ويتتبعوا دقائقهما . واما ان يتخذوا بدل هذه اللغة لغات أخر فذلك خير لهم وللعربية ؟

المجددون والشعر

للشعر العربي على غيره من المزايا الظاهرة ما لاينكره منصف ولو لم يكن له الا فخامة الاسلوب وعذوبة الرنة فضلاً عن رشاقة المعنى وحسن الديباجة لكفى ، وقد اقر بذلك نفر من علماء الفرنجة الذين درسوا العربية منهم الحكيم الجليل الطيب الذكر كرنيليوس فانديك الذي اولع بالعربية فتعلمها والف فيها مؤلفات ذات قيمة وكان كما اخبرني ثقة من معاصريه يهتز طرباً اذا سمع شعراً عربياً بليغاً ويقول لو استطعت الاجادة في الشعر لنظمته .

يرى الفريق الغيور على اللغة وادبها المتضلع منهما انه لايصح ان يسمى شعراً الا ما كان صحيح الوزن جزل الالفاظ رائق الاسلوب متين القوافي سالماً من العيوب لاابتذال فيه ولاتكلف ولاتعمل ولاتعسف لتجلي النكت الرائقة في ابياته وتكاد الطلاوة تتدفق من صدوره واعجازه .

اما الفريق المجدد فخير الشعر عنده ما كان سوقيّ الالفاظ سخيف التراكيب مبتذل الاسلوب ، وحجة هذا الفريق في ذلك ان الشعر الذي ينسج على هذا المنوال يكون خلواً من الغموض والابهام فيفهمه كل من يسمعه من غير ان يعنت فكره ويرويه من غير ان يكدّ ذهنه .

على ان هذه الحجة اوهى من نسيج العناكب والحقيقة ان ضعف ملكته العربية وعجزه عن استقراء دقائق اللغة والادب واستكمال ادوات الشعر حالا بينه وبين ان ينظمه جزلاً فصيحاً متيناً فلما قعد به طبعه عن مجاراة فرسانه في الحلبة نظمه رثّ الالفاظ سخيف التعبير زاعماً ان الشعر العصري كذلك يجب ان يكون ليصبح اعلق بالافهام وادعى إلى استحسان سواد الناس فكان شأن هذا الفريق في الشعر شأنه في اللغة .

وتجد هؤلاء الا اقلهم يحاولون اثبات زعمهم بما ينظمونه وينثرونه تهجيناً للشعراء الذين يتخيرون لمنظومهم فصيح الالفاظ وجزلها ويأبون أن يستعملوا سفساف الكلام ونفايته ويتابعهم على رأيهم كلّ من لا يفطن للحن او مغزى ولايفتهم شيئاً من اسرار الفصاحة والبلاغة قائلاً ان الاسلوب الفخم واللفظ الرصين انما كانا يصلحان لوصف الناقة والجواد في زمن الجاهلية وصدر الاسلام ولايصلحان لوصف القطار والسيارة والكهرباء في القرن العشرين كأن هذه الاشياء لايجوز ان توصف بكلام فصيح سلم من معرّة الخطأ والابتذال .

ومن دواعي الأسف أن شعر المجددين لايخلو منه الكثير من الجرائد والمجلات وان معظم قارئيه يستحسنونه ويترنحون لدى

سماعه طرباً ولا يبالون ان يفضلوه على شعر البحتري وابي تمام وابن هانيء والمتنبي ومن استن بسنة هؤلاء من شعراء العصر . فهم اعداء كل فصاحة وجزالة واسلوب متين .

قد أنكر العين ضوء الشمس من رمدٍ
وينكر الفم طعـــم المـــاء من سقـــم

يقول الذين يسمون انفسهم ويسميهم مريدوهم (شعراء عصريين ان الشعر بمعناه لابلفظه فاذا تضمن سفساف اللفظ معنى جميلاً فذلك هو الشعر المرقص المطرب وان الشاعر النابغة المنقطع النظير هو من يأتيك بالمعنى الحسن في لفظ لا أثر فيه للجزالة والفصاحة وبلغ ببعضهم الغلو في مذهبهم إلى أن يقولوا أن الشعر المتين الرصين المحكم القوافي لهو شعرٌ مستهجن وان كان بليغ المعنى لطيف الاغراض

لعمري ان الحلية المصنوعة من الذهب الابريز المرصعة بأثمن اللآلىء لايستحسنها ذو الذوق السليم الا اذا كان صوغها محكماً ولا يشفع فيها جودة ذهبها ونفاسة لآلئها اذا لم يكن صائغها ماهراً متقناً ومهما تكن الفتاة بارعة الشكل رائعة المحاسن ولبست ثوباً خلقاً مرقعاً فان لبسها هذا الثوب ماح آية جمالها مشوه محاسنها فتنبو عنها العيون ولاتصبو اليها القلوب .

ومن مبتكرات المجددين ضروب من النظم يقسمون فيها القطعة الواحدة إلى عدة اوزان كلّ وزن له رويٌ خاصٌ تشبهاً بشعراء الفرنجة وهذه الطريقة تذهب بطلاوة الشعر الجيد السبك فكيف اذا

كان رديئه وأيّ صادق الحس سليم الذوق تأخذه هزة طرب اذا سمع شعراً هذا تفعيله :

مستفعلن فاعلاتن مفاعلن او : فعلن فعلن فعلن فعلن فعلن فعلن فعلن فعلن فع فع فع فع

الم يكن لهم وقد ارادوا التفنن غنى ً بالنظم على طريقة الموشحات الاندلسية عن هذه الاوزان المضحكة .

وهناك فريق جاء يدعو الشعراء إلى اهمال الوزن والرويّ وسمى طريقته هذه (الشعر المنثور) فكان ذلك احدى المضحكات واست ادري ولا المنجم يدري كيف يمكن ان يكون النثر شعراً ما دام الشعر هو الكلام الموزون المقفى فاذا فقد هذا الشرط بطل ان يكون شعراً .

واذا كان اصحاب الشعر المنثور لايتقيدون بوزن ولاتقفيه وما دام كل شيء في الكون لايخلو من معنى شعريّ فمن الواجب ان يعدوا صداح الطائر ومواء الهر ونبيب التيس من باب الغزل والتشبيب وصهيل الجواد وصيء الفيل من باب الفخر وزئير الاسد من باب الحماسة واطيط الجمل وخوار الثور وأزير القدر من باب الشكوى والعتاب وهزيم الرعد وفحيح الافعى من باب الوعيد ودوي النحل وخرير الماء من باب الحكم ونعاب الغراب من باب الرثاء وضحك القرد ونقيق الضفدع من باب المجون إلى غير ذلك .

ضعف ملكة النقد

لما قلّت العناية باللغة والأدب ، ضعفت ملكة النقد في المتأدبين العصريين فاذا قرأوا قصيدةً تجدهم ينظرون اليها من وجه واحد فاما

ان يحكموا بأنها من عيون الشعر ومحكمه وإما بأنها من سفسافه وهذا حكم فاسد لان من الواجب على الناقد الخبير أن ينظر إلى القصيدة من جميع الوجوه فلا يجوز أن يكتفي بجودة المعنى اذا كان اللفظ مبتذلاً واللغة فاسدة ضعيفة ولا بجزالة اللفظ اذا كان الاسلوب غير رائع ولابروعة الاسلوب اذا كان المعنى غامضاً واللفظ سمجاً ولا بصحة الوزن اذا كانت القوافي قلقة والابيات غير متناسبة ومن الجهل الفاضح ان يحكم لقصيدة او عليها من غير مراعاة هذه الشروط .

* * *

هذا ما أقدمه بين يدي الديوان آملاً من الجهابذة المنصفين ان يرأبوا في هذه المقدمة وما يليها من صدوع ويغضوا عما هناك من هفوات فانّ العصمة للّه وحده وهو يؤتي فضله من يشاء واللّه ذو الفضل العظيم .

أمين ناصر الدين

المصدر :
الالهام : ديوان فيه المختار من شعر العاجز .
أمين ناصر الدين . صاحب جريدة الصفاء .
طبع بمطبعة الصفاء . لبنان سنة ١٣٥٠ هـ ١٩٣١ م

— ٥ —

تصديـــر

بقلم الدكتور احمد زكي ابو شادي
امين عام جمعية ابولو

لم اتناول هذا الديوان بفرحة المؤمن بمواهب صديقي الشاعر المبدع صالح جودت بقدر فرحي بالظاهرة الحية الجديدة لشعر الجيل الحاضر . ان لصالح جودت من الطاقة الشعرية ما يبشر بفتوح رائعة في مستقباه الادبي، خلنا ان نؤجل تهنئه وهو بعد في نهاية العقد الثاني من عمره فسوف يستأهل تقديراً أجلّ كلما أمعن في فتوحاته الشعرية يزجيه نبوغه وجرأته واستلهامه للحياة . ولكن لنا ان نهنىء انفسنا وجيلنا الحاضر بالظاهرة الجديدة التي تتمثل في صالح جودت وأقرانه من شعراء الاستقلال والحرية والاندماج في الحياة .

وان أنس لاأنس مظاهر الشعر الجديد منذ ربع قرن مضى . فقد كان الشباب من الشعراء لايعنيهم وقتئذ غير المحاكاة ، وكانت غايتهم المباهاة بمجاراة اعلام الشعراء حينئذ ، وبخاصة الاعلام المحافظين . ولما صدر « ديوان الخليل » لاستاذنا مطران كنت احذر من قراءته . وكان شغف مثلي بما فيه من الطريف الشائق دليلاً على شذوذي السقيم في نظر زملائي المتأدبين . . . وبهذه الروح استمر

الشعر العصري زمنا عبدا للتقليد والصناعة . وقلما تجاوز ميدان المناسبات الاجتماعية والسياسية والشخصية . . اما الآن فماذا نرى ؟ نرى الشعراء الشباب النابهين يبدأون حيث انتهى غيرهم . مقدمين بشجاعة على ميادين جديدة فسيحة . فثقافتهم تعين شاعريتهم المطبوعة على تجنب المحاكاة المألوفــة وروحهم الشعرية الاصلية تأبى القيود وتثور أية ثورة .

ليس حتماً ان الشاعر النابغ في شبابه يطرد نبوغه في كهولته وشيخوخته فبعض الشعراء العالميين كالمتنبي وأبي العلاء وملتون وبردجز جاء أثارهم القوية فيما بعد شبابهم ولكن مما يسترعي الإنتباه أن وثبة شعراء في هذا الجيل بل ثورتهم لا تشعر بها حالة وقتية بل تبشر بنهضة مطردة ، وهي الآن بصورة قوية أخاذة ولنضرب مثلاً بالمتنبي العبقري الخالد القائل في صباه :

بأبي مــن وددتــه فافتــرقنــا
وقضى الالــه بعــد ذاك اجتماعــا

افترقنــا حولا فلمــا التقينــا
كان تسليمــه علــي وداعــا

والقائل :

قفــا قليــلا بهــا علــي فــلا
أقــل مــن نظــرة ازودهــا

ففــي فؤاد المحــب نــار جــوى
أحــر نــار الجحيــم أبردهــا

ليــس يحيــك المــلام في همــم
أقربهــا منــك عنــك ابعدهــا

بئــس الليالــي سهــدت مــن طرب
شوقــاً إلى مــن يبيــت يرقدهــا

أحببتهـا والدمـوع تنجذبـي
شؤونهـا والظـلام ينجدهـا

والقـائـل

شمـس اذا الشمـس لاقتـه على فرس
تردد النـور فيهـا مـن تردده

أن يقبـح الحسـن الا عنـد طلعتـه
والعبـد يقبـح الا عنـدسيـده

نفس تصغر نفس الدهر من كبر
لهـا نهـى كهلـه في سـن أمرده

فهو في هذا الطور من حياته لم يكن أقوى شاعرية ولا أبعد مرمى ولا اسمى بياناً من شعراء جيلنا المتوثب وفي طليعتهم صالح جودت الذي ينفح الشعر العربي بالراهب المتمرد والهيكل المستباح والمهزلة الكبرى وبغيرها من شعر الفلسفة والوجدان والتصوف في قالب فني جميل يشعرنا بالحياة الفنية المتجددة على أيدي الرائدين من شعراء هذا الجيل .

ان صالح جودت بفطرته شاعر غنائي حساس حلو العبارة فياض العاطفة جياش بالمعاني العذبة الرقيقة ولكنه إلى جانب ذلك الشاعر الوطني والشاعر الفلسفي حينما تثيره ظروف خاصة ، فترى في الشعر الحيرة والاضطراب والآمال والآلام المتغلغلة في مشاعر هذا الجـيـل . ولـو لم يكن لصالح جودت غير شعره العاطفي الخالص لكفانا ذلك داعياً للحفاوة بشعره ، فلا يجوز أن يطالب أي شاعر بلون خاص من الشعر مطالبة الارغام . . ان الشعر الحي الصادق الشعور يعبر عن خوالجه بلغته الخاصة متجاوباً مع الحياة الشاملة قبل ان يتجاوب مع بيئته ويجب ان يكون الشاعر — ككل فنان — مالكا

تمام حريته ، فاذا كانت شاعريته راضخة لمؤثرات وطنية قوية فأهلاً بشعره الوطني المشتعل ، واذا جاءت سمحة هادئة وديعة تتسم بروح الاخاء الانساني فأهلاً بهذا الشعر الانساني الصافي ، وكيفما كانت المؤثرات التي توحيها فعلينا ان نرحب بها كألوان من الفن اذا كنا كنا نعرف معنى الفن وحرمته .

يقول صالح جودت الشاعر الغنائي الرقيق في مقطوعته البديعة « العيون الزرق » :

عين مـــن يهـــواك تشتاق الكـــرى
قلـــب من يهواك يشـــدو بالحنيـــن
هـــل رأيـــت الدمـــع من عيني جرى ؟
هل سمعت القلب موصول الانيـــن ؟

إلى أن يقول :

أيهـــا الهاجر من غيـــر سبـــب
لـــو تجافـــى . . . انا راض بجفـــاك
العيون الزرق والشعـــر الذهـــب
ألجآني يـــا حبيبـــي لهـــواك !

فيعلن لنا الروح المصرية الرشيقة الساحرة التي تذكرنا بروح البها زهير ، ويبرهن لنا ان اللغة الفصحى السلسة جديرة بأن تؤمن على الروح الغنائية ، وان من يلجأون إلى العامية تملقا للجماهير أو بدعوى صلاحيتها للفن الغنائي دون سواها انما يشطون ويسفون ويسيئون إلى أدب لغتهم بالهبوط إلى مستوى الدهماء بدل الارتفاع

بهم ، ويخلق صبغة فنية للغة العامية تهدد بها الفصحى لغة الثقافة والفنون الادبية من قرون .

ويبدو صالح جودت في مسوح المصلح الاجتماعي في « الهيكل المستباح » وهي قصيدة رائعة يفسدها الاقتباس منها ، وهو حين يبدو في هذه المسوح لانراه يتعمد ذلك ، بل هذه النزعة النبيلة الفطرية تصحبه عفوا فنستسيغ شعره ونستملحه ، سواء أشاركنا في نظراته أم لم تشاركه . فهو شاعر أولاً ومصلح ثانياً ، وشاعريته تستوعب النظريات الاصلاحية وتطبيقها ثم تفيض بوحيها ، وشتان بين ذلك وبين النظم الكلامي المجرد ، كلام الخطب المنبرية الشائع في أساليب الناظمين الذين يحاولون تسخير الشعر لغايات واهواء خاصة ثم يسخرون من الشعراء المطبوعين !

ومن العجيب ، أو ليس من العجيب ان شاعرنا الذي يتسم شعره كشخصه بسمات الاناقة والرقة لم يسلم من شكوى البيئة تلك الشكوى التي تكاد تكون متفشية بين جميع الشعراء المعاصرين لقاء ما يعانونه من غمط الفضل أو قلة الوفاء أو الصدوف عن مآثرهم . وصيحاتهم ، وحسبك من بثه هذه المقطوعة اللاذعة :

قد سئمت الغبـاء في مصر حتى
لاأطيـق الحديـث الا لنفسـي
جهـل الناس ما أقـول ... وقالـوا
مـا اراه مضيعـاً طيـب غرسـي
هكـذا العبقـري بين الجهالى
زعمـوا انـه مصاب بمـس

ولشاعرنا اسلوب سهل سائغ مستقيم البيان ، ولكنه يلجأ أحياناً إلى الرمز كما ترى في ذكرى شوقي وفي مقطوعته « البعث » التي يقول فيها :

ساءلوا العشب الذي نمنا به
كيف ماتت فوقه طير الاماني
كلما ارسلتها . . . قاصدة
هيكل الهاجر تشكو ما اعاني
أوصد الباب ولم يحفل نها
وجفاها مثلما كان جفاني
فهوت من جوها واضطجعت
في سرير العشب خرساء اللسان
هاجركم صد عنه طائرا
تاه حتى جاءه طير تعاني
فتناسى التيه وارتد إلى
هيكلي . . . فارتد روحي وجناني
وتعانقنا واحيينا الهوى
وبعثنا في الهوى طير الاماني

وقد ألجأ الشاعر حنين العروبة إلى رثاء عاهل العرب العظيم فيصل الاول ، ودفعته الروح الوطنية إلى نظم قصيدته الممتازة في « مهرجان القرش » ، كما حدت به التأولات الفلسفية إلى نظم قصيدته الرائعة « السفينة الحائرة » ، ولكن الروح الغالبة عليه هي روح الفرح ونشوة الجمال وعبادته التي لايعرف لها حداً ، وهذه يعبر عنها ألطف تعبير في أغانيه البديعة المتكررة .

وسيتخاصم كثيرون حول هذا الشعر كما يتخاصمون حول غيره من الشعر العصري ، فليس لشاعرنا إلا ان يذكر بيت أبي الطيب :

أنـــام ملىء جفوني عن شواردهـــا
ويسهـــر الخلـــق جراهـــا ويختصم !

* * *

ان الروح الشعرية جوهر ، كما ان الموسيقى جوهر آخر وقد جمع صاحب هذا الديوان بينهما . واذا عاب بعض الجامدين عليه طائفة من الفاظه وتعابيره ، كما يعيبون على جميع الشعراء المجددين ، فعلى هؤلاء أن يذكروا ان اعلام الشعر العربي كالمتنبي وأبي العلاء وابن الرومي كانوا أبعد الشعراء عن التقليد ، وقد طبع شعرهم بطابع شخصيتهم وقد أكسبته الاجيال حرمة بعد ما كان منتقداً في أزمنتهم .

وهذا هو البحتري برغم اشتهاره بتنميق الألفاظ لايرضى عن جميع تعابيره جيلنا الحاضر بسبب تطور الاذواق تطوراً عظيماً في الصياغة اللفظية والموسيقى بلغ المعاني والمؤثرات .

وما أغناني بكلمة « إمرسن » عن كل تفسير : « إن تجربة كل جيل تحتاج إلى اعتراف جديد ، وتلوح الدنيا دائماً في انتظار شاعرها » .

The experience of each age requires a new
Lonfession, and the world seems always waiting for its opet.

وهي خير تحية أزفها إلى صديقي الشاعر صاحب هذا الديوان ،

احمد زكي ابو شادي

المصدر : صالح جودت الأعمال الكاملة دار العودة جا ١٩٨٢ .

— ٦ —

تصدير

احمد زكي ابو شادي

. . . وأخيراً يظفر عشاق الشعر العالمي بهذه « الألحان الضائعة » لشاعر من أنبغ شعراء الشباب ومن أظهر روادهم : حسن كامل الصيرفي الذي يهتف في إيمانٍ عميق :

ومـــا العطـــر إلا أنـــةٌ وتوجعٌ
كأصداء أنغامـــي ورجـــع شكاتـــي
يغني شجيُّ القلـب والنـــاسُ حولـــه
طروبين بالانشـــاد والنغمـــات

وما كان لي أن أجرأ على كتابة هذا التصدير إلا بعد أن خبرت الصيرفيّ خبرة الأديب للأديب والصديق للصديق ، وبعد أن شعرت أنه من أجدر الشعراء بأن يردّد :

وما كان شعري في نظيمٍ أصوغـــه
ولكنّ شعري أن أكون أنـــا الشعـــرا !

ومن كانت هذه نفسيته فلن تضيع ألحانه ما بلغت بيئته من العزوف والجحود ، وشقيت ما شقيت نفسه من هواها وهمومها .

حسن كامل الصيرفي شاعرٌ أصيلٌ فياضٌ الشاعرية المستوحاة من أغاني الربيع ومن الصدى الخافت ومن جفاء الطبيعة ومن البسمات الساخرة ومن موت البلبل ، وحتى من المنديل وعقب اللفيفة ، ومن كل ما توحيه الحياة والموت للشاعر الحساس النبيل . وهو شاعر في حياته ، شاعرٌ في خلقه ، وهذه صفات قلما تجتمع حتى تبهجك وتشعرك بالاحترام والمحبة البالغة نحو صاحبها . وكم وكم من فنان من فنان لم يتعدّ فنه صناعته وتعبيره ، فتحبه عن بعدٍ وتأبى إباءً أن تكون لك صحبته ، كأنما هو ينتسب إلى السماوات العلى ، بفنه المقروء والمسموع ، ويمتّ بوشائج قوية إلى أعماق الجحيم في خلقه وطباعه الشاذة ! . . .

ولكن الصيرفي غير هذا : فهو الفنان الناضج في تعبيره الوجداني المنغوم ، وفي صور حياته العامة ، وفي مظاهر النفس الخلقية ، فهو ذاتيةٌ من الشعر الحيّ الثمين . . . وأين هذا المثال الرائع من أمثلة المبدعين لمنظومات خلاّبة لانشعر مع ذلك أنّ وراءها شيئاً مذكوراً من العاطفة ولاأصالة في الشاعرية ولا تعمقاً في الحياة ولافلسفة قيمة ولامطابقة بين حياة الشاعر وبين ما يدعيه من مثلٍ عليا ؟ فالصيرفيّ الشاعر وشعر الصيرفي وحدةٌ منسجمة لاتجزأ ، وأنّ الاعزاز الذي نوجهه إلى شعره نستمده كذلك من شخصيته الشاعرة المتسامية المحبوبة — تلك الشخصية الحساسة الناضجة التي تأسرنا بتعاليها في صمتها البليغ حينما تدوي الدنيا حولنا بسفاسف الأمور !

* * *

لقد انتظمت مدرسة أبولو شعراء ممتازين وها أن تفتخر كلّ الافتخار بالصيرفي وشعره ، فهو ثروةٌ جديدةٌ للشعر المصري الحديث

وللشعر العربي عامةً ، وكيف لايكون ذلك وهو الجامع ما جمع من الطلاقة البديعة والخيال الرائع والموسيقى المستحدثة في نظام هو نظامه لايقلد فيه أحداً ، وإن تجاوب مع أقرانه من أعلام النهضة الشعرية في العالم العربي . وهذا التجاوب الشامل علامةٌ من علامات الشاعرية القوية ، كما أن احتفاظه بشخصيته علامةٌ أخرى من علاماتها القوية . وحسبك أن تفترض حرماننا نماذج هذا الشعر الحديث فتشعر بالفراغ الذي تشغله شخصية الصيرفي الشاعر وإن أبى عليها إلا التواضع أو التواري كأنما ذلك من أصول فنه العميق .

وفي « الصورة السريعة » التي يعرضها الصيرفي ترجمة له نلمح الروح الثائرة في صميمها الوديعة في مظهرها، وقد أبت إلا أن تكون سيدة نفسها ومبعث فنها ، لامرائي لغيرها . فكل ناقدٍ يحترم مداركه لايسعه إلا احترام هذه الشخصية الفنية العزيزة .

يقول الصيرفي :

عصرت روحي خمراً للورى وهـوىً
وما تذوّقت منهـا بعـض ماشربـوا

ضاعت أمانيّ في الدنيـا وأي منـىً
تعيـش فيهـا وتحيـا وهي تلتهـب ؟ !

فنشيد الألم مستهل ديوانه . ونشيد الألم ختامه ، ولكنه الألم الذي لايصحبه الندم ، ألم التضحية النبيلة :

هنـا في هيكـل الحـبّ
أحقـر مبـدأ الفـرد

وأســرق عنــده قلبــي
بخوراً طيــب النــدّ
ولســت بنــادمٍ يــومــاً
عــلى قربانــي الضائــع
أجلّ الناس مــن بظمــا
ليرضى الظامــىء الجائــع

وكيف يندم وهو صاحب ملحمة « الشاعر » الذي يقول :

عجبت لسكــان هــذا الوجــود
ضحايــا ولكنهــم يعيشــون
تبددهــم سخريــات الحيــاة
وتجمعهــم سخريــات المنــون
تصوغهم مــن جمــود الصخــور
وشهوتهــم مــن ضرام الجنــون
بنيــت لهــم من جنــان الخيــال
فراديس ترقــص فيهــا الفنــون
فراحــوا بجنتهــم يهزأون
ومالــوا على سورهــا يهدمــون !

* * *

إذا غبــت عن أرضهــم برهــةً
فلى رجعةٌ لهمــو بعــد حيــن

تنزهـــت عـــن عاديات الفنـــاء
وإن كنـــت في الأرض كالمهالكين !

ليكن الشاعر من يكون ، فاذا عدم رسالة مثالية في شعره فما هو أهلٌ لأن يعد في مرتبةٍ من مراتب الإكبار الانساني . فأية رسالة للشاعر الصيرفي في شعره ، وإن نظم شعره أصلاً لنفسه (اقرأ « الصدى الخافت ») ؟ وما هي مميزاته الفنية التي تقترن بهذه الرسالة ؟

الصيرفي شاعر مبتدع ، بعيد الخيال ، رومانطيقيّ النزعة غالباً ، رمزيّ أحياناً ، بعيدٌ في طوره الحاضر عن المثل القديمة ، لغته لغة الشعر الجرىء ، فكلّ ألفاظه أشعةٌ وظلالٌ وأنغامٌ وأصداءٌ وعطر وشذى وأشباح وأطياف ونحوها ، وليست لغة التنسيق الصناعي الذي لايخرج عن حدود الموسيقى اللفظية التي لاتمت بصلةٍ إلى المعاني ، وشتان بين موسيقى المعاني التي تأسر الألفاظ وبين الموسيقى اللفظية التي تكاد لاتعرفها المعاني ! فليذهب عشاق التشريح والتنقيب اللفظي إلى غير هذا الشعر . ليذهبوا إلى شعراء الرنين وليتناظروا معهم في استبدال لفظة بأخرى وفي أصوب المذاهب النحوية ، وأما ازاء هذا الشعر الوجداني الرائع فليعتبروا أن وراء ألفاظه دوافع نفسية في الاختيار والتنسيق والموسيقى ، لادوافع صناعية تدعو إلى تبديل بعد تبديل وتحوير وتقديم وتأخير . ثم ما هي رسالة الصيرفي في شعره ؟ هي رسالة بسيطة ولكنها جدّ متسامية : هي رسالة الحياة الفنية الخالصة ، التي يبكيها في « موت البلبل » ويبعثها في « الشاعر » ، وهي رسالةٌ تشوبها الحيرة والابهام في مواضع ولكن يجلوها إيمان الشاعر دائماً .
وإذا تتبعناها في مجاليها واستمعنا إلى الشاعر التائه ينادي :

يا ظلمة الليل ردي نجمك الزاهر
كفاني اليوم إني تائه حائر
أطوف من عالم تطغى مواثجه
إلى سواه فألقى موجة ثائر
سفينتي حطمتها الريح فاقتنعت
نفسي ببعض شراع سابح خائر
يلقى به الموج نحو الشط ينقذني
والشط كالبحر يطوى البائس العاثر
خلصت من غمرة الدنيا لحيرتها
ومبدأ العمر في الآلام كالآخر
يا ظلمة الليل واسيني بأنجمه
كفاني اليوم إني تائه حائر !

لم نلبث أن نجد هذا « التائه » نفسه هادينا بروحانيته القوية فنلمح « السحابة المغبّرة » ونتبين « جفاء الطبيعة » كما نفقه « الرغبات المقيدة » ونتعرف « حياة الفنان » ونهتدي بخواطر الشاعر وتصويره إلى أن الفنّ وحده هو خلاص الانسانية وسعادتها ، والفن ينتظم الجمال بما يعنيه الجمال من حب ورحمة وتجاوب شامل للوجود .

هذه هي رسالة الصيرفي في شعره الجميل الذي نشر كثير منه قبلاً فانبثّ في الأدب العصري وتجلت آثاره في أشعار كثيرة لمشهورين ومغمورين على السواء ، أحييها تحية الاعجاب والمحبة الخالصة في « ألحانه الضائعة » التي لن تزول ، وانما تغيب في الخواطر والنفوس ثم تعود جديدة على ألسنة مريدية ومحبيه وفي دقات قلوبهم .

احمد زكي أبو شادي

المصدر : الألحان الضائعة . ضاحية المطرية ٦ يونيو سنة ١٩٣٤
ديوان شعر . حسن كامل الصيرفي ١٩٣٤ .

الياس ابو شبكه
مقدمـــة

١٩٠٣ – ١٩٤٧

لاأكتب هذه المقدمة لاحدّد الشعر ، أو لأعلم الشاعر كيف ينبغي له أن يشعر ، وأي طريق يجب عليه أن يسلك ليصل إلى هيكل النور الأسمى ، أو لأجيء بنظرية أتعصّب لها وأعان لأجلها حرباً ، فالشعر كائن حي تحتشد فيه الطبيعة والحياة ، فلا يقاس ولايوزن ، والنظريات مذاهب وأغراض لاتعيش إلاّ على هامش الادب كما يعيش العرض على هامش الجوهر أو كما يعيش الديكتاتور الزائل على هامش الأمة الأزلية .

وقد تصحّ النظريات أو المذاهب في كتاب سياسي أو وصية سياسية موجهة إلى شعب له أوضاعه الخاصة ، وحدوده المقررة ، وثقافته ، وجنسيته ، ولاتصحّ في شعر يعبّر عن الحياة ، فالحياة لاجنسية لها ولا أوضاع ولاحدود ، وهي أوسع من أن نضع لها حدوداً ومقاييس ، والدائرة غير المحدودة لاتنحصر في الحدقة الضيقة .

ليس للفكر حدّ ولاتخوم ، فكيف نضع للحياة حداً وهي هدف الفكر ؟ كيف نحدد هذه القوة المتحولة في اللانهاية ، هذه القوة المجهولة ؟

وربّ قائل ان الانسان دائم الشوق إلى معرفة المجهول . وهذا صحيح . على أن الشوق إلى معرفة المجهول لايلزم العقل البشري إلاّ عندما يقتنع الانسان بأن ادراكه الحسي للعالم الخارجي لايكشف له حقايق الاشياء التي يراها ويلمسها ، ويضطر إلى الاعتراف بأن ادراكاته الذاتية ليست سوى تأثيرات لسبب خارجي يجهل حقيقته . ولكن الجاهل لاتمرّ في خاطره أية شبهة بشهادة حواسه الذاتية ، ويعتقد كل الاعتقاد أن الاشياء التي يراها ويلمسها هي الحقايق بعينها ولايمكن تحويله عن هذا الاعتقاد لان نظريته في مبحث المعرفة تمثل أحط دركة من المادية التافهة ، ولانه يصرّ على ادراكه ما لايدرك – بل يحس ، يصرّ على ادراكه الحقيقة المطلقة ورؤيته اياها من وراء المظهر المتحول في الحياة .

كيف نستطيع ادراك ما لايدرك بل يحس لنقيّده في دائرة ضيقة من اصطلاحاتنا البيانية ، ثم نوزعه مذاهب وطبقات هي سياسة الشعر لاطبيعته ؟ أليس من الخرق أن نحاول بلغة وضعية تحديد لغة المجاز والكناية ، لغة الروح ، لغة الحس الوجداني العميق ؟

وقد يعمد بعض هواة النظريات إلى تحديد الشعر بالطريقة الفلسفية ، وفي هذا دليل على شك هذا البعض في الشعر نفسه : في جوهر الحياة . فالمرء لايلزم جانب التفاسف إلا عندما يخالجه الشك ، مزعزع الاعتقاد بمطابقة المدارك الحسية لحقيقة الاشياء المدركة . وهذا الشك الفلسفي ينم في حد ذاته عن الاعتراف بعجز الوسائل العلمية وقصورها . وهذا الاعتراف يرغمنا في نهاية الامر على التسليم باننا ان نتمكن من معرفة حقايق الاشياء بوسائلنا المحدودة ، وان ضعف وسائلنا ناجم

عن طبيعة تكويننا الناقص . . . وعندئذ يصبح المجهول في نظرنا السر الغامض ، أي الحد الاخير الذي يقف عنده الذكاء البشري .

هذا هو الشوط الذي تجتازه الفكرة الفلسفية عندما تصدر عن الشاك لتتخلص إلى الشوق لمعرفة المجهول ، وإذا أضفنا إلى هذه البيّبات التأثير المخيّب لتقلب الحياة في هذا العالم ، ندرك في الحال أن من العبث والجهد الضائع التشبث في البحث عن الحقيقة المطلقة الثابتة وراء مظهر الوجود المتقلب ، وعندئذ يغمرنا هذا الادراك بكآبة عميقة ، فتفهم السبب الحقيقي لذلك التشاؤم العميق الذي يستولي عادةً على الشعراء .

اذن ، ثمة حقيقة غامضة من العبث البحث عنها لتحديدها ، وقد قال الاب بريمون : « ان كل قصيدة مدينة بطابعها الشعري لتألق هذه الحقيقة الغامضة . » وربما اراد الاب بريمون ان يعني بهذه « الحقيقة الغامضة » الوحي . وهو في ذلك لم يجيء بنظرية ، بل عبر عن شيء يجهله لكنه يشعر به ، خلافاً لبول فاليري الذي تعمد الاتيان بنظرية عندما قال : « اذا آمن الشاعر بالوحي قتل الابداع . » فاذا كان الوحي حالة من حالات النفس عند تأثرها المباشر بقدرة خارقة وشئنا ان ننكر هذه الحالة أنكرنا جوهر النفس ذاته — أنكرنا مبدأ الحياة . وأية غضاضة على الشاعر ان يكون وسيطاً لهذه القدرة الخارقة ؟ فالانبياء كانوا يتسقطون كلام الله . والقدرة الخارقة ليست منفصلة عن الانسان ، فهي جوهر نفسه . فاذا أرسل الشاعر نظره في معرض الطبيعة واجترّت عيناه مشهداً من مشاهد هذا العرض ، ثم خبزه على نار هذا الجوهر فيكون قد اعطاك من نفسه . والنفس هي المصهر

الداخلي الخفي لكل ما يحيط بالانسان . فاذا كانت النفس مفطورة على الصفاء وتهيأت، لها العوامل الثقافية المكمّلة ، فانها تنقّي الشعور من ادرانه ، وتقوم بهذا العمل من تلقائها فلا تكافك اجهاداً ولا تعمّلا . . . شأن المعدة الصحيحة تهضم الطعام وتتولى توزيع الدم النقي في الجسد واخراج الفاسد منه .

قلت ان القدرة الخارقة ليست منفصلة عن الانسان فهي جوهر نفسه . فعلى هذا الجوهر تنصهر المرئيات وتشترك في هذا العمل جميع الحواس . اذن ، فالقدرة الخارقة التي يتأثر بها الشاعر هي نفسه . والنفس قوة لم يدرك كنهها لتحدّ ، فكيف ننفي الوحي الشعري ما دامت النفس مصهر الشعور ؟

ويقول فاليري ايضاً ان الشاعر من يستطيع النظم ساعة يشاء ، وليس الشاعر وقفاً للمصادفة ، وانه لمن الخطل القول بان الشاعر منفعل لافاعل ، ومتسقط ما يلقى عليه .

كأني ببول فاليري يريد ان ينزل الشاعر منزلة النجار أو الحداد يقبل على عمله ساعة يحين موعد العمل أو ساعة يريد العمل ، فيكون فاعلاً لامنفعلاً . وهذا أبعد حدود الخطل وامتهان فاضح لجوهر الشعر . وايان هو هذا الشاعر الذي يصطنع العاطفة اصطناعاً ليعطيك كل ساعة انتاجاً كالنجار يعطيك الخزانة في الوقت المتفق عليه ؟

ايان هو هذا الشاعر الذي لايتأثر بما حوله ومن حوله فلا هجر حبيب يؤثر فيه فيحرك شعوره ، ولامرت صديق أو صديقة ولانكبة عزيز ، ولاكارثة أمة ولافرح شعب ، لاالظفر ولا الانكسار ، لا الذل ولاالكرامة ، لاربيع الطبيعة ولاشتاؤها ، لاصيفها ولاخريفها ؟

وأية غضاضة على قريحة الشاعر اذا هي مرّت بساعات خدر ؟ أفيكون الشاعر ملتزم اشغال في يده مقياس الزمن لانجاز عمله ؟ أفلا يتفق للقريحة ان تمرّ في ساعات خدر فلا ترى ما تراه في ساعات اليقظة الروحية ، ولاتحس ما تحسه في ساعات التأثر والانفعال ؟ وإلا ففيم لايترك الشعراء من الروائع الا ثلاثاً او اربعاً لاتسلخ من العمر اكثر من سنة ؟ قال احد الشعراء الخالدين : اذا أحصي الوقت الذي وقفته على نظم قصائدي فلا يعدو تسعة أشهر . وقال فاليري ايضاً ان الشاعر الموهوب من يختار اللفظة الصالحة لاحداث الرعشة النفسية واحياء العاطفة الشعرية .

على ان الشاعر الحقيقي لاطاقة له على اختيار اللفظة ، فله من شعوره الزاخر ما يصرفه عن هذه الأهلية . وعندي ان الشعر ينزل مرتديداً ثوبه الكامل . وهذا الثوب جزء من الشعور لايتجزأ . وقدر ما تكون ثقافة الشاعر من الرقي والذوق الموسيقي في روحه يكون البيان راقياً في شعره . وهذه اللفظة التي يريدنا بول فاليري على ان نختارها تتكاتف العناصر الروحية فينا على اختيارها ، فلا تكلفنا هذا العناء او تصرفنا عما تراه بصائرنا خلال الاحلام والرؤى . فكل ما يكتسبه المرء يصهره جوهر نفسه ، القدرة الخارقة ، فيصير عضواً فيه .

سوى ان فاليري ما لبث ان نقض نظريته في الوحي الشعري في محاضرة له عن « الهامات البحر المتوسط » . وفي هذا دليل على فساد النظريات في الأدب . فقد وصف الشاعر الفرنسي الزوارق الماخرة عباب بحر الروم ، والجيف الحمراء تتركها الاسماك المبقورة ،

واهرام البرتقال المصدّر من اسبانيا ، ودلّ على اقطاعات الروح البشرية والاساليب التي تتكوّن منها هذه الاقطاعات ، وعلى تطور النور الناشيء والسماء والشواطىء ، واثر هذه المشاهد في روحه .

وشاء ان يحدثنا عن جميع العوامل والمؤثرات التي كان لها الفضل الاكبر في تكوين مخيلته واحساسه ، فأخبرنا ان جمال البحر جذبه في صباح يوم . وفيما هو يغتسل ويمتع الطرف والروح بتموّج النور على سطح الماء اذا بمشهد تقزّ له النفس يعترض نظره ، فقد رأى على مقربة منه ، في قعر الماء الصافي الشفاف ، أشياء حمراء بلون الورد الخفيف أو الارجوان العميق ، وعلم بكثير من المقت انها كتل فظيعة من احشاء الاسماك التي طرحها الصيادون في البحر . ولم يقو على الهرب مما رأى ولاعلى تحمّله لان عاملين في نفسه كانا يتنازعان الشعور بالجمال الحقيقي الغريب في فوضى هذه الالوان الاصلية . وفيما هو مستسلم إلى المقت والرغبة في الاستفادة ، يتقاسمه عامل الهرب وعامل التحليل ، كان يفكر في ما يستطاع استنتاجه من هذا المشهد . ثم انتقل بالفكر إلى ما في شعر القدماء من الوحشية والدم ، وتذكر ان الاغريق ما تورعوا عن وصف انظع ما تقع عليه العين . . . وان الاساطير الاغريقية وشعر الملاحم والمآسي طافحة بالدم ، ولكن الفن اشبه ما يكون بسطح الماء الصافي الذي رأى خلاله تلك الاشياء الفاحشة .

وانتقل بول فاليري إلى الدور الذي مثله البحر المتوسط بما اتصف به من الخصائص المدنية في تكوين الفكر الاوروبي الذي حرر العالم البشري بأسره . ومما قاله ان طبيعة البحر المتوسط والعلاقات التي

قررها أو فرضها كانت أساس التكوين النفساني والفني ، هذا التكوين المدهش الذي استطاع ببضعة قرون ان يميز الاوروبيين من سائر الخلق ، والزمن الحاضر من الازمان الغابرة ، فأقوام البحر المتوسط هي التي خطت الخطوات الاولى الواثقة لإيضاح الاساليب والبحث عن الظواهر الطبيعية باستخدام قوى الفكر .

وبعد ان وصف الشاعر مواقع البحر المتوسط ومزاياه الطبيعية انتهى إلى القول بأن ابداع الشخصية البشرية ورفعها إلى مستوى من الرقيّ والتطور الاكمل كانا من مبتدعات هذه الشواطىء .
ويتضح لنا من هذا أن فاليري أصبح مؤمناً كل الايمان بـ « الوحي الشعري » بدليل ان البحر والشمس والسماء هي مصدر تكوينه وتثقيفه ، وان طبيعة البحر المتوسط كانت اساس التكوين النفساني والفني الذي ميّز الاوروبيين من سائر الخلق . . .

ولن اعمد هنا إلى مجادلة هذا الرأي في تمييز الاوروبيين من سائر الخلق ، فلكلٍ في تمييز عنصره مداول يخالف به الآخر ، بل أقصر الكلام على الوحي الشعري من غير ان اذهب مذهب العرب القدماء في ان الوحي يلقّن من فم شيطان ، وان الشياطين تسترق السمع وتلقيه على الالسنة .

فالوحي يتولد « على صفاء المزاج الطبيعي وقوة مادة النور في النفس » — على حد قول المسعودي . وأضرب مثلاً على ذلك هذا الغدير الصافي: لاتشقى العين في رؤية السماء وغيومها وسحبها ونجومها ماثلة في قعره ، كأن هذه السماء وما عليها هاتف في أعماق نفس الغدير . وللطبيعة الحكم المطاق في تصريف النفس البشرية واثرها

الكامل في الحس ، وليس في المبروءات النفسية والجسدية ما لاتحكمه الطبيعة .

وفي الطبيعة اسرار لطيفة لايدركها الحس مهما دق ، بل يشعر بها اذا قويت النفس . والنفس مهما قويت لاتستطيع قهر الطبيعة لأقتناص سرها اللطيف إلاّ اذا تجردت من ادران هذا العالم . وهذا مستحيل .

إذا تجردت النفس من هذه الادران بلغت النسبة النورانية الكاملة، بلغت مستوى الطبيعة ، بلغت ذات‌الله . والنفس النقية هي الله .

على ان للنفس هنيهات تصفو فيها ، فينعكس عليها من الطبيعة جمال محجوب . وهذا الجمال يهتف في النفس اسراراً تنطق لسان الشاعر الثقيف بمعانٍ شريفة . وعبثاً نحاول معرفة هذه الاسرار ، فهي من الغموض واللطف بحيث تدق على ادق حس ، ويكفي ان نسمع من هذه الاسرار ما ينطق السنتنا ويفتح اذهاننا لمشاهد نراها بأم العين .

وربما أراد الاب بريمون بقوله : « انه لاحاجة لفهم معنى الشعر ، فالسحر المنبعث عن موسيقاه يؤثر في النفس تأثيراً مباشراً » ، — ربما اراد بقوله هذا ان يعبّر عن تأثر النفس بانعكاس الجمال المحجوب في الطبيعة عليها ، ويظهر ان هذا الجمال الغامض انما هو موسيقى الطبيعة تعزف على اوتار النفس معزوفات غامضة من نوع ذلك الجمال .

على ان هذا ، وان يكن حقيقياً ، لاينبغي جعله اساساً للشعر . فالموسيقى هي عنصر من الشعر لاكله . وهذا العنصر غامض ككل شيء يسمع ولايرى . ومن الخرق الفاضح ان نكتفي من الشعر بموسيقاه ونقدم فيه وصف ما لايوصف على سائر عناصره . فللشعر عناصر متساوية يجب أن تجري كلها في حلبة واحدة ، فلا تنحط الفكرة عن الموسيقى أو الصورة عن الفكرة .

ومن الخرق ايضاً ان نتخذ الشذوذ قاعدة للشعر ، فنذهب مثلاً مذهب الاب بريمون القائل بان الشعر الجميل يخلو احياناً من المعنى ، او اذا انطوت اجزاؤه على معنى فلا ينطوي عليه في مجموعه . فالشعر اذا اقتصر على الموسيقى لايلبث ان يشيع الملل حتى في الاذن . ولابد هنا من القول ان الشعر يرافق جميع وجوه التفكير . فالشاعر قد يطرق باب الفلسفة ولا ينحط عن الشعر . على ان هذا الشاعر ليس بأبي العلاء المعري مثلاً ، فأبو العلاء يقحم الفلسفة في شعره فيناقش فيها كالمعلم العالم ، ولايلزم المزاج الفني فيلمع إلى الفكرة التي تبدو له بتعبير يستخدم فيه جميع انواع المجازات والاستعارة والرموز بحيث يحدث التأثير النفساني المنشود .

وقد يطرق الشاعر ايضاً باب الزراعة ولاينحط عن الشعر كما فعل فرجيل في « الجيورجيات » . فقد نظم هذا الشاعر قصيدته هذه ليحمل الرومانيين على تعشق الارض نزولاً على رغبة اوغسطس . على انه سيّر معارفه الزراعية في موكب من الالفاظ الموسيقية حمّله من عذوبة الحنان وروائع الوصف ما ادرج قصيدته في عدد الروائع الشعرية الخالدة .

وما اقوله عن فرجيل اقوله عن جميع الشعراء الأقدمين والمتأخرين الذين استخدموا مواهبهم لاكتشاف كنوز الطبيعة والحياة . **فالطبيعة هي قيثارة الشاعر ، وعبثاً يحاول الشاعر البحث عن اوتاره في غير هذه القيثارة** . والشاعر الحقيقي هو تاريخ عصره ملحناً ، فلولا الشعر ما عرف تاريخ العرب في الجاهلية ، ولولاه ما عرف تاريخ الفروسية والكرامات عند الرومان ، ولولاه ما عرف تاريخ الاغريق . ولما اراد الكاتب الفرنسي اتيان باسكيه وضع كتاب عن الحياة الوطنية في القرون الوسطى اضطر إلى قراءة الملاحم الشعرية Les chansons de geste

قرأت اخيراً مقالاً للكاتب الفرنسي ادمون جالو عن شاعر عظيم من شعراء القرن الثاني عشر يدعى شوتا روستافيلي ، عاش تحت السماء التي أظلت الفردوس الارضي وجبل ارارات الذي وقف عليه فلك نوح . يقول ادمون جالو ان لهذا الشاعر الذي اكتشف اخيراً قصيد او ملحمة رائعة هي امدوحة للانسان كما كيفته اواخر القرون الوسطى ، في قوته ، وشعوره بالشمم والعدل ، وسذاجته على عتبه الانبعاث . قال : « حالما نقرأ هذه القصيدة (انسان في جلد نمر) نقع في ذهول حيال هذه السكرة الشرقية ، ذلك باننا نحن الغربيين المساكين فقدنا عادة التشنج الكلامي ، ونكاد نختنق في هذا الجو من البخور والالوان . » ونحن الشرقيين فقدنا بدورنا ذلك التشنج الكلامي ونكاد نذوب في هذا الجو من البخور والالوان الغربية . . . هذا الجو الذي اجتاحت غيومه السامة بلدان الشرق مندفعة بقوة الاجتياح السياسي .

واني لأتساءل ماذا ترانا نستطيع بهذا القاموس الضيق ، هذا القاموس المستورد نتشبث فيه للتعبير عن اعمق حقايق النفس ، فنرفع الكلفة بيننا وبين اللغة ، ولانتورع عن سلوك مهامه غائمة كأننا في حلم ؟ وقد يخيل الينا ، ونحن نسلك هذه المهامه ، اننا نسير في الطريق الشعري السوي ، بينا نحن في الحقيقة لانحاول الا الخروج من انفسنا مستبعدين لنظريات خاطئة بل مضرة تحرر منها حتى ومبدعوها انفسهم. فبول فاليري الذي جاءنا بمشاريع نظريات خلقت في الأدب العربي جيلاً مضعضعاً لم يحد عن صراط ماليرب ، ولم يتمرد على القاعدة الكلاسيكية في النظم . وإني لأجد في شعر فاليري أبياتاً كثيرة يستطاع دسها في شعر لامارتين ، كما أني أجد في شعر البرناسيين أمثال غوتيه وبودلير ما يستطاع نسبته إلى شعر اعدائهم الرومانطيقيين كلامارتين وهوغو وفيني ، وشعر الرمزيين كفيرلين ومالارمي .

قلت في مستهل هذا الحديث اني لااكتب هذه المقدمة لأحدد الشعر او لأجيء بنظرية أتعصب لها واعلن لاجلها حرباً ، بل اكتبها لأرد صادراً إلى مصدره ، لأرد الشعر إلى الطبيعة امته . فمنذ اليوم الذي تأزمت فيه المشادة بين ادباء الغرب وطلعت وحوش النظريات من اوجارها يكشر بعضها في وجه البعض الآخر ، ألتوى الشعر عن قصده واصبح زياً يتلون بتلون الاهواء . ولكن النفس لاتخطىء لانها معكس ومصهر لحقايق ابدية هي الطبيعة والحياة . ففيما المدارس الشعرية منصرفة إلى التطاحن اذا بطائفة من مبدعي هذه المدارس ترتفع عن الفرضيات الزائلة إلى المصدر الأبدي . فرأينا بودلير البرناسي يصدر عن نفسه ويلتقي فريلين الرمزي على صعيد واحد ، ورأينا

جميع الشعراء الحقيقيين من زعماء المدارس يتفلّتون في الاودية المظلمة ويجتمعون انقياء على قمة واحدة هي الشعر .

فالمدارس الشعرية سجون ونظرياتها قيود ، والشاعر لا يعيش في جوّ العبودية هذا . فالطبيعة هي جوه الفسيح تتكيّف احساساته بتكيف المظاهر المتقلبة فيه ، واذا خرج الشاعر من هذا الجوّ خرج من نفسه وكذب على نفسه .

الياس ابو شبكه

المصدر :

الياس أبو شبكة .

أفاعي الفردوس .

صدرت الطبعة الاولى عام ١٩٣٧ .

سعيد عقــل

مقدمــة

أيّنا (١) ، في حبّه الأوّل – ما اتفق له أن ردّد بين يدي حسنائه : « هل عند الوردة ، يا حبيبتي ، خبرٌ عن عطرها ؟ هل تعي الوردة أنّها الطريفة ذات الشّذا المسكر ؟ »

المرأة من جمالها كالوردة من أريجها ؟ لرّبما بتقريب كهذا نكون قلنا ما ماهيّة وعيٍ من ماهية لاوعي .

الوردة لاتدرك أنها الوردة . وهو ، على ما يقول العاشق ، موقف الحسناء من حسنها .

روح مناجاته اذن أنّ فتاته لو درت ما جمالها لشاركت الناس عبادة نفسها ؟ . .

بيد أنّ الوردة هي ، على الحقيقة ، غير واعية . أمّا المرأة فشأنها آخر : جمالها ، بعض صفاتها ، سرّ وجودها ، كلّ ذلك قد يفوت منها قوى الوعي ، ولكن يستحيل أن يفوت قوى اللاوعي .

اللاوعي في الإنسان طاقةٌ ولا كأحدّ الوعي .

---

(١) الشعراء والعلماء ، الذين استلهمت وإليهم استندت في دعم هذه الخواطر ، أكثر من أن يذكروا .

لايستغرب هذا سوى اللامتمرس بأشياء العقل . أمّا من كتب أو خطب أو تحدّث ، ولو مرّة ، حديثاً أخّاذاً فلا يجهلها حقيقةً راهنة . إنّنا ، على قول شارل بالي ، إذ نتكلم فإنما نتكلم بشكل لاواعٍ ، لانفكر بألوف التصوّرات يسلسلها فكرنا في كل جملة نباشر : بشكل لاواعٍ ننتقي الألفاظ التي هي أقرب إلى الفهم أو أفعل في الذهن ، بشكلٍ لاواعٍ ننحت لنا أحياناً صيغاً جديدة ما كانت يوماً في اللغة وما ندري أي أصول مكتنفة بالسرّ راحت توحيها إلينا في تلك الهنيهة ، بل بشكل لاواعٍ يتمّ أخيراً عمل الفاهم . وبقدر ما تكون فكرتنا لاواعية تكون أسرع إلى فقهه وتكون أدقّ وأعمق . وعلى العكس ، بقدر ما تغدو فكرتنا مدروسة تحليليّة تغدو متعثّرة دون فهم الفاهمين . وشدّ ما نرى لفظة أفلتت منّا إفلاتاً ، أو كان تلفظنا بها سبب دهشتنا نحن ، تلج أفهام السّوى بسهولة لاتعرفها جملة منطقية واضحة . ويخيّل إليّ أنّ الفكرة اللاواعية وحدها تستهوي الناس . وما من شكّ في أنّ اللاوعي أفعل وسائل التّفاهم .

وفي تحرّيات جول كومباريو أنّ الموسيقى ، عند الموسيقيّ الحقّ ، أوضح من الكلام . وما كان الكلام إلاّ ليزيدها إيهاماً . وهو يزعم أننا إذ « نفكّر دونما مفهوم » فإنّما نفعل لالنتخلّى عن الاشياء التي يمثلها مفهومها بل ، بالعكس ، لنستولي عليها بأقوى .

عجيبة قــوّة اللاوعي ، سواءٌ في الكلام أو في الفهــم . وإنها لكذلك حتّى في الأغراض التي تبدو أدعى إلى استخدام العقل .

أرى أنّ اللاوعي هو رأس حالات الشعر . ورأس حالات النثر الوعي .

قبل إبداعي الشعر ، بل في ذروة إبداعي ، لا أكون واعياً في ذاتي ولا واحداً من الأشياء الواضحة . والثابت (ويمكن الاستناد في ذلك إلى العالم هنري بوانكاره) أنّ لاأثر فكرياً ذا قيمة ، رياضيّاً كان أم سياسياً . موسيقياً أم شعرياً ، تحقّق في الضّوء .
أمّا كتابتي النثر فتكون نتيجةً لما عقلته سابقاً ، نتيجة لما استنجدته من فكر وتصوّر وعاطفة ، تمّ بتمام وعي أظهرته للناس متوسلاً اللغة .

النثر فكر ، والفكرة نعيها ، وهو صور والصورة نعيها ، وهو عواطف والعاطفة نعيها . عناصر النثر جميعاً عناصر وعي . النثر في طبيعته وعي بوعي ، أمّا الشعر فلا .

الشاعر في ذروة إبداعه لاتخامره أفكارٌ ، صور أو عواطف ، وهو إن خامره شيء منها أفسد عليه العمل . عناصر الوعي (ولم أستثن العاطفة ، صنم النظّامين الأفذاذ . . .) لاتلعب في الشعر أيّ دور .

لأواجه ، ولو لماماً ، منشأ النثر .

* * *

لامناص من الإقرار بأنّ الوعي هو نثر اللاوعي . فالفكرة إذن ، شأن الصورة والعاطفة ، نثر الحالة الشعريّة ، تعبيرٌ عنها ، باهت مخفف ، يدنيها من أذهان الذوّاقة المحدود .

نتناول مجلة ونقرأ :

. . . أحبّك منكسر الطرف ، خوف

انفلاتات من نظر طامع ،
وأمسح من عبرتي في الخفاء .
فلا تقعين على دامع .
وثغرك لي فلة الفلّ باتت
يتيمة ذاك الشّذا الماتع ،
فذكر الربيع على سمعها
حرامٌ وذكر الهوى الرّاجع ؟

* * *

ونقلب الصفحة فإذا الشرح . . .

وما الفرق ؟ الأبيات غمرتنا بحالة سريّة الماهيّة ، لكنّها تركتنا غير ما كنّا وفوق ما كنّا ، ردّتنا أكثر تآلفاً مع حقائق في الكون ثبتة ، أمّا شرحها فلم يزدنا إلاّ معرفة بها ، أعطانا علماً بحالة الشاعر ، لم يعطنا الحالة .

الشعر ؟ إنّه لسراة العقل ، لطبقةٍ مصطفاة ، باستطاعتها التذوّق . أمّا النثر فللتلامذة — وقد يكونون خارج المدارس . . .

الفرق بين الشّعر والنّثر ؟ إنّه لكالفرق بين سماع المعزوفة وقراءتها .

* * *

ما ترى ، يحدو بي حيناً إلى كتابة النثر وآخر إلى إطلاع الشّعر ؟

إن أنا باشرت العمل وكانت تهدر فيّ أشياء بوسع قوى النفس أن تصل إليها ، إن كانت لي أفكار وصور وعواطف ، وجدتني تلقائياً أملأ الصفحة تلو الصفحة نثراً . أمّا إن كان في داخلي ما هو فوق طاقة تلك القوى إن كانت نفسي ذاتها في حالة فوق الوصف ،

خالصة ، لاتشويها فكرة أو صورة أو عاطفة ، حالة تمكن ذاتها من وعي ذاتها أعمق وأغنى ، فأروح تلقائياً أكوكب بياض أوراقي بالشّعر .

الشعر من لاوعي والنثر من وعي .

* * *

سؤال : ما يفرق الشّعر عن سائر الفنون ؟

قبل التعبير عنه ، أي عندما يكون لايزال في ذات الخلاّق لم يمتزج بعد بوسائل التعبير ، يمكن الشعر وحده ، أن يشمل الموسيقى ، التصوير ، الرقص ، العمارة ، وما إليها من جمال وراءه يد إنسان . قبل التعبير : حالة من اللاوعي واحدة ، لاتتبدّل إلاّ إذا اتّخذت شكلاً . تكون الموسيقى إذ نستخدم في إظهار الشعر نغماً ، والعمارة إذ نستعمل رصف حجارة ، والرقص إذ نتوسّل إعماراً بجسم بشري هذه المرّة :

الفنون ؟ لافنون قبل التعبير .

* * *

أحاول التغلغل إلى جوهر الشعر ، إلى مادّته إن استجزت الكلمة .

فيما أنا أبدع أكون لا واعياً ، فما أقدر إذن أن أعترف بما جرى لي . سوى أنّ نظرة على حالتي قبل الإبداع وبعده قد ترسل ضوءاً على السّرّ .

« قبل » الإبداع و « بعده » ؟ ولكن متى تكون فترة الإبداع ، وإلى كم تطول ؟ هل تبدأ من أوّل كلمة من مطلع القصيدة ولاتنتهي

إلاّ بروِيّ الختام ؟ لا ، وفترة العطاء الجلل ، فترة اللاوعي هذه ، نادراً ما تطول إلى أكثر من أبيات . سريعة العطب هي ، تعمّر ، في غالب ما تعمّر ، مدى بيت أو فلذةً من بيت .

إنها كالحالات النفسيّة الخالصة تكاد لاتكون حتّى تقطّعها فكرة ، صورة ، عاطفة . فإذا الشاعر (ومن هنا عناصر النثر في القصيدة ، كلّ قصيدة) وجهاً لوجه أمام الوعي . الملهم يواصل تحويراً وتبديلاً ، ولربّما يستأنف استئنافاً ، حتى يجد اللقيّة ، أي حتّى يعود إلى فترة من اللاوعي جديدة ، أمّا النظّام فيمضي في عمله غير آبه . فإذا هو ينظم النثر .

« قبل » الإبداع و « بعده » يعنيان إذن شاطئيْ تلك الفترة السعيدة من لاوعي النفس ، التي لاتعمّر سوى هنيهات .

قبل الإبداع يسيطر عليّ ما أسميه نغم القصيدة . وبقدر ما يكون عليّاً عظيماً أطلع ما هو أكثر خلوصاً . ولم يتّفق لي أن انثنيت عن العمل البهيّ إلاّ أوان أفقد النغم ، أي أوانّ تأخذ تطغى عليّ أفكار وصور وعواطف . وبعد الإبداع (وكذلك شأني بعد التذوق) أحسّ الكون أكثر تآلفاً معي منه في المعتاد . فأرجّح أنّني كنت ، في أثناء الحالة الشّعرية ، على تآخٍ مع الكون ، على مواجهةٍ للأزليّ من الحقائق التي كنت أجهل .

قبل الإبداع سلطنة نغم وبعده أثر تآخٍ مع الكون ؟ هل يعني هذا أنّ الشعر مادّته الموسيقى ؟ لربّما . وسلطنة النغم قاعدة لا تخطىء . والعلم يعلم أن الإتحاد بالكون لا يتمّ إلاّ بالتموّج . ونحن نعرف أنّ أوثق ما يرتبط بالنفس أشياء موسيقية ومظهرها الطبيعي

الغناء . وقد ثبت أنّه من الرملة إلى الكوكب ، من أدقّ الخلايا إلى أبعد جنبات الكون ، إنما يقوم ارتجاف دائم ، تموّجات دائمة . وباكراً ، منذ القرن الخامس عشر ، قال العلاّمة ده كوزا : « ان النفس لحن » .

أتكون ، يا ترى ، مادّة الشّعر تموّجاً ؟ أتكون موسيقى ؟

وبعد ، لعلّي لا أبعد عن الحقيقة كثيراً إن قلت : الشّعر حالة من لاوعي فوق الوصف لاتشرح ، جوهرها أشبه بموسيقى ، بها يتّحد الشاعر حميماً مع الأزليّ من حقائق هذا الكون المهيب .

* * *

الحالة الشّعرية ، كيف أنقلها منّي إلى المتذوّق ؟

قلت أنقل ولم أقل أعبّر أو أترجم أو أصوّر أو أمثّل أو أدني أو أعكس أو أنبىء أو أنشر ، إذ الشيء لايمكن غيره أن يكونه .

من التّحديد أذكّر بأمرين : الشّعر من لاوعي ، وجوهره أشبه بموسيقى . نقل الشعر إذن يقتضيني تعطيل الوعي في القارىء وأن أخلق فيه جوهراً أشبه بالموسيقى وأخلقه على شاكلته بالذات .

أوّلاً : كيف أعطّل الوعي ؟

أقول : غداً ، لمحض ما أن يواجه القارىء قصيدتي ، سيكون قد هيّأ لها وعيه ، عاد بأجمعه وعياً بوعي : عقلاً ، تخيّلاً ، حسّاً . سيكون على تمام أهبة إذن لأن يأخذ من الحالة الشعريّة ما يقع على السطحيّ من قوى النفس ، لأن يأخذ منها مظهرها الأحطّ ، نثريتها بالذات ، لأن يحوّل لاوعيها إلى وعي ، لأن يخرجها عن طبيعتها ،

لأن يقتلها . إذن فلا عطّل فيه الوعي . كيف ؟ بأن أشغّل منه الوعي ، ظاهرة الفضوليّة فيه . الوعي يطلب أبداً أن ينشط ، أن يعي ؟ فلأعطه حقلاً يعمل فيه نشاطه ، ولكن حقلاً مركباً (ويقول البرّانيون : صعباً) بحيث يجهد ، ويجهد حتّى يتعب ، وأخيراً يكلّ .

هذا الحقل عرفه النظريّون المحدثون باسم « الإيحاء » . أمّا بحثّهم الإيحاء فلم يخل من سذاجة . قالوا مع ملرمه : الأشياء قيلت ألف مرّة : يكفي أن نومىء إليها إيماء ، نتمم بعض الكلمات ليروح السامع يكتشفها من ذاته ونكون لم نضيّع عليه لذّة الاكتشاف وقالوا مع غير واحد : إن القارىء إذ يكتشف يحسّ أنه شارك الشاعر في خلق الحالة الشعريّة ، يحسّ أنه هو أيضاً مبدع .

على أنّ الإيحاء ، حقلنا المركب العجيب ، ينفضح سرّه إن هو درس في مظهره « التعدّدية » .

« التعدّدية » في الموسيقى مثلاً ، (وهي ذروة أنواع الموسيقى) هي أن تضرب في الوقت الواحد أصواتاً مختلفة . فإذا الوعي ، ولا صوت واحداً يرتاح إليه ، أي يعيه ، يحاول أن يقبض على الأصوات المتعدّدة مجتمعة ، فيجهد نفسه ، لكنّه (وهو الضعيف الضعيف واسطحيّته ذو خاصّة تتطلب الواضح والمفرد) عبثاً يجهد ، فإذا به يتعب ولا يلبث أن يقع دون المحجّة ، وهكذا يترك الأصوات المتعدّدة تخاطب اللاوعي ، وهي التي إنّما وجدت له ولها وجد .

ألجأ إلى الإيحاء ؟ أو ، بلغة الموسيقى ، إلى « التعدّدية » ؟ أوليس إلى هنا مردّ أقوال برغسون : « غرض الفنّ أن ينوّم القوى

العاملة ، أو بالأحرى الصامدة ، من شخصيّتنا ، ويذهب بنا هكذا إلى حالة انقياد تامّ . . . . » ؟

هو العمل السلبيّ لـ « التعدّدية » . أمّا عملها الإيجابي فلعليّ أتبيّنه عندما أفاجئني أخلق جوهر الحالة الشعريّة .

ثانياً : كيف أخلق في القارىء جوهر الحالة الشعرية وأطلقه على شاكلته بالذات ؟

الألفاظ ، عناصر الشعر المادية ، ليست علامات محض اصطلاحيّة . اللغة لم يوجدها فرد ولا مجلس أفراد فيصطلحها اصطلاحاً . اللغة بنت التّفاهم البدائي . هذا كان بين الناس ، شأنه اليوم بين البكم غير الصمّ ، أصواتاً ، لأنّها جوهر المعبّر عنه . فإذا يكون طور الكلام تعود اللفظة مجموعة أصوات أكثر تساوياً في الجوهر وشكل الجوهر مع الشيء المقصود إظهاره .

هو سرّ تكوين اللغة لا أزيد . وهو المبدأ الذي ينبغي أن يظلّ عليه الكلام .

ولكن إذا تكون الكتابة ، وتغرق اللغة في الاصطلاح ، (وهو إنّما يستدعي التدّخل العقليّ ، الذاكرة على الأخص) وتخرج الألفاظ عن هذا التّساوي في الجوهر وشكل الجوهر مع المقصود إظهاره ، تعود مهمة الفنّ أن ينتقي ويرتّب بحيث يوجد تركيباً كلاميّاً ، وقل موسيقيّاً ، فيه من الأصوات ، تمازجها أو التنادي ، جهيرها أو الخفيت مقتضبها أو المنبسط ، إلى لعب ولفّ ، ممّا يؤلّف صيغاً صوتيّة تعيد بين الكلام والمقصود إظهاره رابطةً

فيزيولوجيّة سبق للتدخّل العقلي أن فصمها . وبقدر ما يوفّق الفنّ إلى ذلك تكون درجة الخلوص في الشّعر .

تساوي الصّيغ الكلاميّة والحالة الشعرية جوهراً يقتضي أن تكون الصّيغ الكلاميّة من تموجات هي نفسها مكوّنة الحالة الشعرية . والتّساوي شكل جوهر يقضي أن تكون الصيغ الكلاميّة من تموجات هي نفسها تكوّن الحالة الشعرية . والتساوي شكل جوهر يقتضي بأنه إن كانت التموّجات التي تكوّن الحالة الشعرية على شكل لولبي مثلاً أو خط مستقيم أو ما إليه وجب أن تكون كذلك التموّجات التي تتألف منها الصيغ الكلاميّة .

يطيب لي أحياناً أن أتناول الأصل والترجمة لقصيدة ذات ترجمة عبقرية . (أقول الترجمة غير ناسٍ ما يزعمون من أن الشعر لايترجم . وإنه لكذلك إن كان المقصود أن تحصل على مساواة في المعاني بين أصل وترجمة . ولكن الشّعر أكيداً يترجم إن كان المقصود مساواة الحالة الشعرية يطلعها الأصل بالحالة نفسها تطلعها التّرجمة) . وأختبر وقع الصّيغتين على من يجهل لغتي الأصل والترجمة فألحظه يستشعر ، دوماً على وجه التقريب ، الحالة الواحدة : ففي اللغتين يسمع الحلق يعمل إن كانت الحالة الشّعرية متمظهرة الجوهر بأصوات مختنقة ، وفي اللغتين يتحسّس الأبيات عصبيّة أو متطايرة إن كانت الحالة متجليّة الجوهر بأنفاس مقتضبةٍ أو وثابة . فأوقن أن أبيات الترجمة لم تتمكن من نقل الحالة الشعرية بالذات إلاّ بعد أن ساوت أبيات الأصل جوهراً وشكل جوهر ، وأبيات التّرجمة يستحيل أن تكون قد نقلت حالة الشاعر لو لم تساوها جوهراً

وشكل جوهر . وبديهي أنّ شيئاً يساويه أحد شيئين متساويين هو مساوٍ ثانيهما .

وبعد فالقصيدة ، أداة نقل الحالة الشعرية ، أحدّها هكذا : مأثورة كلامية توصلت بتجارب موصولة — وقل بلقيّات — إلى فلذ ، إلى أبيات ، إلى مجموع إيحائي يعطّل بتعددية الأصوات وعي المتذوق ويتكوّن في لاوعيه بأكثر ما يمكن من مساواة لحالة الشّاعر جوهراً وشكل جوهر .

* * *

هذا عن الشّعر كفنّ . أي كواحد من مظاهر الجمال . أمّا الشعر في أغراضه والتفصيل فيها فمسألة أخرى . ولربما أمكنت إزاحة طرف من ستارها بالقول : إنّ الجمال الذي يخلعه الشعر ، سواءٌ على الشاعر أو على المتذوق ، إنّما قوامه هدوءٌ خالص لاتتلاطم فيه فكر وصور وعواطف ، هدوء يجعل النّفس ، ولا شيء يفجأها أو يعكّر صفاءها ، منطويةً على ذاتها ، أعماقها على أعماقها ، حتى لتغدو أكثر تآلفاً مع حقائق الكون ، بل تغدو وحقائق الكون شيئاً واحداً ، فإذا هي فوق هذا العالم بآلامه ونقائصه ، لا تصطدم عمياء بأيّ نظام تجهل .

سعيد عقل

المصدر :

مقدمة سعيد عقيل : ديوان المجدلية .

صدر الديوان للمرة الأولى عام ١٩٣٧ .

مقدمة الديوان

قسطاكي الحمصي

١٨٥٨ — ١٩٤١

اخلـع نعالك يا كليـم فانـت في
ارض مقدسـة بنفـس والهـه
واذا سمعـت الشعر فانزع سـتر رأ
سـك خاشعاً فالشعر نطـق الآلهـه

الشعر هو مرآة نفوس الشعراء ، ومتجلى تخيلاتهم بما على وجه الغبراء وما في الفضاء ، ومسرح افكارهم وسرائرهم ، ومعرض تصوراتهم وضمائرهم .

وهو سمير الاديب والخليّ ، ومؤنس وحشة الغريب والشجيّ ، ونديم العظماء ، وخليل الحكماء ، وغبطة العشاق ، وعلالة المشتاق ، والمؤرخ والراوي ، والناشر والطاوي ، وأبهى حليّ الحسان ، واشرف مزايا اللسان .

وهو مرّ العداوة ان يعادى ، شديد النكاية ان يبادى ، ما عاداه وزيرٌ أو سلطان ، الاّ وناله من سخطه ويلٌ وهوان .

وهو الرسول الامين ، الذي يعرب ويبيّن ، والحدين الذي لايمين ، وواسطة عقد الشمل بين المحبين ، والمغرّد الذي يقيم المسرات ويقعد الاحزان ، والاغنيّة التي لاتملّها الاذان .

بل هو رائد القطيعة والعداوة بين القلوب ، ومثير زعازع الفتن والحروب بين الشعوب ، يبيت منه تهتك استارٌ وتهدم بيوت وقصور ، وتهدر دماء وتطيش حلومٌ وتوغر صدورٌ ، يصرم في النفوس نار حبّ الوطن وما ادراك ماهيّة ، فاذا هي في سبيله متعادية متفانية ، يتسابق شجاعها والجبان إلى مصارع الهاوية .

لابل هو المزهر الذي تختلج لنغماته حبّات القلوب ، والنديم الساحر الذي يلهي المحبّ عن المحبوب ، والمرقص المطرب ، والواصف المعجب المغرب ، يحلو تكراره في الافواه ، وان ملّ تكرار سواه .

وهو الضيف قراه الاسماع ، ومنزلة الضمائر والقلوب ، خفيف الظلّ خفيف المتاع ، لايعتريه هرمٌ أو لغوب ، ولاينال عيونه كلال او نضوب ، ان أنشد تودّ المقل لو انها مسامع ، وتتمنى القلوب لو انها لاسراب ظبياته مراتع ، ولنجومه وبدوره مواقع ومطالع .

وهو المؤبّن الذي ينفطر له الفؤاد جزعاً وتفجّعاً ، وتكاد تسيل لديه عيون الجماد رحمةً وتوجعا .

بل هو سرّ من اسرار الالفاظ لايلج في الاسماع الاّ ويملك من الافئدة العنان ، فيصرفها كيف شاء هدىً او ضلالاً فهو لاريب

ربّ البيان ، او هو طلّسم سحريّ ينفث فيه العبقريّ فيدفع به الوفاً نحو موارد الحتوف ، يحسبون انفسهم في جنة موعودة وهم بين طعن القنا ووقع السيوف .

بل هو مظهر من مظاهر الجاذبية ، يتجلى في بعض النفوس البشرية لقابلية فيها او خاصية ، ويؤثر في نفوس سامعيه ويلذّ لهم كما يلذّ الماء للعطاش ، فيهلكون بتأثيره عن رضى كما يهلك بالنور الفراش ، وهذا من اغرب آياته واسراره ، واعجب افعاله واطواره ، وهو ذاك في سائر اطراف البسيطة ، وحالة تلك في الامم البالغة ارقى درجات الحضارة والبسيطة ، لايختص سلطانه بلغة دون اخرى من اللغات ، ولا بوزنٍ من الاوزان او نغمةٍ من النغمات ، اعيا المدارك سرّ فعله في النفوس فلا تستطيع له وصفاً وافياً او تعريفاً ، واستعصى فاعل تأثيره على البصائر فلا تطيق له تحديداً او تكييفاً ، وهو جوادٌ جمح بكثير من فرسان الفضل وملوك العرفان ، وسلست مقادته على بعض غلمان الورّاقين والخبازين والرعيان .

وهو غذاء العاشق وترتيله في صبحه ومسائه ويقظته وهجوده ، وقربان الهائم على مذبح تقديسه وسجوده ، وضحية المتيّم لدى محراب فاتنه ومعبوده .

والخطيب الذي تلعب بالعقول كلماته ، والوحي الذي هبطت من اسمى عروش البلاغة آياته .

بل الجارح الجرح لايلتئم ، والصارم الذي لايكل ولاينثلم .

بل هو الشفيع المشفّع اذا قامت حجة الخصوم ، والناصر الذي لايجزع اذا عزّ انصار المظلوم ، لم ينطق بشير السلام بلسان اعذب

من لسانه ولاتوسّل إلى الصلح والموادعة متوسّل الا وكان من اعوانه .
وهو رافع اقدار العظماء ومخلد مفاخرهم ، ورواية احساب الكرماء وراية مآثرهم ، وهو افخر عقد يصاغ لتنزيل جواهر المحاسن والمكارم ، وابهى تاجٍ تتزين به رؤوس الملوك والاعاظم ، واجلّ تحفةٍ تهدى في التهاني والمواسم ، وأنفس ما احتفظ به الاحباب من الرتائم والعزائم .

بل هو رسم ادق العواطف واخفى حركات النفوس ، والصهباء التي تسكر بها الاذواق صافية من اكدار الكؤوس .

بل هو الحكمة توحيها الفطنة إلى ملك البلاغة والبيان ، فتبرزها لعالم السمع في ابدع مطارف النهى وابرع حليّ اللسان .

وهو السجلّ مجدّد مآثر الذاهبين الاولين بصورةٍ عديمة المثال ، معدّد مفاخر المتفردين المتقدمين بطريقة منقطعة المنوال ، ممثّل المحاسن للعيون بعد ان لبثت قروناً في الارماس ، معرّف كلّ نكرةٍ مدفون بعد ان تراخت العصور وتداخلت الاجناس ، مقيم القسطاس المستقيم فلا يبخسون ولا يغبنون ، يوفى كلاً حقّه فيستعاد المسلوب وان تقادمت القرون ، بل هو ناشر الاموات ، ومحي الرفات ، وقد تخلصت من عوائق الاجساد ، وتملصت من بوائق الحسّاد .

بل هو روح يمازج النفوس فيصعد بها في عوالم الغيب ، فتتخطى مناطق القياس والتقدير إلى عوالم الشك والريب ، وتجوز افلاك الحدس والظنون ، وتخترق الحجب فتترك خلفها ابعد مرئيات العيون ،

وتجرّت من عناصر الوهم والتخيلات ، احوالاً ومخارقات تحسبها لديها من المشهودات .

بل هو بخار الرياض والانهار ، ونفحات الربيع والازهار ، وصدى البلابل والاطيار ، وألحان نسمات الأشجار .

بل جوهر قد تجرد عن الهيولى ، وترفع عن المادة الاولى ، فلا يتوصّل اليه بغير السمع من أدوات الحسّ ، ولايعاق به شيء من النظر او الشم او اللمس ، وقد يتمثل لدى اعين الذهن مليّاً ، كما لو كان مخلوقاً سوياً ، ويقبّل ملفوظاً ، ويتصور ملحوظاً .

بل هو افصح ترجمان لاعجم مخلوقٍ في عالم الوهم ، وابلغ معربٍ لاغلق مكتوب في غياهب الحلم .

بل اوضح مصوّر لاسرع سائح في فضاء الخيال ، واجلى مفصّل لمعترك التصورات في غيابات المحال .

بل هو المعبود الذي حارت في وصفه الفلاسفة والحكماء من اليونان والرومان ، وهامت في حبّه قلوب العارفين والفضلاء في مشاهير الامصار والازمان ، ونطقت به الاولياء والانبياء وحامت حوله قرائح العظماء والامراء ، وباهت باربابه السلاطين ، والجبابرة من الفاتحين المتغلبين ، في كل قطر وفي كل حين .

فبينا تحسب نفسك جائلة في مصارع عشاق ، ومفازة اشواق ، اذ تراها في جوب آفاق ، ومشاهدة عجائب اتفاق ، وبينا تظنها سارحة بين اسراب غزلان ، في رياض وفلوات وجنان ، اذ تراها بين خلان وندمان ونقل وريحان ، عاكفة على اباريق الدنان ، كأنها

نشوى سرور وامان ، بين نقر الاوتار على العيدان ، ورقص البلابل على الاغصان .

وبينما يخيّل اليك انك في ميدان قتال ، بين سيوفٍ ورماح ونبال ، وكرٍ وفرّ ، وبترٍ وهبر ، وصراع وجلاد ، في هضبة او واد ، بين بروق المدافع ورعودها ، ونحوس المعامع وسعودها ، اذ تظن انك نقلت إلى مجالس انس عقد لها السرور ابهى الرايات ، او إلى مجمع علماء يديرون بارع الاداب في روائع الكاسات ، او انك تنوح وراء الجنائز ، او تروح بمأثور الجوائز ، او تمدح الخلان والاعيان ، او تشبب وتتغزّل بالحسان ، او تتشوق إلى الاوطان ، او تذم الغربة والرقيب ، او تقدح في العشرة والمشيب ، او تطري الوفاء والعدل ، او تثني على ذوي الفضل ، او ترى نفسك في هياكل الفلاسفة وحلقات الحكماء ، لدرس مكارم الاخلاق ومستصوب الآراء ، وتنشر من مطاوي الفضائل وخزائن المحاسن انور الاضواء ، كأنك قائمٌ بين اقوام قد اكل الدهر عليهم وشرب ، وأنت الان تفرح لفرحهم ولما يحزنهم تحزن وتضطرب ، بيد انك لم يتغير بك مكانك ، ولا تقادم عهدك ولاتحوّل زمانك ، وانما هو الشعر اراك الحياة شباباً ومشيباً ، والمستحيل ممكناً والبعيد قريباً ، واذاقك العيش حاراً وضريباً ، وصوّر لك ما تتوهمه حقيقةً في مراتب الاوهام ، وجسّم لك الوهم فرحت تحسبه في عداد الاجسام .

اما بعد فهذا تعريف الشعر بالاجمال وبقدر ما امتثلته القريحة الضعيفة وفي ديواني هذا شيء او اشياء مما وصفته آنفاً فان لم يجمع محاسن الشعر او شيئاً منها ، فهو لا ريب مرآة ايامي ، وتأريخ ظعني

ومقامي ، وحربي وسلامي ، وراوية اخباري ، وكاشف عواري ، وقد رتبته بحسب ازمان نظمه ، وهذه الطريقة — اي الترتيب بحسب تواريخ النظم — ادلّ عندي على اغراض الناظم وحالة الزمن وما يتعلق بالبيئة والدواعي التي دعت إلى النظم ولاسيما سنّ الناظم وخفيات نفسه وضميره . وقد علمت ان الشعر ليس كفنّ الغناء او التصوير أو النقش او الموسيقى بحيث يراد منه تعلم الفن او مسرة النفس من النظر إلى محاسن المنظورات ، واستماع المطربات ، بل هو بحسب ما اجملته لك فنّ جليل وعلم واسع يحيط بتفصيل المرئيات والمسموعات ووصفها بحسب تأثيرها في نفوس معاينيها وسامعيها ، بل وصف سائر المحسوسات والمعلومات على هذا النحو ، بل بابراز الموهومات في صور المشهودات ، فيرى فيه الناقد البصير غير ما يرى القارىء البسيط ، اذ هذا لاينظر غير الحروف ولا يستدل بها على غير الالفاظ بمعانيها الظاهرة ، واما ذلك فلا يرضيه الاّ أن يتطلّع إلى ما وراء ذلك وان ينظر بعين الشاعر نفسه ويتلمس الوقوف على احداثه النفسانية ويتحسس عواطفه ساعة تأليفه تلك القصيدة او ذلك البيت ، بل يطمع ان يجسّ بيده صدر الشاعر فيعدّ عليه دقات قلبه ، وان يمتد بصره فيطّلع على اخفى حركات نفسه وادق شعوره واهوائه كما و كان شعره مرآة ذلك كله .

وهذا ولاريب مطلبٌ لايستهل مناله لجميع طلاّبه ، ومطمع لا يتيسّر لعامة الطامعين من رغّابه ، وهو فرع من السيكولوجي المعرب بعلم قوى النفس او بعلم النفس .

على أنّ من رزق حظاً من الذوق العالي . ونصيباً من النباهة وحصة صالحة من علوم الادب ، وقلباً عليماً باسرار الالفاظ ، وبصراً صادقاً بمواقعها ، كان حرّياً ان ينكشف له حجاب اللفظ عن صور المعاني ، وان يتوصل إلى متطلّعه ، ويفوز عند الاستبصار بمطمعه . ولا سيما وان جيد الشعر ‑ وكلامنا عنه ‑ ليس من الطلاسمات او الاحاجي التي يتعمّد اغلاقها وتغميضها ، بل الالفاظ نفسها بمعانيها الحقيقية ، دالة على ما تعمد الشاعر تصويره ، بل دالة على ما صورته مخيلة الشاعر ساعة تأليفه وعلى عواطفه وشعوره .

ولهذا كان الشعر عند هذه الطبقة من حذّاق النقّادين ، تأريخاً صادقاً بل لساناً ناطقاً ، فهو مخلد قائليه بجميع اخلاقهم وعواطفهم ومن صاحب قائليه من المشار اليهم في شعره على كؤوس الشراب او عند المداعبة والعتاب ، ولاسيما من مدحوه او هجوه او راسلوه إلى كثير مما يتعلق بعادات عصرهم وآداب قرهم واحوال مجتمعهم .

فعسى ان يكون في ديواني هذا ما يخلد لي حسن الذكر . والذوي رحمي ما لا يخفض القدر ، وسلام على من كشف الحسنات ، وستر الزلات ، وتبارك من تفرد بالكمال . وجل عن النقص في كل حال .

وكتب في ١٥ تموز سنة ١٩١٧

في حلب سنة ١٩٣٩

قسطاكي الحمصي

المصدر :

مقدمة مختارات من نظم الأديب الكبير الأستاذ قسطاكي بك الحمصي الحلبي ‑ حلب ١٩٣٩

مقدمة

علي محمود طه

١٩٠٢ – ١٩٤٩

هذه الأرواح ، تهيم أشباحها ويدور حوارها في صفحات هذا الكتاب ، يعيش بعضها في عالم الحقيقة ، ويضطرب البعض الآخر بين عالمي الأساطير والخرافات ؛ لم أسع إليها عن عمد ، ولم ألقها مصادفة ، ولكني تبينتها صوراً يتمثلها خيالي ، وحديثاً يتردد في خطرات نفسي ؛ فوجدت مطابقة بينها وبين أشخاص قرأت لهم وسمعت عنهم ، ورأيت اتفاقاً ومواءمة بين ما نزعوا اليه في عالم الروح وما صنعوه في عالم المادة ، فعرضت للطبائع والغرائز والأهواء ، واستعرضت الوقائع والآثار والأسماء فأيقنت أن كلاً يكاد أن يكون المعنيّ بهذا الحوار ، المتسقة طبائعه وغرائزه على هذا الغرار .

وحبّب لي هذا الجو الأغريقي الساحر ، وأساطيره الغادية الشادية ، أني وأنا أتمثّل هذه الأرواح صوراً ، وأستلهمها إحساساً وفكراً ، خيل لي أن روحي قد انسرقت من طيفها فيما يشبه أحلام اليقظة ، أو لحظات الشرود الإلهي ، مأخوذة بما ترى ، مشفقة مما تسمع ، وكأني بها وراء سحابة في عالمها الذي سبق لها أن عاشت فيه عند بعثها الأول ، ووجدت نفسي ، في طريق أفلاطون ومثاله العليا ، فتنفست في هذا الجو طليقاً حراً لاتقيدني بيئة أو عقيدة ، ولايحد من

حريتي حذر أو اتهام ، وأرسلت بصري في هذا الطريق الصاعد البعيد فلم يصل إلى مداه، وبدأت البصيرة عملها من حيث انتهى البصر ، فإذا أبواب سحرية موصدة ، وراءها خفايا وأسرار ، وقضايا وأقدار وإذا بي عند ختام قصيدتي لا أزال في ذات الطريق لم أصل إلى غاية : ولم أوف على نهاية .

وفي عالم الأسرار والأقدار سمعت حواراً يجري بين حوريات ، من صواحب الفن ورباته ، هن : سافو ، وبليتيس ، وتاييس ؛ ورأيت بينهن إلهاً عجيباً فذاً يحكم بينهن ويقضي فيهن ؛ وجدت « هرميس » الذي لامشبه له بين آلهة الأغريق ، في تعدد صوره ، وتنوع مذاهبه ، وتنافر طبائعه ، وتناقص وظائفه ؛ إلهٌ عجيب شاذ ، لائق حقاً بالمهمة الموكّل بها في هذه القضية ، ومن غيره إلهٌ له في الروحيات والماديات ؟ له في التجارة والكسب ، وله في الخداع والدهاء ، له في الجد والعبث ، وله في الشعر والغناء ؛ يجمع بين النزعات العليا ، والرغبات السفلى ، يلهم الشعراء ، ويرعى القطعان ؛ ثم هو بعد ذلك وقبله ، لصٌ أو إلهٌ للصوص ؟

من غيره إله متناقضات حقاً ، يحكم بين صاحبات الفن ورباته ؟ والحياة لا تلذ لهن إلا بهذا التناقض ، ولايرين لها جمالاً إلا من من خلال أمزجتهن الرقيقة المتقلبة .

لم يكن غير « هرميس » ليحكم بين هذه الأرواح العابثة ، اللاهية المرحة الغاوية ، المتألمة المعذبة ، اللطيفة المتكبرة ؛ ولم يكن لهن غير هذا الإله القوي العجيب ؛ الخبير بالمرأة حقاً ، الذي يعرف جمالها ودلالها . ويدرك سرها الذي رآه ووعاه في « أفروديت »

ربة العشق وإلهة الصبابة . ولم يكن لهن غير إله مرح ، قادر ، ماكر ، يتعقّب الحوريات ويلعب معهن ، وتتحدى قوته العمالقة ويعبث مكره بالآلهة . وما رأيك في إله سرق ليلة مولده خمسين ثوراً من قطيع الأوليمب السماويّ ، وجد بينها في كهف « بيلوس » متلبساً بإثمه ؟ ثم هو بعد ذلك قاتل العملاق « أرجوس » وقائد « هيراكليس » إلى عالم الظلمات .

وهذه « سافو » ربة الشعر الغنائي والأماديح والأناشيد التي يراها « سوينبرن » أعظم شاعرة عرفها التاريخ ، والتي اضطربت حياتها في محيط من اللذات والآلام ، أحبت الرجال ثم اجتوتهم ، ووصمت بهذا اللون المريض من العشق حتى قيل إنها كانت تُعد في «لسبوس » كاهنة الرذيلة ؛ ثم هي هذه المحبة الواقعة ، التي انتحرت من أجل معشوقها الملاح الميتيليني « فاون» الذي كان بعطر « فينوس » أجمل الرجال ؟ ! .

هذه المرأة الواقعية ، ما سرّ شذوذها المزعوم ؟ وما سرّ صاحبتها « بليتيس » الخرافية ؟ السرّ هو ما يعالل به العلماء هذا الانحراف الجنسي ، هو الشعور العميق بالازدراء والامتهان من الجنس الآخر ، هو الخيبة الشديدة في الحب ، والاخفاق الأليم فيه ، يصدم العصب الانسانيّ فيهزه هزاً عميقاً عنيفاً يختل له نظامه ، وهذا ما يتجلى في حوار الشاعرتين ، وما يعبران عنه بالذات في مقطع « دنيا النساء » .

أما « تاييس » تلك الراقصة الفاتنة اللعوب ، التي لاتستقيم حياتها الخاصة بغير الرجال وغير موداتهم ، والتي لاينمو فنها ولايتفتح ولا يزدهر ، إلا في أجواء محبتهم وإعجابهم وتحت أشعات أبصارهم وبين رفيف شفاههم وقلوبهم ، هذه المرأة الذكية القلب لم يكن لها

غير أن تدافع عن الرجال لأن الحياة كما تعرفها وكما خبرتها لامعنى لها بدونهم ، ولابهجة فيها إلا بهم ؛ وإن عطفت على بنات جنسها في بعض أقوالها فذلك من البدهيات التي لاخلاف عليها .

فإن كان ثمة فرق محسوس بين نزوع هذه الأرواح في السماء ، وبين صنيع أصحابها في الأرض ، فهو الذي تقضي به طبائع الأشياء ، ويستقيم به المنطق ؛ فكل روح قد سمعت بحديث الخير والشر ، وتأثرت به ، وطبعت على ما هيئت له وهي في صحبة الآلهة قبل حلولها في أطيافها الأرضية ، وهيهات أن ندرك في أقوالها مدى عنفها ولينها ؛ وحبها وبغضها ؛ وسخطها ورضاها ؛ وسلامها وخصامها ، وهي روح مجرد في العالم المعقول ؛ كما نرى ذلك ونلمسه في أفعالها وهي مزاج من روح وجسد في العالم المنظور ؛ وهذه الأطياف الأرضية ، سجون أرواحنا ، مثار الأهواء الآثمة ، ومستقر الغرائز الدنيا .

هرميس — ابن الإله جوبيتر ، وزوج أفروديت إلهة الصبابة ، ووالد هرما أفروديت الفتاة العجيبة الشاذة المعروض تمثالها في متحف اللوفر بباريس ، وهو رسول آلهة الإغريق ، إله اللصوص والمنافسات ، والقطعان ، والبلاغة ، والموسيقى ، والوحي ، ومبتكر جميع الفنون ، ومخترع القيثارة في طفولته ، وتروي الأساطير حوادث كثيرة عن رجولته ومغامراته الغرامية ، وقد أقام له الإغريق شتى المعابد في كثير من أنحاء اليونان وجزائرها كما نصب له الرومان أجمل التماثيل وقيل إنه المكاف قيادة الأرواح الآثمة إلى الجحيم .

تاييس — راقصة أثينية ، غير القديسة التي وضع فيها أناتول فرانس قصته المشهورة ، ولدت قبل الميلاد بأربعة قرون . وكانت فاتنة مرحة أكثر ما تكون المرأة فتنة ومرحاً ، حتى أسكرت بأنوثتها شبان أثينا ، وكانت صاحبة فنّ في حياتها ، وغواية الكثير من أرباب الخيال وأفذاذ الرجال ، ومن عشاقها الشاعر الأثيني « مناندر » وقد تسلطت على الاسكندر الأكبر ، وصحبته في فتوحاته الآسيوية ، وقيل إنها التي قدمت المشعل الذي أحرق مدينة « برسبوليس » وفي رواية أنها هبطت مصر وأغوت بطليموس بجمالها حتى تزوج منها .

سافو — شاعرة اغريقية ، ولدت في القرن السادس قبل الميلاد وأنشأت مدرسة لها في جزيرة « لسبوس » لتعليم الفتيات الشعر والموسيقى وكانت لسبوس في ذلك العهد أشد جاذبية من أثينا لرجال الأدب والفن وأحفل منها بمباهج الحياة ، ومراداً فاتناً للهو والقصف ؛ وقد تغنّت سافو في شعرها بالحب والجمال والأهواء العنيفة المضطربة بين الفتون والمرح واشتهرت بين بنات جنسها بالمذهب السافي في ملذات العشق .

بليتيس — هي الشاعرة الخرافية التي خلقها إبداع الشاعر الفرنسي « بيير لويس » وأفرد كتاباً لأشعارها المزعومة باسم « أغاني بليتيس » وهي مجموعة من الشعر الغنائي الذي يتحدث بالغزل المكشوف ، والحب الملتهب ، ويرمز إلى رغبات الجنس المكبوتة ؛ وهي صورة محرفة من الشاعرة سافو ، وقد ولدت في القرن السادس قبل الميلاد على شاطىء « الملاس » بالقرب من « بانفلي » ثم انتقلت في

صباها إلى « لسبوس » حيث قضت حياتها في الحب والبؤس ، والتهتك ، وكانت معاصرة لسافو ومن صواحباتها الحبيبات .

الأرفسي — نسبة إلى شاعر إغريقي كان يحرك الجماد والنبات بقوة شعره وسحر غنائه ، ويروى أنه أبرع من عزف على القيثار وكانت لألحانه خوارق المعجزات حتى قيل إن مدينة « سيبا » بنيت بسحر إيقاعه وقيل إنه أخضع الوحوش الضارية لنغماته . فكانت تقبل من كهوفها على أصدائها وترقد تحت قدميه مصغية إليه ، وفي الأساطير أنه أحب « يوريدس » وكانت فتاة بارعة الجمال فتزوجها ، وفي ليلة العرس لدغتها أفعى أثناء رقصها فماتت لساعتها ، وجن « أرفيوس » حزناً عليها ، فاقتحم أرض الفناء ، وأخذ يوقع على قيثاره أمام « بلوتو » ملك الموت ، أشجى أنغامه المتفجرة لوعةً وحزناً ، فتأثرت زوجته « برسيفون » من أنغامه وعطفت زوجها عليه ، فوعدها بإعادة « يوريدس » اليه ، على أن يخرج من أرض الموت دون أن يلتفت وراءه ، وخرج « أرفيوس » وقلبه يتنصت بين جنبيه لوقع أقدام حبيبته فلما لم يسمعها نظر خلفه فرآها ، ولكنها لم تلبث أن تلاشت من عينيه وتبددت بين ذراعيه الممتدتين للقائها ! .

الأليمب — مقر آلهة الإغريق وسماء وحي شعرائهم .

السامري — بعد خروج موسى ببني اسرائيل من مصر ، واجتيازهم البحر في طريق الأرض المقدسة ، واعد موسى ربه في طور سيناء ، فذهب إلى مواعدته وسبق قومه الذين تخلفوا عنه في البرية زهاء ثلاثين يوماً ، ولما طالت غيبته دبت الحيرة فيهم وتولاهم القلق ، فانبرى منهم السامري فصنع لهم عجلاً من الذهب يسمع له خوار

عجب ؛ قد فتن بنو اسرائيل بهذا المعبود الجديد . فباتوا يغنون ويطربون ، وقامت أجمل فتياتهم ترقص حوله على ضوء النيران ؛ ونسي القوم مقالة موسى لهم عند وداعه .

مانا ـ أعظم آلهة الطابو وأشدهم انتقاماً والطابو معناها المقدس ، وهي عقيدة بعض قبائل السود المنتشرين في شاطىء العاج الأفريقي وبعض جزر الشرق النائية ، ومن الايمان بها حلول روح القدس في جسد فتاة بارعة الجمال ، يسمونها « عذراء الطابو » إذا مسها أحد بشرٌ غضبت أرواح آلهتهم فثارت البراكين وطغت البحار وعصفت الرياح ولعلعت البروق انتقاماً لهذه العذراء المقدسة .

هواي ــ من جزائر المحيط الهادىء ، اشتهرت بجوها الشرقي الساحر وطبيعتها البدائية الفاتنة وموسيقاها المترجمة عن أرق العواطف وألذّ خلجات الحياة .

موسوي ـ إشارة إلى قصة النبي موسى في أرض مدين، وقد مرّ بمورد للماء مغطى بحجر ثقيل ، تقف دونه فتاتان بأغنامها على استحياء دون أن تستطيعا الورود من زحام الرجال ، فخفّ موسى لنجدتهما وتقدم فرفع غطاء البئر بيديه وقرّب الماء لهما وسقى الغنم ، وأعجبت به إحدى الفتاتين واسمها صفّورة ، فدعته لمرافقتها إلى والدها الشيخ ، وكان ذلك وتزوج موسى منها .

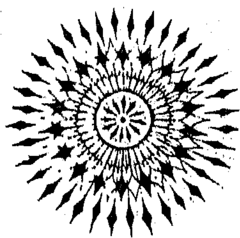
علي محمود طه

المصدر : ديوان علي محمود طه
دار العودة ــ بيروت
مقدمة ديوان : أرواح وأشباح
صدرت الطبعة الأولى عام ١٩٤٢ .

فهرس مرحلة مجلة أبولو

القسم الأول

٣٠٠٠ط١/ ٧/ ١٩٩٦



طبع في مطابع وزارة الثقافة

دمشق ١٩٩٦

سعر النسخة داخل القطر

٢٢٥ ل.س

في الأقطار العربية ما يعادل

٤٥٠ ل.س